مفهوم
٣
الولاء
والبراء

نظرة علمية في أهل التبليغ والدعوة

وبآخره ملحق لفتاوى كبار العلماء
فى العالم الإسلامى

تأليف الشيخ

أيمن أبو شادى

الإجازة العالية من كلية الشريعة - جامعة الأزهر الشريف
الإجازة بالأسانيد فى الحديث والأصول والفقه والعقيدة

نظرة علمية



في

أهل التبليغ والدعوة

وبآخره ملحق لفتاوى ورسائل كبار العلماء

في العالم الإسلامي

في أهل التبليغ والدعوة

تأليف

الشيخ أيمن أبو شادي

الإجازة العالية من كلية الشريعة ـ جامعة الأزهر الشريف

الإجازة بالأسانيد في الحديث والأصول والفقه والعقيدة

الطبعة الثانية
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م
الجزء الثالث
رقم الإيداع بدار الكتب
٨٦٩١/ ٢٠٠٠
الطبعة الثالثة
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

لطلب الكتاب خارج مصر
ت: ٦٣٥٣٤٣٦
عنوان المراسلة: ١٣ شارع بركات - طومانباي - القاهرة
ج.م.ع

بسم الله الرحمن الرحيم

كتابنا هذا...

قـد يقـول القائل: وهـل الدعوة تحـتـاج إلى الأقـلام التي تتكلم عنهـا؟ وتكتب فيها؟ وتنصف منها؟

ويقول الآخر: إن الهداية قرينة الجهد ويكفينا أن نجتهد.

ونقول للقائلين: يا إخواننا، وكيف إذا تسببت بعض الأقلام..

التي تلمز في هذا السبيل، وتطلق فيه الأقاويل..

في توقف الأقدام لبعض الدعاة المخلصين،

الذين كـانوا نجـومـا زاهرة تضيء للسـائرين، ومنارات هدى للتائهين، ينشرون شراع النجاة نحوهم، ويقتبسون النور في ظلمات الهوى منهم..

وكيف إذا تسببت هذه الأقلام، في إنكار ما ليس بمنكر،

لَمَّا تلبَّس الصدق بالزور، وارتدى الهوى ثوب الغرور،

فجال وصال، وأغرب في المقال، وأتى بالمحال..

وكـيف إذا طـغت الأقـلام وبغـت، وصارت إلـى أن قطعت السـبـيل، وأظلم بها الليل الطويل، وكان أن أقبل الآن الصبح..

وانطفأت القناديل، وانفسحت الأرواح في الظل الظليل،

وبرأ في قلبنا الجُرح...

فيا بسمة الهمس، ويا نسمة الأمس ودعوة الصحابة،

يا من يأس منك اليأس، وكلَّ معك البأسُ،

ظلِّلي أرواحنا، واقبلي العذر منا، ورُفي في سمائنـا..

فإنا هنا كنا، وغدا يخـلو المكـان منا، وتبـقى لنا المُنَـى،

ونياتُ الهدى والتُّقى، لخير أمة أُخرجت للناس،

تأمر بالمعروف بمعروف، وتنهى عن المنكر بغير منكر،

وتترحَّم على العالمين..

فيا أيتها الأيام امضِ؛ فقد مضت نظرةُ الأحزان، ومضى العمر..

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله واسع الفضل، عظيم القدر، وافر الإنعام،

أول كل شيء، وآخر كل موجود، وبارئ الوجود،

عزيز القوة، واسع النعمة، كامل المنة،

اصطفى أمة الإسلام، وبعث لها رسولها ﷺ،

فهدى سبيلها، وأضاء دربها، وزكّى أعمالها،

فهي بين عرفان وإحسان، وسنةٍ وقرآن..

وبعد...

مع الجسور الملتوية الرطبة، تقودني أقدامي فأنا غريب....

لا أعرف الطرق المضيئة اللامعة، ملابسي ليست من ذلك العصر، وملامحي، وكل شيء، أين يسير ركبي؟، إلى أين سأمضي؟ هذا سرى وحدي فأنا دعوة المرسلين، وحياة الصحابة، ورياض الصالحين..

وعباءتي تحوى الكثير للبائسين، ولكنهم يهربون، من بعضهم يهربون، مع رجفة الطريق، ووحشة الصديق..

فلو توقفوا للحظات ربما... ربما لن يتمكنوا ثانية من المسير، فالطرقات طويلة، والأجساد نحيلة، لا تستطيع أن تفعل الاثنين، إما أن يسيروا للأبد، أو يتوقفوا كمعالم كسيرةٍ لصرح قديم يتحدّى الزمن... أجساد مختلفة، أطفال وشيوخ، ورجالٌ ونساء، وكلهم مسرعون في كافة الاتجاهات، مادامت مظلمة، يجتازون الأزقة إلى غيرها،

فبين تلك الجدر العتيقة، تعودوا أن يولدوا، أن يعيشوا..

وخلف تلك الجدر يتماوج شيء نحيل، يحمل على ظهره متاعه، ونيات المرسلين.....

يبيع الدفء بالجرعة، لمن يأخذ، ومن يذرف هنا دمعة،
لأجل نجاة المسلمين...
هو تلميذ..لم يرق لمرتبةٍ من الصنعة، ولم يُتقن نزيف الحَرْف في الخُدعة،
وتصفيقا لأقنعة من البدعة، وتزييفا لوجه الصدق،
في المرآة في الملهاة، قطعة تلو القطعة..
والأيدي القاسية تتلاعب بالكلمات، تمزجها،
تخرجها صلبة عجولة،
كيف تستطيع ذلك لست أدري؟!
وها هي الكلمات النازفات مرة أخرى،
تقف دامعة بين جفني ولا أعلم كيف أذرفها...
لا أعلم كيف أمحوها؟، كيف أنكرها؟، وهي تهوي فأعرفها.
كلمات البهت تمضي... وصمتي صوت أسمعه...
فكل اللحظات دفينة، لخطوات ليل أراه،
خلف ظلال تسير فوق رداء البرد،
أناملهم قوية متشابكة، عمائمهم بيضاء ضاحكة،
وعيون الظلمة بعيدة، يُضيء بها الفجر، ووراءهم المجد،
وكلمات ونيَّات النبوة، نسمعها ونرجعها،
لحنا لا يعرف الورق كيف يحويه؟ كيف يطويه؟
والقلوب الصادقة من بُعدٍ تدق معانيه...

يا حروف الضغينة... إذا تكسّرتِ في يدي،
تماثيل من البغض... لا أدري متى سقطت على الأرض،
لا تطلبي ما تجهلينه...
اهربي... إن استطعت بألف جواد جامح،
لا تفرحي... باللفتة الَخجلى، بالنظرة العجلى،
فألف آهة تُدوي في الطريق الجارح...
لأن صوتَك كان مزمارًا، يحاول أن تُرجفي،
ولم تعرفي، ولم تُنصفي...
شيءٌ فيك غريب لا تقصدينه،
ونحن طلائع جيلنا المفقود في متاهات الضغينة،
إنا ارتجافات السكينة...
في الدم المملوء زيفًا بالنقاء، من انحناءات سنينه،
إذا تمدَّدت الليالي نحو أطراف المدينة،
ليعرف المسافرون، أن أمس كان يوما حزينا،
يا حروف الضغينة... سياجُك المنحلةُ الأوتاد،
ما عاد يجديها أن تهذبها الأيادي،
سياجُك المنحلة الأوتاد، تكشف ما أريده
وما كنت إلا صوت يأس...صدَّه حيث كان، كُلُّ أسواري الحصينة
بعدما سدَت الأشواك نظرتك الرحيبة، وناديت ذما من لا تقصدينه
فأنا المصباح فوق بابك تشعلينه...
إذا تبلَّلت الدموع بألف يومٍ تذكرينه..

أيمن أبو شادي



الشبهة الثالثة:

أهل الدعوة ليس عندهم حقيقة الولاء والبراء ولا يملكون أوثق عرى الإيمان

يقولون: أهل الدعـوة ليس عندهم حـقيـقة الولاء والبـراء، ولا يملكون أوثـق عـرى الإيمان وهو الحب فـي الله والبـغـض في الله، فتراهم يتـحببون إلى أهل المعـاصي ويبشون في وجوهم، ويتـبسطون معـهم، بل لا يتحـرجون أن يذهبـوا إلى أوكارهم ومـجامعـهم التي يعصون فـيها الإله، بشرب خـمر أو مخدر، أو الأمـاكن التي يلهون فيهـا ويعبثون، فيـتلون عليهم فيهـا الآيات والأحاديث، وكان الأولى لهم أن يُجلو القـرآن ويعظمـوه، فـلا يتلونه أمـام هؤلاء المجـرمين، والعتاه الفاسقين، بل كان عليـهم هجرهم الهجر الواجب، ويعرضوا عنهم طالما هم على هذه المعايب.. !

كمـا أنهم يَدْعُون للعـصاة والمشـركين بدلا من بغضهم ولـعنتهم والدعاء عليهم، فالولاء والبراء عندهم مفقود، ليس له وجود..

هذا ما قالـوه ويقولونه، وبألسنتهم ردَّدوه..

ونقول مستعينين بالله ومجـيبين على ذلك: قال الإمام الحافظ أبو حاتم محمد بن حـبان البُسْتي رحمـه الله تعالى سـمعت مـحمـد بن المنذر يقول: سمعت محمد بن عبدالرحمن يقول: سمعت أبا عمار الحسين ابن حريث يقول: **قيل لرجل: ألك عيـوب؟ قال: لا، قيل له: فلك مَنْ يلتمسها؟ قال: نعم، قال: فما أكثر عيوبك!**[1].

وروي عن موسى عليه السلام أنه قال: «يا رب، احبس عني ألسنة الناس. فقال الله تبارك وتعالى: يا موسى، هذا شيء لم أفعله بنفسي فكيف أفعله بك. وفي لفظ آخر: لو خصصت بهذا أحداً لخصصت به نفسي»[2].

وأوحى الله عـز وجل إلى عُـزَير: «إن لم تطب نفسـا بأن أجـعلك علكا[3] **في أفواه الماضغين لم أكتبك عندي من المتواضعين».**

---

١ ـ كتاب «روضة العُقلاء ونزهة الفضلاء» للحافظ محمد بن حبان البُستي ص٢٠٦.

٢ ـ الدر المنثور للإمـام السيوطي ج٢ ص٢٩٦، حلية الأوليـاء لأبي نعيم ج٤ ص٤٢ من رواية وهب بن منبه، وأخـرجه أيضا في الحلية ج٣ ص١٩٨ من رواية جـعفر ابن محمد الصادق.

٣ ـ علكا: اللُّبان الذي يُمضغ ويُدار في الفم.

لذا نقول: الدعوة وظيفة الأنبياء، والداعي المحروم من الرحمة لا يُقبل الناس عليه، وقد قال الله عز وجل لخليله وحبيبه سيدنا محمد ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾[1]، فلو كان الانفضاض والانصراف يمكن أن يقع مع النبي ﷺ لو حصل ما ذكرته الآية الكريمة، من الفظاظة وغلظة القلب - وحاشا لرسول الله ﷺ أن يكون كذلك - فما دونه من سائر الناس أولى بالانفضاض عنه..

والرسول ﷺ ناطق بالصدق، ومؤيد بالحق، وقد وصفه الله عز وجل بقوله ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2] فالرحمة واللين أساس دعوته ورسالته، وإذا تأكد حدوث الإعراض في وجود صفات الشدة والقسوة، فكيف لداعي من الدعاه أن يتحلى بها!..

لهذا بدأت الآية بحرف «لو» التي تفيد الامتناع للامتناع، فممتنع أن ينفض الناس عن رسول الله ﷺ، لامتناع كونه صلى الله عليه وسلم فظا أو غليظ القلب وهو البَرُّ الرحيم، فعلى هذا من أراد أن يكون على هَدْي النبوة فلابد له من صفات الرحمة والبر والحرص، حتى يجتمع عليه التائهون والشاردون، وقد قال الله عز وجل لحبيبه ﷺ: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[3] أي تواضع للمؤمنين وارفق بهم.

فطلاقة الوجه والتبسُّم في وجه المسلمين صدقة، والبشاشة مع الناس تكسر خطط الشيطان في صرفهم عن الإقبال على الإيمان، فالهارب من الإيمان، والشارد من ربه، مريض تريد أن تُعطيه الدواء المر..

---

١ - سورة آل عمران آية: ١٥٩. ٢ - سورة التوبة آية: ١٢٨.

٣ - سورة الحجر آية ٨٨.

فلابـد أن يكون هذا الدواء من يَدٍ شفـيقـة، ونفس زكيـة، وعين باسمة، ولســان عطوف، والبشاشة في وجه المدعـو ليست دليلا على الرضا على ما هو فيه، ولكن حتى تـكون سببا في تقريبهم، بدلا من إعراضهم وانفضاضهم..

والداعي الشفـوق مثل الكحل، الناس لا يجدون مكانا مناسـبا له إلا أعينهم؛ فـإذا كان الداعي على هذه الصفة فـالناس تكتحل به، وإلا فأحب الناس إليـه يتضرر مـنه، الشوكة إذا جـاءت في نعل أي أحد لا يتركها، فكيف إذا كانت في جسده؟

الداعي إذا تحول وصار مثل الشـوكة، فلابد من طرحه، إذا صارت كلمات الداعي شوكة في الأذن، وهيئته شوكة في العين، ودعوته شوكة في القلب، فـلابد من طرحـه، فاللين والرفـق أساس لكل داعي «فـإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه»[1].

والتيسير واليسر هما رضا الله لهذه الأمة: **«إن الله رضي لهذه الأمة اليسر وكره لها العسر»**[2].

وقد وعـد الله تعالى بالإعانة والتـأييد على الرفق: **«إن الله رفيقٌ يحب الرفق ويرضاه ويعين عليه ما لا يعين على العنف»**[3].

والرفق مـحبـوب الله تعالى في الأمـور كلها: «إن الله رفـيقٌ يحب الرفق في الأمر كله»[4].

---

١ ـ صحيح مسلم (كـتاب البر)، الإمام البخاري في الأدب، مـسند الإمام أحمد ج٦ ص٢٠٦، كنز العمال حـديث رقم ٥٣٦١.

٢ ـ كنز العمال حـديث رقم ٥٣٣١.

٣ ـ مـجمع الـزوائد ومنبع الفـوائد (باب ما جـاء في الرفق) ج٨ ص٢١، ٢٢، وقـال الإمام الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

٤ ـ رواه الإمـام البـخاري (كـتـاب الأدب) «باب الرفق في الأمـر كله» ج٨ ص١٤، ورواه الإمام مسلم في (البر والصلة)، ورواه الإمام أحمد في المسند ج١ ص١١٢.

والداعي الرحيم لا يكف عن دعوته، ولا يسأم من الرد والإعراض، لأنه يعلم خطورة وعاقبة المكذبين العاصين، وأن إعراضهم بسبب جهلهم ومعاصيهم، فهو لا ينفك عن إرشادهم، قال النبي الكريم عليه وعلى نبينا الصلاة والتسليم للشاردين المعرضين: **﴿يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾**[١].

فلم يسأم من ردهم وإعراضهم، لعلمه بعاقبة المكذبين، ولم ينفك عن إقناعهم وإرشادهم ونصحهم، وحرص على إبلاغهم رسالة ربه، بكل الأمانة والنصح لهم، وبكل التواضع والشفقة عليهم، فالبشاشة في وجه العصاة، والتبسم والتلطف معهم إن صاحبه نية إصلاحهم ونجاتهم فهو سبيل الأصفياء، وإن رافقه تأليف الشاردين وإقبالهم وعودتهم فهو نعم الدواء..

فلهذا نقول: إنه ما من نبي من الأنبياء عليهم السلام إلا دعى قومه في أنديتهم ومجامعهم، وكان حديثه معهم وحيا نتلوه ونتعبد به، أنزله الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم، حاكيا فيه قصص أنبيائه وأصفيائه، وكيف كان حالهم مع أقوامهم، إقبالا أم إدبارا، أخذا أم ردًّا، حرصا وشفقة أم إهمالا وإعراضا، ليسير المؤمنون على درب المرسلين، ويهتدوا بالمصطفين: **﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾**[٢].

---

١ ـ سورة هود آية: ٦٥، ٦٦، ٦٧.

٢ ـ سورة الأنعام آية: ٨٩، ٩٠.

وقد بعث الله تعالى الأنبياء إلى أمثال هؤلاء العاصين، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾[1] فذهب عليه السلام ممتثلا للأمر من الله تعالى إلى قومه بالنذارة، وكانوا عبدة أصنام، وما فَقَدَ بسبب ذلك أوثق عُرى الإيمان، ولو كان لازم الذهاب إلى العصاة والمذنبين، لدعوتهم والحرص على إيمانهم، هو الحرمان من أوثق عُرى الإيمان، لكان محصلة ذلك رمي الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بالعظائم، وهو أقبح الجرائم...

فما من نبي من الأنبياء - صلوات الله عليهم - إلا وذهب إلى قومه في مجامعهم وأنديتهم، وهم على ما هم فيه من المخالفات والجنايات، أملا في إصلاحهم، وطلبا لنجاتهم وإيمانهم..

وقد قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾[2] ولم يقل تعالى: «إنا صرفنا نوحا عن قومه»، فلا أحد أحب إليه في إقامة الحجة على الناس من الله تعالى، لذا أرسل الرسل وأنزل الكتب، لرد الشاردين، وهداية الحائرين...

إذن: فالرافع للواء العداوة المطلقة، والمقاطعة والبغض، لغير الطائعين والمؤمنين، لم يتبين له بعد المقصد من الرسالات، وغرض النبوات، ولازم حاله إبطال الرسالة، وعبث البعثة، لوجوب المقاطعة والعداوة والبغضاء، للعصاة والمذنبين، وناتج هذا الكلام القبيح، الفساد الصريح، بالتلميح وبالتصريح..

---

١ - سورة نوح من الآية ١: ٤.

٢ - سورة العنكبوت آية: ١٤.

والله تعالى نادى نبيه موسى عليه السلام: ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ﴾[1]، ولم يقل له: «دع القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون»، فأمره تعالى بالإقبال على الظالمين، لا بالإدبار عنهم..

كذلك قوله تعالى حاكيا عن كليمه موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾[2] فقال له: «اذهب إلى فرعون» ولم يقل له «اترك فرعون إنه طغى» مع كونه قاتل المؤمنين، وأعتى الظالمين، وسبق في العلم القديم له الموافاة بالشقاوة والندامة..

كذلك قوله تعالى للكليم موسى وأخيه هارون عليهما السلام: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[3] فأمرهما بالإقبال عليه، لا بالإدبار عنه، ولين الكلام معه لا إغلاظ القول له وتخشينه، شفقة وحرصا عليه..

حيث إن القائم للدعوة يجب عليه التوقف في الإنكار على المعرضين على قدر الحاجة، فلا يخشن لهم القول ويغلظه، مع قبولهم اللين في القول والموعظة الحسنة، فالضرورة تُقدر بقدرها، وقد أشار إلى هذا الأصل القرآن العظيم في قوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[4].

---

١ ـ سورة الشعراء آية: ١٠.

٢ ـ سورة النازعات آية: ١٥، ١٦، ١٧.

٣ ـ سورة طه آية: ٤٣، ٤٤.

٤ ـ سورة طه آية: ٤٤.

فأمــر الله عز وجل كليمه مــوسى عليه السلام وأخــاه هارون بهذا الأدب مع أعــتى الناس وهو فرعــون اللعين، فــمن دونه من العصــاة والمعرضين أولى بهذا اللين . .

قال الإمام الشوكـاني في السيل الجرارج٤ ص٥٥٩ مستدلاً بالآية السـابقة: (يجـب التوقف في الإنكـار على قدر الحـاجـة، وقد حـصل المطلوب هنا بدون التـخشين فالانتقـال إلى التخشين مـع تأثير التليين انتقال لم يأذن الله به، ولا اقـتضته الضــرورة، وقد أشار إلى سلوك هذا المسلك قول الله عز وجل: ﴿ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ فإذا كان الله سبحانه قد أرشـد رسله إلى التأدب بهذا الأدب مع أكفر الكفرة وأعظم العتاة المتمردين عليه، فـسلوكه مع القائمين مقام الإنكار الذين هم غـيـر رسل مع بعض العُـصاة أو الـظلمة مـن المسلمين أولى وأحق وأقدم وألزم)انتهى كلام الإمام الشوكاني.

قلت: فكيف بمن يطعن في أهــل الدعوة لإقـبالــهم على عصــاة المسلمين، وخــفض الجناح لهم وتلـيينهم الـقول مـعــهم، ومن أولى بالإقبال عليه: فرعون اللعين، أم عـصاة الموحدين! وماذا بعد أمر الله تعالى لكليمــه عليه السلام بالإقبال والحــرص على أعتى المجرمين في زمانه، وكفور أيامــه، الذي ادعى الربوبية بقوله: ﴿**مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي**﴾[1] وقوله: ﴿**أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ**﴾[2]، فـمن رأى ذلك منافيــا للولاء للمـؤمنين، والبــراءة من الظالمين، فقـد أسـدل الأسـتـار على الأفكار، وغلَّف العقول بأمرٍ مهول، أن الأنبـياء الأصفياء، لم يتبينوا حـقـيـقـة وحدود الـولاء والبـراء، ومن ثَمَّ والوا الظالمين، العـتـاة الفاسقين، ولم يتبرءوا ممن هو واجب الهجر والعداوة والبغضاء، من

---

١ ـ سورة القصص آية: ٣٨.

٢ ـ سورة النازعات آية: ٢٤.

الطاغين المعرضين، كما أن الأنبياء بذلك لم تتحقق فيهم، أوثق عُرى الإيمان، وهو الحب في الله والبغض في الله!..

بل لازم ذلك انتفاء الحكمة عن الحكيم! وأمر الرحمن جل جلاله لرسله عليهم السلام بما يضاد الإيمان وكماله! وهذا كله باطل لاشك فيه..

ومن ثَمَّ نقول: هذا الاصطلاح الحادث للبراء - وهو المعاداة المطلقة للكافرين، والظالمين والفاسقين - هو مصادم للدعوة، في أصلها وموضوعها، وأسسها التي قامت عليها، بل لازم العمل به تجفيف الدعوة ومنابعها، وتجميد أعمال الهداية، ووأد وسائلها، فالأنبياء صلوات الله وتسليماته عليهم ما أرسلوا إلا إلى هذه الأصناف: كفارا كانوا أو ظالمين أو فاسقين..

وما من نبي من الأنبياء إلا قال لقومه هذه الآية: **﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾**[1] والسؤال المتبادر الآن: الذي يخاف، يُحب أم يكره؟، يوالي أم يعادي؟، يحرص أم يُبغض؟!

نقول: الذي يخاف على شيء يُحبه ولا يكرهه، يواليه ولا يعاديه يحرص عليه ولا يبغض له، وكذلك كان خوف الأنبياء على أقوامهم، محبة ورحمة لهم، وحرصا وشفقةً عليهم، مع كراهية ما يفعلون..

فهذا النبي صالح عليه السلام أحب النصح لقومه وما أحبوا هم الناصحين، وعتوا عن أمر ربهم وعصوا المرسلين، وقد ذكر الله عز وجل كلامه معهم عبرة للمتوسِّمين، وسبيلا للمسترشدين، قال تعالى: **﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾**[2].

---

١ - سورة الأعراف آية: ٥٩.

٢ - سورة الأعراف آية: ٧٨، ٧٩.

وقد يسـأل سائل: هل الأنبـياء صـلوات الله وتسليمـاته عليـهم يخافون على أقوامهم وفيهم عبدة الأوثان والأصنام؟

نقول: نعم يخـافون علـيهم، ويحـبـون جلب النفع لهم، ودفع الضرر عنهم، ويحرصـون على هدايتهم، ودعوتهم وإيمانهم، ولكن يكرهون ما يفعلون، أي يكرهون عبادتهم غير الله تعالى. .

وهذا النبي نوح عليه السلام يقول لقومه وهم عبدة أصنام: **﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾**[١]. فخاف عليهم العذاب وأنذرهم سوء الحساب. .

وقد يسأل آخر: هل الأنبياء صلوات الله وتسليماته عليهم يخافون على أقوامهم وفيهم الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء؟

والجواب: نعم يخافون عليهم، وفيهم الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء، ويكرهون ما يفعلون، يكرهون الفاحشة التي يأتون، يكرهون الفاحشة، لا صاحبها. .

وقد يسأل ثالث: هل الأنبياء عليهم السـلام يخافون على أقوامهم وفيهم اللصوص السارقون؟

نقول: نعم يخـافون عليـهم وفيـهم اللصـوص السارقـون الذين يطففون المكاييل، ويحتالون في الموازين، قال الله عز وجل حاكيا عن خطيب الأنبياء النبي شعيب عليه السلام: **﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾**[٢]. فخـاف عليهم عذاب الله المحـيط بهم، وحذرهم مـعصيـته وانتقـامه منهم. .

---

١ ـ سورة هود آية: ٢٥، ٢٦.

٢ ـ سورة هود آية: ٨٤، ٨٥، ٨٦.

وقـد قال الخليل إبراهيم عليـه السـلام لأبيه صـانع الأصنام التي يعبدها قومه، ويتخذونها أندادًا من دون الله تعالى: **﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾**[1].

فخـاف عليه من العـذاب حبا لجلب النفع له ودفـع الضرر عنه، وأن يكون في الهداية، وأَبَى الأب العاصي الإيمان، واستعلن بالطغيان وقال: **﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾**[2]، فـهدَّده بالرجم، وتوعَّـده بالهـجر، كل ذلك والخليل عليـه السـلام على الحرص عليـه، وطلب النصح له: **﴿قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ﴾**، ولم يجـبـه عليـه السلام (بما هو شـأن البـعض) بقـوله: «ترجـمني وتتهدّدني يا فاسق».. «ترجمني وتتوعدني يا عابد الوثن»... «ترجمني يا طاغوت يا إمام الكفر»..

لم يجـبه بكل ذلك، بـل بالسلامـة التي حـرص عليهـا تكلَّم، ووعده فـوق كل ذلك بالاستـغفـار قال: **﴿سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾**[3]، حتى أُمر بخلاف ذلك، فأجاب الأمر، وانتهى للنهي..

وكـان حاله قـبل أن يوحى إليه بـالكف عن الاستـغفـار له، هو استدعاء الإيمان إليه، والحرص والشفقة عليه، فلما جاء الوحي بالنهي عن هذا سلّم لذلك، وعلم أن السابقة من الله تعالى فيه أنه هالك..

وأهل الدعوة لا وحي لديهم ينبـئهم بحال السـابقة للمـعرضين، كفارًا كانوا أو فاسقين أو ظالمين، فـالأمر على هذا الحال هو استدعاء الإيمان لهم، ليلا ونهارًا، على قـدر الوسع والطاقة فلا يأس مع أحد اقترب منهم أو ابتعد أن يُبَلَّغ رسالة ربه..

---

١ ـ سورة مريم آية: ٤٥.

٢ ـ سورة مريم آية: ٤٦.

٣ ـ سورة مريم آية: ٤٧.

منهج النبوة والدعوة

في الولاء والبراء

هو البراءة من الصفة لا من الذات

ومن المعصية لا من العاصي

فهذا النبي نوح عليه السلام يقول لقومه، وهم عبدة أصنام كفار: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٥) أَن لاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ فخاف عليهم من العذاب الأليم، حبا لرحمتهم، وأملا في نجاتهم: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[2]..

فناداهم قائلا: يا قومي، بالانتساب لهم لا بالتبرى منهم..

والسؤال الآن: ناداهم بقومه وهم عبدة أصنام؟!!

والجواب على ذلك: نعم ناداهم بقومه وهم عبدة أصنام، ودعاهم للبينة والرحمة التي بعث بها، يُرغِّبهم فيها، ويلزمهم بها، مع أنهم لها كارهون، ومنها هاربون، وعنها يحيدون..

فناداهم رحمة وانتسابا بقوله: يا قومي، حُبّاً وخوفا وشفقة عليهم، لا بُغضا وقطعا وعداوة لهم، مع إعلامه إياهم أنه لا يطلب مقابلا للنفع الذي يريده لهم، فلا رغبة له في دنياهم، ولا مطمع له في أموالهم..

يدعوهم، لهم، لا له.. يدعوهم لنفعهم، لا لنفعه.. يطلبهم لآخرتهم، لا لدنياهم.. لزيادتهم، لا لنقصانهم.. يدعوهم لوصلهم، لا لقطعهم.. لنصحهم، لا لبغضهم.. تكلّم معهم أياما طويلة، وسنين عديدة، ألف سنة إلا خمسين عاما، يحمل بين يديه آماله وأمانيه، في أن ينجيهم مما هم فيه، يتكلم معهم في الليل وظلامه، وفي النهار وأسفاره، قد نفض عنه الكلل، وأضاءت كلماته

---

١ ـ سورة هود آية: ٢٥، ٢٦.

٢ ـ سورة هود آية: ٢٨.

بالأمل، حتى كرهوا مقامــه بينهم، وملوا تذكيره لهم، فقالوا له: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (٣٣) وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1] فسموا الوحي وحرصه على هدايتــهم جدلا ومراءً، فصبر عليه الســلام على ذلك، وفي كلامــه معهم دلالــة على أن الجدال في تحقيق دلائل الهــداية والدعوة إلى الله تعالى، كان دأب أكــابر الأنبياء كنوح عليه السلام. .

ثم إنهم تحــدوا المصطفى في وقتــه، وزكى زمانه النبي نوح علــيه السلام، أن يأتيــهم بما أنذرهم وحذرهم منه، وأعاد الصبــور الطهور على أسماع المعرضين، ذكر القوة المهــيمنة العزيزة، التي يستند إليها، ويتعزز بها، وأخبرهم أن إرادته لنصحهم، ليست مستقلة حرة، بحيث تكون فاعلة جاعلة. .

بل إن الله تعــالى وحده يفــعل ما يريد، فــإن أراد النفع لهم من نصحه نفع، وإن أراد غير ذلك فلا مرد لأمره، يضل من يشاء ويهدي من يشــاء، وهو على كل شيء قــدير، يقــول ذلك دفعــا لما يتــوهم عندهم من يأسه، وتثــبيتا منه عــليه السلام لنفســه، بعد ألف سنة إلا خمسين عــاما من إرادة النصح لهم، ليلا ونهارا ســرا وجهارا، إرادة زكّاها وحي السماء، فنصحت ثم نصحت ثم نصحت، وذبلت الأيام وولت السنون، وزهرة الدعوة والنبوة يعبق أريجها، وينساب شذاها، في حنايا الشاردين، نصــحا للمعــرضين، وسبيلا للتــائهين الحائرين،

---

١ ـ سورة هود آية: ٣٢، ٣٣، ٣٤.

حتى اتهموه بالتهمة الأليمة، والجناية العظيمة؛ ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ**﴾[1] فأمره الله عز وجل أن يقول لهم إنه بريء من إجرامهم، ولم يقل له تبارك وتعالى: «**قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء منكم**» فتبرأ من إجرامهم ولم يتبرأ منهم، تبرأ من الإجرام ولم يتبرأ من المجرم، تبرأ من المعصية ولم يتبرأ من العاصي، تبرأ من الكفر ولم يتبرأ من الكافر، تبرأ من الفسق ولم يتبرأ من الفاسق. .

ألف سنة إلا خمسين عاما وهو على ذلك، حتى أوحى الله عز وجل إليه: ﴿**أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾[2] هنالك دعا النبي نوح عليه السلام عليهم، بعد ألف سنة إلا خمسين عاما من الدعوة لهم، عندما تيقن عن طريق الوحي أنهم هالكون، وأنهم يتعاقبون كفرا ولا يؤمنون. .

بدليل دعاء نوح عليه السلام بقوله: ﴿**رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا**﴾[3] فعلّل دعاءه عليهم بالإهلاك بمجموع الأمرين ضلالهم وإضلالهم، وكونهم لا يلدون إلا فجارا كافرين، وبعد إقناط الله تعالى له أنه ليس فيهم من يؤمن، ولا يخرج من أصلابهم من يؤمن، حيث أن النبي نوح عليه السلام لم يدع على قومه إلا بوحي من السماء كما قال تعالى: ﴿**وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾[4]، هذا حتى لا تختل الموازين،

---

١ ـ سورة هود آية: ٣٥.

٢ ـ سورة هود آية: ٣٦.

٣ ـ سورة نوح آية: ٢٦، ٢٧.

٤ ـ سورة هود آية: ٣٦.

فنخلط بين الدين ووسوسة الشياطين، وحتى لا تخرج الأحكام المطلقة العامة، بالنفور والقطيعة لغير الطائعين، زعما من القائل بأن ذلك نصرة للدين!، وتوثيقا لعرى الإيمان، في الحب والبغض في الله تعالى!، ولتبقى جماعة المؤمنين خالية من الشوائب والعلائق المؤذية، وليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة!..

وهذا الكلام الذي مقتضاه البراءة المطلقة، من العاصين وغير المؤمنين ذواتا وأفعالا، أي ذاتا وصفة، فيكرهون الكافر وكفره والظالم وظلمه والفاسق وفسقه، والصادر من البعض ليس على بابه..

حيث إن الواجب عليهم هو استدعاء الإيمان لهم ودفع الضرر عنهم، ليكونوا على منهج النبوة، ومقاصد الرسالة، وكم من بعيد بغيض، وافي الله تعالى بالقرب والحب..

روي عن أبي الدرداء: «أن شابا غلب على مجلسه حتى أحبه أبو الدرداء فكان يقدمه على الأشياخ ويقربه فحسدوه، وإن الشاب وقع في كبيرة من الكبائر، فجاءوا إلى أبي الدرداء فحدثوه وقالوا له: لو أبعدته. فقال: سبحان الله لا نترك صاحبنا لشيء من الأشياء».

وأخرج ابن عساكر عن أبي قلابة: «أن أبا الدرداء ﵁ مر على رجل قد أصاب ذنبا فكانوا يسبونه فقال: أرأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى، قال: فلا تسبوا أخاكم واحمدوا الله الذي عافاكم! قالوا: أفلا تبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله فإذا تركه فهو أخي»[1].

---

١ ـ كنز العمال ج٣ ص٨٣٨ (باب التعبير)، حلية الأولياء ج٢ ص٢٢٥.

قلت: فانظر رحمني الله وإياك إلى قول الصحابي الجليل أبي الدرداء رضي الله عنه عندما قالوا له: «أفلا تبغضه؟ قال: إنما أبغض عمله فإذا تركه فهو أخي» كيف قرر رضي الله عنه **منهج النبوة والدعوة وأهل السنة والجماعة في البراءة من الصفة لا من الذات، ومن المعصية لا من العاصي، ومن بغض العمل لا العامل، وبغض الفعل لا الفاعل..**

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إذا رأيتم أخاكم قارف ذنبا فلا تكونوا أعوانا للشيطان عليه تقولوا: اللهم اخزه! اللهم العنه! ولكن سلوا الله العافية، فإنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كنا لا نقول في أحد شيئا حتى نعلم علام يموت فإن ختم له بخير علمنا أنه قد أصاب خيرا وإن ختم له بشر خفنا عليه»[1]، وعن بعض الصحابة في مثل ذلك وقد قيل له فيه فقال: إنما أبغض عمله وإلا فهو أخي..

أقول: وكذلك قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2] ولم يقل له «فقل إني بريء منكم» فأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بالبراءة من العمل لا من العامل، ومن المعصية لا من العاصي..

---

(١) حلية الأولياء ج٤ ص٢٠٥.

(٢) سورة الشعراء آية: ٢١٦.

قال الإمام الشوكاني في السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار ج٤ ص٥٧٠: (قوله «ويجوز إطعام الفاسق وأكل طعامه».

أقول (أي الإمام الشوكاني): هذا الجواز معلوم لاشك فيه، وقد جاز في الكفار قال الله عز وجل: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾[1]، وقد أكل النبي ﷺ من طعام الكفار كما في الشاة التي أَهدتها له اليهودية بعد أن طبختها، لكن إذا كانت مؤاكلة الفاسق تؤدي إلى فتور المؤمن عن القيام بما يجب عليه إنكاره على الفاسق أو تؤدي إلى تَجرّي الفاسق على فسقه كان هذا وجها للمنع من هذه الحيثية لا من حيثية كونه فاسقا.

قوله: «والنزول عليه» إلخ.

أقول (أي الإمام الشوكاني): الدليل على من زعم أنه لا يجوز النزول على الفاسق، ولا إنزاله، ولا محبته، فإنه رجل من المسلمين له ما لهم، وعليه ما عليهم، وما هو فيه من الفسق يجب إنكاره عليه بما يقتضيه الشرع باليد ثم باللسان، ثم بالقلب، وليس الممنوع إلا أن يحبه لأجل فسقه ومعصيته لا لأجل كونه رجلا من المسلمين، ولا لأجل كونه رحما له، وإذا كان مجرد الأخوة الإسلامية كافيا في جواز المحبة كان جوازها لخصال الخير والرحامة مما لا ينبغي أن يتردد فيه، ولا يحتاج إلى النص عليه، وقد قال الله سبحانه في الكفار: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُم﴾[2] الآية.

قوله: «وتعظيمه والسرور بمسرته» إلخ.

---

(١) سورة المائدة آية: ٥.

(٢) سورة الممتحنة آية: ٨.

أقول (أي الإمام الشوكاني): هذا يكفي في جوازه كون الفاسق رجلا من المسلمين كما قدمنا، ومعلوم وجود الأخوة الإسلامية بين المطيع والعاصي من المسلمين، وقد صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1] وقال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»[2]، والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وكذلك العمومات القرآنية.

وبهذا تعرف أنه لا وجه لتقييد الجواز بقوله: «لمصلحة دينية» وإنما الممنوع أن يعظمه لمعصيته وفسقه، أو يُسر بما يَسُره من خصال الشر التي هي من معاصي الله سبحانه.

قوله: «وتحرم الموالاة».

أقول (أي الإمام الشوكاني): هذه الموالاة للفاسق هي واجبة من حيث كونه رجلا من المسلمين، ومن حيث كونه أخًا للمؤمنين، كما يدل على هذا الحديث المتقدم: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وهو في الصحيح[3]، ومعناه ثابت في الكتاب والسنة ثبوتًا لا يخفى، ولا يتحقق عدم جواز الموالاة إلا في موالاته لأجل ما هو عليه من الفسق والفجور.

---

(١) الحديث أخرجه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أنس. ورمز له السيوطي بالصحة. الجامع الصغير بشرح فيض القدير ٦/ ٤٤٢.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٥/ ٩٧.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ٢٢٠.

وأما قـول المصنف: «فيكون كفـرا أو فسقًا» فـتسرّع إلى التكفـير والتفسـيق على غير بصيـرة، وهكذا لا تحرم مُحالفـة الفاسق على حق، ومناصرته حيث تحق المناصرة، وذلك بأن يكون محـقًا فيما حُولف به، أو نُوصر عليه، وإنما المـمنوع محالفته في باطل، ومنـاصرته على ما هو عليه من الفسق.

وبهذا نعرف أنه لابد من التفصيل في جميع ما ذكره المصنف ها هنا.

فإن قلت: إذا الـتبس علينا مـا هو المقصود مـن هذه المداخلة للْفَسَـقة، والمحبـة والموالاة والمحالفـة، والمناصرة؟ قلت: يجب علينـا حَمل ذلك على المحمل الحسن، والمقصد الصالح، فإن هذا مع كونه الواجب علينا بأدلة الكـتـاب والسنة هو أيضًـا من أسـبـاب الـفـوز بخـيـر الـدنيـا والآخرة)انتهى كلام العلامة الإمام الشوكاني.

قلت: وبعد هذه النقول القيمـة عن الإمام الشوكاني في الأحكام المتـعلقة بمعـاملة العصـاة والفـساق من المسلمين، والتي أكـدت على الحرص عليهم، وموالاتهم في الحق، ومناصرتهم حيث تحق المناصرة ومحـبة جلب النفع لهم، ودفـع الضرر عنهم، لكون أخـوة الإسلام تشملهم، وعقد الإيمان يضمـهم، وأن عدم جواز موالاتهم لا يتحقق إلا في موالاتهم لأجل ما هم عليه من الفسق والفجور..

نقـرر ذلك ونؤكـده بما أورده العلامـة القـاسـمي في تفسيـره ج٤ ص٨٢٤: في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال: (فإن قيل: قد جوز كثير من العلماء نكاح الكافرة، وفي ذلك من الخلطة والمباطنة بالمرأة ما ليس بخاف، فجواب ذلك: أن المراد موالاتهم في أمر الدين، وفيما فيه تعظيم لهم)انتهى.

وقال رحمه الله تعالى أيضًا في ص٨٢٤: (فحصل من هذا أن الموالي للكافر والفاسق عاص، ولكن أين تبلغ معصيته؟ يحتاج إلى تفصيل: إن كانت الموالاة بمعنى المودة، وهي أن يوده لمعصيته كان ذلك كالرضا بالمعصية وإن كانت الموالاة كفرا. كفر. وإن كانت فسقا، فسق. وإن كانت لا توجب كفرا ولا فسقا، لم يكفر ولم يفسق)انتهى.

وقال العلامة القاسمي في تفسير سورة المجادلة ج١٦ ص ٥٧٣١: (قال السيد بن المرتضي اليماني في «إيثار الحق»: عن الإمام المهدي محمد بن المطهر عليه السلام أن الموالاة المحرمة بالإجماع هي أن تحب الكافر لكفره والعاصي لمعصيته لا لسبب آخر من جلب نفع أو دفع ضر أو خصلة خير فيه)انتهى.

فيا حُسن قول من دعا إلى الله تعالى، الفارين منه، والبعيدين عنه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1] ويا بصيرة سبيل من بلغ عن النبي ﷺ مراده ورحمته وحرصه على أن يؤمن كل أحد ويُسمعه رسالة ربه ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[2].

---

(١) سورة فصلت آية: ٣٣.

(٢) سورة يوسف آية: ١٠٨.

الدعوة أساسها الحب
الذي هو جلب النفع
ودفع الضرر

الدعـوة في منهج النبـوة أساسـها الحب، الذي هـو جلب النـفع ودفع الضرر، وترك الدعوة موضوعه البغض، الذي هو جلب الضرر ودفع النفع، وليس مـعناها أنهـم يحبـون الكافـر لكفـره ولا الظالم لظلمه ولا الفاسق مع فسقـه، وإنما معناها أنهم يحبون جلب النفع له ودفع الضرر عنه، يحبون الحرص عليه، والشـفقة على حاله، وانتقاله إلى الإيمان، يحبون خـروجه من ضيق الدنيا إلى سـعة الآخرة، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام..

يحبون خروجه من عبادة العباد، إلى عبادة الله وحده، يحبون له كل ذلك، ويكرهون مـا يفـعل: يكرهون كفـره، ويكرهون ظلمـه، ويكرهون فسقه، يكـرهون الكفر والظلم والفسق، ولكن لا يكرهون الكافر والظالم والفاسق..

ففرق بيننا الآن وبين النبي صلى الله عليه وسلم وجميع المرسلين، النبي صلى الله عليـه وسلم والمرسلون جـميعـا كانوا يكرهون الـكفر والفسوق والعصـيان، ولكن لا يكرهون الكافر في ذاته، ولا الظالم في ذاته، ولا الفاسق في ذاته، فـيكرهون الفعل ولا يكرهون الذات، ونحن نكره الكافر والظالـم والفاسق، فنكره ذواتهم وأشخـاصهم، نكره ذات الكافـر، وذات الظالم، وذات الفاسق، لـذلك لا نستطيع دعـوتهم ولا هدايتهم، وأنبياء الله تعالى كانوا يدعون هذه الأصناف، كل وقت، ليلا ونهارا، السنوات والسنين الطوال، لأنهم كـانوا على هذا الأصل، وهو أن موضوع دعوتهم الحب، حب الحرص على الناس، والشفقة عليهم، ونفعهم، ودفع الأضرار الدنيوية والأخـروية عنهم، وبهذا أرشد القرآن،

وأفـصح البـيـان، قـال تعـالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[1]، ومـا قال «وكـره إليكم الكافـر والفاسق والعـاصي»، فعواطـف وهمم الأنبياء، ومشـاعرهم في الهداية والنصح، والشـفقة على الناس، وطلب الـنفع لهم، ودفع الضـرر عنهم، **غير عواطف إقامـة الحجـة على الناس، وإلزامهم التـهمـة، وبيان المخالفـات منهم، وثبوتها عليهم..**

وإن ترك الدعوة موضوعه البغض والهجر للعصاة والمذنبين، الذي هو جلب الضـرر ودفع النفع، وهو حـكم من أحكام الدين بيّنَ الأئمـة حدوده وشروطه، وضوابطه وقيوده، وأقسامه وأنواعه، حتى لا تزل قدم بعد ثبوتها، أو تتقدم قدم على هدي رسولها. .

أورد الإمام البـخاري رحـمه الله في صحـيحـه، ترجمة حـافلة في كتاب الأدب قال: (باب ما يجوز من الهجران لمن عصى)

وقـال كـعب حينَ تخلَّفَ عـن النبي ﷺ «ونهى الـنبيُّ ﷺ المسلمين عن كلامنا» وذكر خمسينَ ليلة.

ثم ذكـر حـديث عـائشـة رضي الله عنها قـالت قـال رسـولُ الله ﷺ: إني لأعرفُ غَضبك ورضاك. قـالت: قلتُ وكيفَ تعرف ذاك يا رسولَ الله؟ قال: إنك إذا كنتَ راضيَة قلت بَلى وربِّ محمد، وإذا كـنت ساخطة قلت لا وربِ إبراهيمَ. قالت قلتُ: أجل، لا أهجرُ إلا اسمكَ».

قال الحافظ ابن حجر في الفتح ج١٠ ص٥١٣:

قوله (باب مـا يجوز من الهجـران لمن عصى) «أراد بهذه الترجـمة بيان الهـجران الجائز، لأن عمـوم النهي مخصوص بمن لم يكن لـهجره سبب مـشروع، فتبين هنا السـبب المسوغ للهجـر وهو لمن صدرت منه معصية، فيسوغ لمن اطلع عليها منه هجره عليها ليكف عنها»انتهى.

---

(١) سورة الحجرات آية: ٧.

وقال الحافظ رحمه الله تعالى في شرحه على هذا الحديث ص٥١٣:

(قال المهلب: غرض البخاري في هذا الباب أن يبين صفة الهجران الجائز، وأنه يتنوع بقدر الجرم، فمن كان من أهل العصيان يستحق الهجران بترك المكالمة كما في قصة كعب وصاحبيه، وما كان من المغاضبة بين الأهل والإخوان فيجوز الهجر فيه بترك التسمية مثلاً أو بترك بسط الوجه مع عدم هجر السلام والكلام. وقال الكرماني: لعله أراد قياس هجران من يخالف الأمر الشرعي على هجران اسم من يخالف الأمر الطبيعي. وقال الطبري: قصة كعب بن مالك أصل في هجران أهل المعاصي، وقد استشكل كون هجران الفاسق أو المبتدع مشروعًا ولا يشرع هجران الكافر وهو أشد جرمًا منهما لكونهما من أهل التوحيد في الجملة، وأجاب ابن بطال بأن لله أحكامًا فيها مصالح للعباد وهو أعلم بشأنها وعليهم التسليم لأمره فيها، فجنح إلى أنه تعبد لا يعقل معناه. وأجاب غيره بأن الهجران على مرتبتين: الهجران بالقلب، والهجران باللسان. فهجران الكافر بالقلب وبترك التودد والتعاون والتناصر، لاسيما إذا كان حربيًا، وإنما لم يشرع هجرانه بالكلام لعدم ارتداعه بذلك عن كفره، بخلاف العاصي المسلم فإنه ينزجر بذلك غالبًا، ويشترك كل من الكافر والعاصي في مشروعية مكالمته بالدعاء إلى الطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما المشروع ترك المكالمة بالموادة ونحوها)انتهى كلام الحافظ ابن حجر.

قلت: في قصة كعب بن مالك ﷺ أحد أقسام الهجر المشروع وهو الذي يكون على سبيل التعزير والزجر، ويكون ممن له حق الزجر، بسلطة مادية كالسلطان والحاكم على رعيته، والأب على أولاده وأهله، أو سلطة معنوية كالعالم الذي له زجر المخالفين، والمطاع الذي من مسئوليته تأديب المفسدين..

وفي القصة أيضًا القسم الثاني من الهجر وهو الهجر المنهي عنه «غير المشروع»، الذي لا مصلحة فيه، كترك كلام من لا يرتدع بالهجر، بل يزيد في شره وبُعده..

أما القسم الثالث من الهجر، فهو الذي يكون على سبيل الوقاية والحصانة، إذا كان في مخالطة المهجور ضرر على الهاجر، ودليله ما ورد في الصحيح من قول النبي ﷺ: «إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه» رواه الإمام البخاري.

وقد نقل الإمام ابن عبدالبر الإجماع على مشروعيته وجوازه، أورد هذا الإجماع عنه الحافظ ابن حجر في الفتح ج١٠ ص٥١١ فقال: قال ابن عبدالبر: (أجمعوا على أنه لا يجوز الهجران فوق ثلاث إلا لمن خاف من مكالمته ما يفسد عليه دينه أو يدخل منه على نفسه أو دنياه مضرة، فإن كان كذلك جاز، ورب هجر جميل خير من مخالطة مؤذية)انتهى كلام الإمام ابن عبدالبر.

ومن العلماء من قسم الهجر الشرعي إلى نوعين، ففي الأحاديث المختارة من فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدي للعلامة الإمام عبدالله الشرقاوي في قوله ﷺ «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» قال رحمه الله: ((والمهاجر) هو بمعنى الهاجر وإن المفاعل يقتضي وقوع فعل بين اثنين لكنه هنا للواحد كالمسافر، ويحتمل أن يكون على بابه لأن من لازم كونه هاجرا وطنه مثلا أنه مهجور من وطنه أي والمهاجر حقيقة (من هجر) أي ترك (ما نهى الله عنه) فالهجرة ضربان: ظاهرة وباطنة فالباطنة ـ وهي الهجرة الحقيقية ـ ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان. والظاهرة الفرار بالدين من الفتن. وكأن المهاجرين خوطبوا لئلا يتكلوا على مجرد التحول من دارهم فأشار ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى أن ذلك ليس بشيء حتى يمتثلوا أمر الشرع ونواهيه.

ويحتمل أنه قال ذلك بعد انقطاع الهجرة لما فتحت مكة تطييبا لقلوب من لم يدرك ذلك فأفادهم أن حقيقة الهجرة تحصل لمن هجر ما نهى الله عنه، فاشتملت هاتان الجملتان على جوامع من معاني الحكم والأحكام)انتهى.

وقال الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج٢٨ ص٢٠٣

«الهجر الشرعي نوعان:

(أحدهما) بمعنى الترك للمنكرات.

و(الثاني) بمعنى العقوبة عليها.

فالأول: هو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[2].

فهذا يراد به أنه لا يشهد المنكرات لغير حاجة، مثل قوم يشربون الخمر، يجلس عندهم. وقوم دعوا إلى وليمة فيها خمر وزمر لا يجيب دعوتهم، وأمثال ذلك. بخلاف من حضر عندهم للإنكار عليهم، أو حضر بغير اختياره. ولهذا يُقال: حاضر المنكر كفاعله. وفي الحديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يشرب عليها الخمر»[3]. وهذا الهجر من جنس هجر الإنسان نفسه عن فعل المنكرات.

---

(١) سورة الأنعام آية: ٦٨. (٢) سورة النساء آية: ١٤٠.

(٣) رواه الإمام الترمذي ٢٨٠١، وفي كنز العمال ح ٢٧٤٢٦ «باب دخول الحمام» ج٩ ص٥٦٢، وفي مجمع الزوائد ج١ ص٢٧٨، وفي المصنف لعبدالرزاق ج٣ ص١٧٢، والطبري ج١١ ص١٩١.

كما قال ﷺ: «**المهاجر من هجر ما نهى الله عنه**»[1].

ومن هذا الباب الهجرة من دار الكفر والفسوق إلى دار الإسلام والإيمان، فإنه هجر للمقام بين الكافرين والمنافقين الذين لا يمكنونه من فعل ما أمر الله به، ومن هذا قوله تعالى: ﴿**وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ**﴾[2].

النوع الثاني: الهجر على وجه التأديب، وهو هجر من يظهر المنكرات، يهجر حتى يتوب منها، كما هجر النبي ﷺ والمسلمون: الثلاثةَ الذين خُلِّفوا، حتى أنزل الله توبتهم، حين ظهر منهم ترك الجهاد المتعين عليهم بغير عذر، ولم يهجر من أظهر الخير، وإن كان منافقا. فهنا الهجر هو بمنزلة التعزير» انتهى.

قلت: فانظر إلى قوله ـ رحمه الله تعالى ـ أن الهجر الشرعي نوعان أحدهما بمعنى الترك للمنكرات، والمراد به أن لا يشهد المنكرات بغير حاجة، أما من حضر أماكن المنكرات لتفقد أمة الإسلام فيها، والعمل على سترهم ونجاتهم منها، وسماعهم كلام الإيمان، ودعوتهم إلى الله ورسوله ﷺ، وإلى منهج وصحبة أهل الإيمان، فيحيون بعد مماتهم بدعوتهم، ويتنورون ضياءً بعد ظلمتهم، كما يفعله أهل التبليغ والدعوة في غشيان مجالس أهل المنكر، ليظهروا الحق فيها،

---

(١) رواه الإمام البخاري ج١ ص٩ «كتاب الإيمان» «باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»، ورواه البخاري أيضًا ج٨ ص١٢٧ كتاب الدعوات «باب الانتهاء عن المعاصي»، وأخرجه الإمام أبو داود ج٢ «كتاب الجهاد» «باب في الهجرة إذا انقطعت»، ورواه الإمام أحمد في المسند ج٢ ص١٦٣، ١٩٣، ورواه الإمام النسائي ج٨ ص١٠٥ «باب صفة المسلم»، ورواه الإمام البيهقي ج١٠ ص١٨٥ «كتاب الشهادات» «جماع أبواب من تجوز شهادته ومن لا تجوز من الأحرار البالغين العاقلين المسلمين».

(٢) سورة المدثر: آية ٥.

ويعظموا الله تعالى عندهم ويستروا أهلها فهذا محمود من الله تعالى، مُرغب فيه من رسوله ﷺ..

فإذا تمكن إنسان من فعل ما أمر الله تعالى به، وتمكن من دعوة غيره إلى فعل ما أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ، فهذا لا يطالب بالهجر والترك، وإنما يطالب بالتمسك بذلك والقرب، لما في وجوده من مصالح لعصاة المسلمين، ولأماكن معصية رب العالمين..

أما من لم يتمكن من أن يأمر نفسه وينهاها، فضلا عن أمر غيره ونهيه، فهذا محله إصلاح خلله قبل أن يختلّ مع الآخرين، ويزيغ مع الزائغين، الذين يتسلطون بالذم على العصاة والشاردين..

وقد روي عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال لأصحابه: «كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائما فكشفت الريح عنه ثوبه؟ قالوا: نستره ونغطيه. فقال: بل تكشفون عورته. قالوا: سبحان الله ومن يفعل هذا؟!! فقال: أحدكم يسمع في أخيه بالكلمة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها».

قال العلماء رحمهم الله: وهذا مخرجه من الحسد الكائن في النفس، والغل المستكن في القلب، أن يزيد الرجل على الشيء مما يسمع أو يتبعه بمثله فيظهر هذا غله، وهذا الذي استعاذ منه المؤمنون في قولهم: ﴿**وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا**﴾[1] الآية.

قلت: وهذا يحدث لكثير من المتصدرين لإصلاح الآخرين بزعمهم أثناء كلامهم على المنكرات وأهلها فيزداد بكلامهم المنكر ويفتضح به أهله، وكان الواجب عليهم ستر ثوب الحياء على المسلم إذا ما انكشف وإقالة عثرته إذا سقط..

(١) سورة الحشر آية: ١٠.

قال بعض علماء السلف في ستر زلات الإخوان: (**ودّ الشيطان أن يلقى على أخيكم مثل هذا حتى تهجروه وتقطعوه فماذا اتقيتم من محبة عدوكم**) وذلك لإن الوقوع في المعاصي وفعلها من محاب الشيطان، والقطيعة والتفريق بين الإخوان من محابه أيضًا، فإذا تمكن من أن يوقع مسلمًا في أحد الأمرين وهو مقارفة المعاصي، فلا تحقق له غرضه وما يحبه ويشتهيه في الأمر الثاني، وهو التفريق والعداوة والبغض بينك وبينه..

وإلى هذا أشار سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم بقوله: «**لا تكونوا عونا للشيطان على أخيكم**» جوابا على من قال لشارب الخمر الذي كان يُجلد «أخزاك الله»، لأن خزيه بالمعصية التي اقترفها من محاب الشيطان، كذلك ذمه وقطيعته ونبذه من خزيه، ومن محاب الشيطان أيضا، فإن قلت فإن مخالطة الفساق محذورة، قلنا: نعم ولكن الهجر وعدم المخالطة لهم مشروطة أيضًا بشروط، محصلها **كما ذكر العلامة ابن حجر الهيتمي في الزواجر عن ارتكاب الكبائر ص٤١٢ (ويستثنى من تحريم الهجر كما أشرت إليه في الترجمة مسائل ذكرها الأئمة وحاصلها أنه متى عاد إلى صلاح دين الهاجر والمهجور جاز وإلا فلا)**انتهى كلام العلامة ابن حجر.

على أن مقاطعة الإخوان والأحباب أيضًا محذورة، فكان الوفاء بحق الإخوة، والحرص على المذنبين والعصاة أولى من قطيعتهم..

وصلا لرحم الإسلام التي أمر الله تعالى ورسوله ﷺ أن توصل، فأخوة الإسلام كما قال العلماء عقد ينزل منزلة القرابة، فإذا انعقدت الأخوة تأكدت أحكامها ووجب الوفاء بموجب عقدها..

ومن الوفاء بعقد الأخوة أن لا يهمل يوم فقره وأعوازه وحاجته، وفقر الدين والإيمان أعظم من فقر الأموال، فإن اجتاحته جائحة، وأصابته آفة، افتقر بسببها في دينه وإيمانه، فوجب أن يُلاحظ ويعان ويراعى، ولا يقطع ويهمل، بل يُنصح ويحرص عليه، ويرفق به، حتى يتمكن من الخلاص من هذه البلية التي نزلت به في دينه، فأخوة الإسلام زخر للشدائد والبليات، ونجاة وملاذ عند الفتن والعثرات، وفتنة الدين بالانغماس في المعاصي من أشدها..

قال أبو الدرداء رضي الله عنه «إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى»..

وقال إبراهيم النخعي «لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غدا» وقال أيضًا: «لا تحدثوا الناس بزلة العالِم فإن العالِم يزل الزلة ثم يتركها»..

وذكر عن أخوين من السلف «انقلب أحدهما عن الاستقامة فقيل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره؟! فقال: أحوج ما كان إليَّ في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن آخذ بيده وأتلطف له في المعاتبة وأدعو له بالعود إلى ما كان عليه».

قلت: ولا يخفى عليك أن الهجرة من دار الكفر والفسوق، المشار إليها في النوع الأول، مقيدة بحالة ما إذا لم يتمكن في هذه الدار، من فعل ما أمر الله تعالى به، وعجزه عن الامتثال لما افترضه عليه، لكون المقام في هذه الدار لا يسمح له بذلك، من شدة أهلها، وتضييقهم على غيرهم فيها..

أما إذا تمكن في هذه الدار من القيام بفعل ما أمر الله تعالى به، ودعوة غيره إلى امتثال ما أمر الله تعالى به ورسوله صلى الله عليه وسلم، فهذا لا تجب عليه الهجرة، لحصول المصلحة في وجوده، ولكون هجرته وفق

هذه الحالة على غير بابها، وإلى هذا أشار الإمام ابن تيمية رحمه الله بقولـه في كلامه السـابق «فإنه هجـر للمقـام بين الكافرين والمنـافقين الذين لا يمكنونه من فعل ما أمر الله به».

وهذه إجابة العلامة الإمـام ابن حجر الهيتمي في الفتـاوى الحديثية ص٢٨٦ تحت (مطلب في حكم الإقامة في دار الحرب).

(وسئل نفع الله بـه: عن قوله ﷺ: **«أنا بريء من مسـلم يقيم بين أظهر المشركين. قالوا: لم؟ قال: لا تتراءى ناراهما».**

فأجاب بقوله: هذا تعليل للبراءة فحذف لام التعليل ووجه المناسبة بين العلة والمعلول أن في الإقـامـة بينهم تكثـيـر سـوادهم، وأنهم لو قصـدهم جيش غزاة ربما منـعهم منهم رؤية نيران المسلمـين مع نيرانهم فإن العرب كانوا عند تقـابل الجيوش يعرفون كثرتهـا برؤية النيران كما وقع ذلك في إرسالهم لرؤية جـيشه ﷺ بمرّ الظهران عند قـصد مكة لفتـحها، فلما كـان في إقامة المسلمين بين أظهر المشـركين هذا المحذور العظيم وهو منع المسـلمين من غزوهم أو عـدم إدخـال مرعب عليـهم بريءٌ منه ﷺ لكونه سـببـا لعدم جهـادهم فالنار على حـقيـقتـها في الأمرين وهو الوجه الظاهر المناسب المنضبط كما علمت.

فإن قلتَ: قد ينافـيه قول الفقهاء تجـوز الإقامة بينهم لمن أمن على نفسه.

قلت: لا ينافيـه لأنهم شرطوا أمنه على إظهـار دينه وإذا أمن ذلك كان في إقامته بينهم مصلحـة للمسلمين راجحة على خروجه من بينهم فجوّزوا له ذلك لئـلا يصير محله لهجـرته منه دار حرب بل تجب عليه الإقامة حينئذ.

فإن قلتَ: التـعليل في الحديث بالخـشية منهم على ديـنه أظهر فلم عدل لذلك.

قلت: لأن فيما ذكر في الحديث مضرة المقيم فقط على أن حرمة الإقامة لخشية الفتنة معلوم عند كل أحد فلا يحتاج للتنبيه عليه بخلاف حرمتها لترائي النارين فإن هذا لا يعرفه كل أحد، فمن ثَمَّ نبه ﷺ جريا على عادته الكريمة من تنبيهه أمته على الأشياء الخفية التي لا يهتدي إليها إلا بنوع توقيف، والله سبحانه وتعالى أعلم) انتهى كلام العلامة ابن حجر الهيتمي.

قلت: فانظر إلى قول العلامة ابن حجر السابق «لا ينافيه لأنهم شرطوا أمنه على إظهار دينه وإذا أمن ذلك كان في إقامته بينهم مصلحة للمسلمين راجحة على خروجه من بينهم فجوّزوا له ذلك لئلا يصير محله لهجرته منه، دار حرب بل تجب عليه الإقامة حينئذ».

كيف نص رحمه الله تعالى على أنه إذا أمن على نفسه إظهار دينه، كان في إقامته مصلحة راجحة للمسلمين، تربو على خروجه من هذه الدار، وأنهم قد جوّزوا بقاءه فيها، لئلا تصير هذه الدار بعد خروجه منها دار حرب، بل أوجبوا عليه الإقامة حينئذ حتى لا تطبق عليها أحكامها.

أقول: ولا يخفى عليك ما في النوع الثاني من الهجر وهو الهجر على **وجه التأديب لمن يظهر المنكرات**، من أحكام وأصول لازمة له، تقيد إطلاقه وتخصص عمومه وتبين شروطه..

فقد هجر النبي ﷺ الثلاثة الذين خُلِّفوا بوحي من الله تعالى، وأمر من السماء، وكان هنالك كثير غيرهم تخلّف، فلم يهجرهم ﷺ رغم أن المسوغ في الحالين واحد، وهو ترك الجهاد المتعين بغير عذر، ورغم معرفته بنفاق الآخرين وكذبهم، وأنهم جمعوا بجانب ترك الجهاد المتعين عليهم الكذب على النبي ﷺ..

كذلك فقد كانت لرسول الله ﷺ الولاية العامة، المخولة له فعل ذلك والأمر به، بخلاف من ليس له هذه الولاية أو تلك الرتبة، مثل العالم والمطاع الذي له سلطة معنوية على غيره، وكالأب الذي له سلطة مادية على أولاده وأهل بيته..

كما أنه في بعض الحالات، يكون التأليف أولى من الهجر، لبعض الناس ممن يظهرون المنكرات، مثلما نص على ذلك أئمة الإسلام، حين يكون في الهجر مفاسد غالبة عامة، فيعدل عنه إلى التأليف والقرب والنصح..

وهذا محله الاجتهاد، وأهلية النظر والبحث والاستدلال، فلا يُترك الحكم فيه إلى من لم يبلغ هذه الرتبة، أو تلك الدرجة، من عوام المسلمين، أو غير المجتهدين..

وهنالك تفصيلات عديدة بسطها ليس في هذا الموضع وبالله التوفيق..

وقد كان منهج النبوة حريصا على الإقبال على العصاة، والأخذ بيد الجناة، تحقيقا للمصلحة العامة في ذلك، حين يكون الهجر والقطيعة على غير بابه، عندما لا تتحق المصلحة التي شرع الهجر من أجلها..

حينئذ فتألف العصاة والمذنبين، والإقبال على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، يكون أولى وأجدى، وقد ذكر الأئمة أن الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم..

قال الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج٢٨ ص٢٠٦: «وهذا الهجر يختلف باختلاف الهاجرين في قوتهم وضعفهم وقلتهم وكثرتهم. فإن المقصود به زجر المهجور وتأديبه ورجوع العامة عن مثل حاله. فإن كانت المصلحة في ذلك راجحة بحيث يُفضي هجره إلى

ضعف الشر وخفيته كان مشروعًا. وإن كان لا المهجور ولا غيره يرتدع بذلك، بل يزيد الشر، والهاجر ضعيف، بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته. لم يشرع الهجر، بل يكون التأليف لبعض الناس أنفع من الهجر.

والهجر لبعض الناس أنفع من التأليف؟ ولهذا كان النبي ﷺ يتألف قومًا ويهجر آخرين. كما أن الثلاثة الذين خلفوا كانوا خيراً من أكثر المؤلفة قلوبهم، لما كان أولئك كانوا سادة مطاعون في عشائرهم، فكانت المصلحة الدينية في تأليف قلوبهم، وهؤلاء كانوا مؤمنين، والمؤمنون سواهم كثير، فكان في هجرهم عزّ الدين، وتطهرهم من ذنوبهم، وهذا كما أن المشروع في العدو القِتال تارة، والمهادنة تارة، وأخذ الجزية تارة، كل ذلك بحسب الأحوال والمصالح.

وجواب الأئمة كأحمد وغيره في هذا الباب مبني على هذا الأصل، ولهذا كان يفرق بين الأماكن التي كثرت فيها البدع، كما كثر القَدَر في البصرة، والتنجيم بخراسان، والتشيع بالكوفة، وبين ما ليس كذلك، ويفرق بين الأئمة المطاعين وغيرهم، وإذا عرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطرق إليه. وإذا عرف هذا، فالهجرة الشرعية، هي من الأعمال التي أمر الله بها ورسوله. فالطاعة لابد أن تكون خالصة لله، وأن تكون موافقة لأمره، فتكون خالصة لله صوابا. فمن هجر لهوى نفسه، أو هجر هجراً غير مأمور به: كان خارجًا عن هذا. وما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه، ظانة أنها تفعله طاعة لله» انتهى.

قلت: فانظر كيف نص - رحمه الله تعالى - على أن المقصود بالهجر هو زجر المهجور وتأديبه، ورجوع العامة عن مثل حاله، فإن لم ينزجر المهجور بالهجر عما كان يتعاطاه من المعاصي والشر، وكانت نتيجة البعد عنه والإعراض تماديه في شروره وآثامه، وتأثر العامة بحاله، لم تكن ثم مصلحة شرعية في هجره، بل لا يرجح هذا

الهجر لأن المفسدة فيه غالبة على المصلحة، والمصلحة فيه مرجوحة، لكونه ليس على بابه ومقاصده..

حيث لم يُفض هذا الهجر إلى ضعف الشر وخفيته بل إلى زيادته وشدته، فلا يكون راجحا حينئذ بل يكون التأليف لقلوبهم والقرب منهم أنفع وأرجح لمن كان على هذه الأحوال..

وهذا هو الذي أورده شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر في الفتح ج١٠ ص٥١٣ من عدم مشروعية هجران الكافر بالكلام، لعدم ارتداعه بذلك عن كفره، ولعدم تحقق مقصد الهجر، ومشروعية مكالمة العصاة والكفار بدعوتهم إلى الطاعة، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فقال رحمه الله تعالى: (**وقال الطبري**: قصة كعب بن مالك أصل في هجران أهل المعاصي، وقد استشكل كون هجران الفاسق أو المبتدع مشروعًا ولا يشرع هجران الكافر وهو أشد جرمًا منهما لكونهما من أهل التوحيد في الجملة، وأجاب ابن بطال بأن لله أحكامًا فيها مصالح للعباد وهو أعلم بشأنها وعليهم التسليم لأمره فيها، فجنح إلى أنه تعبد لا يعقل معناه. **وأجاب غيره بأن الهجران على مرتبتين: الهجران بالقلب، والهجران باللسان. فهجران الكافر بالقلب وبترك التودد والتعاون والتناصر، لاسيما إذا كان حربيًا، وإنما لم يشرع هجرانه بالكلام لعدم ارتداعه بذلك عن كفره، بخلاف العاصي المسلم فإنه ينزجر بذلك غالبًا، ويشترك كل من الكافر والعاصي في مشروعية مكالمته بالدعاء إلى الطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما المشروع ترك المكالمة بالموادة ونحوها)انتهى كلام الحافظ ابن حجر.**

قلت: **فإذا كان كلام العصاة وغير المسلمين مشروعًا، بقصد الدعاء إلى الطاعة، ومعرفة الإسلام، وحصول الهداية والإيقان، والأمر بأعرف المعروف وهو الإيمان، والنهي عن أنكر المنكر وهو الشرك**

والكفر، بإنقاذ الناس من براثنه، والنجاة منه، كانت هذه المقاصد مع حسنها، من أجَلِّ مقاصد الشريعة، وبها أُرسل الأنبياء، وعليها حرص الدعاة والعلماء..

قال الإمام ابن كثير في تفسيره ج٤ ص٧٠ «وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا موسى بن مروان الرقي ثنا عمر يعني ابن أيوب أنا جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم قال: كان رجل من أهل الشام ذو بأس وكان يفد إلى عمر بن الخطاب ﷺ ففقده عمر فقال: ما فعل فلان ابن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين! تتابع في هذا الشراب، قال: فدعا عمر كاتبه فقال: اكتب من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير. ثم قال لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه. فلما بلغ الرجل كتاب عمر ﷺ جعل يقرؤه ويردده ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي. ورواه الحافظ أبو نعيم من حديث جعفر بن برقان وزاد: فلم يزل يرددها على نفسه ثم بكى ثم نزع فأحسن النزع، فلما بلغ عمر خبره قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخا لكم زل زلة فسددوه ووثقوه وادعوا الله له أن يتوب ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه»انتهى.

وروي عن عمر «وقد سأل عن أخ كان آخاه فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال: ذاك أخو الشيطان. قال: مه. قال: إنه قارف الكبائر حتى وقع في الخمر فقال (أي عمر): إذا أردت الخروج فآذني فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ الآية ثم عاتبه تحت ذلك

وعـزله فلما قـرأ الكتاب قـال: صدق الله ونصح له عـمر قـال: فتـاب ورجع».

وهذا ما يفعله أهل التبليـغ والدعوة في قربهم ممن لو هجروه، لزاد الشـر ولم يرتدع هو أو العامـة، فكان تألفـهم لأمثـال هؤلاء الذين في هجرهم مفاسد محقـقة راجحة على المصلحة في ذلك، أنفع الأعمال، وأرجح الأقوال، وأغلب المصالح..

حيث بالإقـبال عليـهم وتأليفـهم يتغيـرون ويتحـولون إلى جانب الطاعات، والتـوبة والقربات، ويظهـر الخير فـيهم، وينعدم الشـر منهم، وهذه نفسها هي أولى مقاصد الهجر وبالله التوفيق..

أما من دعـى إلى هجرة أمـثال هؤلاء، مع وجـود هذه الأحوال المصاحبة لهجرتهم من زيادة الشر والتمادي في الباطل، فهو هجر لم يأمر به الله تعالى ولا رسوله ﷺ..

لعـدم تحقق مـقـاصده ولكونه على غـيـر بابه، بل هو من هوى النفوس ووساوس الشيـاطين، ليهلك هؤلاء وهؤلاء، أما هلاك هؤلاء فبالمعاصي القائمين عليها، وهلاك الآخرين بهجرتهم على غير المأمور به، والمأذون فيه من الشرع، ودين الله تعـالى بين الجافي عنه والغالي فيه..

وقال الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج٢٨ ص٢١٣

(فإذا تعذر إقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك إلا بمن فيه بدعة مـضرتهـا دون مضـرة ترك ذلك الواجب: كان تحـصيل مصـلحة الواجب مع مفسدة مرجوحة معه خيرا من العكس) انتهى.

قلت: فانظر كيف عمم ـ رحمه الله تعالى ـ الواجبات بقوله «من العلم والجهاد وغير ذلك» ودخل في كلمة «غير ذلك» بعمومها واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله تعالى، فإن لم يمكن تحصيل مصلحة واجب الدعوة إلا بمن فيه يسير المخالفات، التي مضرتها أقل بكثير من مضرة ترك واجب الدعوة، كان تحصيل مصلحة واجب الدعوة، مع وجود هذه المخالفة اليسيرة خيرا من العكس، وهو ترك هذا الواجب العظيم، لكونه لا يمكن تحصيله إلا في وجود هذه المخالفة اليسيرة وأشباهها، إذ إن تحصيل مصلحة الواجب مع هذه المفسدة المرجوحة أولى من عكسه..

وهذا حاصل من كثير ممن ينتقدون بسطاء أهل الدعوة، لوجود بعض المخالفات اليسيرة منهم أثناء قيامهم بالدعوة، فتجعلهم هذه المخالفات ينفرون منهم، ويقدحون فيهم، ويهجرون مجالسهم..

مع إغفالهم للمصالح الجليلة العظيمة المتحققة معهم، والكائنة فيهم، والمصاحبة لجهدهم ودعوتهم، فيتركون كل ذلك، ويتشبثون بدقيق المسائل، وشواذ الآراء، وغريب الاستدلالات، فيقدمون ذلك كله على تحصيل ألزم الواجبات..

وغالب هذه الاعتراضات قد يكون الحق والصواب مجانبا لهم، ويكون سبيل أهل الدعوة فيها أرجح وأصوب، ولكن الشأن في أنها وإن كانت صوابا، هل مصلحة تحصيلها أو الكف عنها ترقى لمصلحة تحصيل واجب الدعوة؟، فنعادي من أجلها أهلها..

وكيف بمن جعل همه في هذه الدنيا ومقصده الطعن والثلب فيهم؛ لأنهم يخرجون لمدد مبتدعة (بزعمه) من ثلاثة أيام إلى أربعين يوما إلى أربعة أشهر، ويحتج بأن الرسول ﷺ لم يفعل ذلك ولا أصحابه رضي الله عنهم، ويقول ما بني على باطل فهو باطل، ومن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد، فيبدأ في التحذير والتنفير منهم وهجرهم لذلك، وقد بسطنا القول على «حد» البدعة ومعناها، والرد على الكلام السابق بكامله في كتابنا «نظرة علمية في أهل التبليغ والدعوة» الجزء الأول «تحديد الأوقات»، وبينا فيه الأدلة من الكتاب والسنة الصحيحة والأصول، على تخصيص وتحديد أوقات معينة للقيام بواجب الدعوة، وأن هذا ليس ببدعة، مما يغني عن إعادته هنا..

وليراجعه هنالك بتوسع من شاء والحمد لله رب العالمين.

الفرق بين اصطلاح البراءة المطلقة
من العاصين ذاتا وصفاتا
وبين ولاء وبراء الأنبياء
وأهل السنة والجماعة

لقد كان الأنبياء على خلاف المعاصرين، في فهمهم لاصطلاح الولاء والبراء، والحب في الله والبغض في الله، فهذا خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام يمدحه الله عز وجل، على رقة قلبه وشفقته وحرصه على خلق الله تعالى..

أملا في إيمانهم، ورجاء أن يرفع الله عنهم عذابه الذي ألمّ بهم، رغم أنهم كانوا على أشد ما تكون الطبائع، وارتكبوا في ذنوبهم الفظائع، فكانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء، وغاب من وجوههم الحياء، فتظاهروا بالغي والضلال، وفعلوا في ناديهم المنكر المحال، قال تعالى: **﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾**[1] فقام يجادل رسل الله وملائكته، في شأن قوم لوط وتأخير العذاب عنهم..

والتساؤل يأخذنا: **هل يجادل عنهم وهم الشذاذ المجرمون؟**

والجواب: نعم يجادل عنهم وهم الشذاذ المجرمون.

والحيرة تُحيطنا هل يجادل عنهم وهم الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء؟

والجواب: نعم يجادل عنهم وهم الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء، سعيا لتأخير العذاب عنهم، وأملا في إيمانهم وتوبتهم، فهكذا صدور ونيات الأنبياء، فمن اتسع صدره لهديهم، وارتفعت نيته لمقاصدهم، فها هو سبيلهم، **لا يأس مع أحد أن يبلغوه رسالة ربه، وأن يحرصوا على إيمانه وهدايته، بلغت ما بلغتْ معصيته، وعظمت ما عظمت جريمته..**

---

(١) سورة هود آية: ٧٤، ٧٥، ٧٦.

وقد أورد الإمام ابن كثير في قصص الأنبياء ص١٩٧:

مـجـادلة الخليل عليـه الصـلاة والتسلـيم للمـلائكة الذين نزلوا بالعذاب لـقوم لوط فقـال: وذكر سـعيد بن جـبيـر والسدي وقـتادة ومحمـد بن إسحاق: **أن إبراهيم عليـه السلام جعل يقـول: أتهلكون قرية فيهـا ثلاثمائة مؤمن قالوا: لا. قال: فمائتـا مؤمن؟ قالوا: لا. قال: فأربعون مؤمنـا؟ قالوا: لا. قال: فأربعة عشر مـؤمنا؟ قالوا: لا. قال ابن إسحاق: إلى أن قال: أفرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا ﴿قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها﴾ الآية.**

فأراد لهم النجـاة، ودفع الهلاك، رجاء توبتـهم وإيمانهم رغم ما كانوا عليه، وما هم فيه..

وقد بين أئمتنا أئمة الأصول، وجـه جدال الخليل عليه السلام في شأن قوم لوط، وأن هـذا كان على تقدير حذف مـضاف، أي يجادل رسلنا، لا على معنى مخالفـة الأمر من الله تعالى في ذلك، فإن هذا يكون معصية، والخليل عليه السلام معصوم ومبرأ من ذلك..

ثم ذكـر أئمة الأصـول بعض الوجـوه التي كـانت للخليل عليـه السلام، دافعة له في مراجـعة الملائكة ورسل الله عليهم السلام، منها أن إبراهيم عليه السـلام كان يقول: **إن أمـر الله ورد بإيصال العـذاب، ومطلق الأمر لا يوجب الفـور، فإذا كان كـذلك فهناك فرصة لمراجـعة الإيمان معهم،** في حين أن الملائكة ورسل الله، الذين أرسلوا إلى قوم لوط، يدَّعـون الفـور في الأمـر إمـا للقـرائن، أو لأن مطلق الأمـر يستدعى ذلك، فـهذه هي المجادلة، **أو لعل الخليل عليـه السلام كـان يدعي أن الأمر بالعذاب مشروط بشرط لم يحصل بعد، والملائكة ورسل الله لا يسلمون بذلك..**

وبالجـملة: فإن العـلماء يجـادل بعـضهم بعـضـا عند التمسـك بالنصوص ولا يكون هذا قادحا في واحد منهم فكذلك ههنا.

وقد مدح الله تعالى الخليل عليه السلام، على مشاعر النبوة، وعلى حرص وشفقة الرسالة، ورقة القلب على خلق الله تعالى، حتى قام يجادل فيهم، أملا في رفع العذاب عنهم، ورجاء توبتهم وإيمانهم، فقال تعالى: **﴿إنَّ إبْرَاهِيمَ لَحَلِيم﴾**[1] أي غير عجول في الأمور، «أوَّاه» أي كثير التأوه من الذنوب، «منيب» أي رجَّاع كلما سنح له ذلك، **فمدحه الله تعالى في حرصه على دفع العذاب عن المجرمين،** قوم لوط الشذاذ المعتدين..

ويقابله الذم الذي نال أهل الدعوة من المعاصرين، لما حرصوا على العصاة والمذنبين، أملا في توبتهم وإيمانهم، وعودتهم إلى الصراط المستقيم، فذهبوا إليهم في المقاهي والطرقات، يتحسَّسون أماكنهم، لنفعهم ودفع الضرر عنهم..

فمدح الله تعالى الخليل عليه السلام، في الحرص على دفع العذاب عن الشذاذ المنحرفين، **وذم المعاصرون أهل الدعوة في الحرص على المسلمين، أتباع النبي ﷺ الموحدين..**

وكان الخليل عليه السلام بميزان الولاء والبراء بأيدي المتأخرين، مائلا عن أوثق عرى الإيمان وهو الحب في الله والبغض في الله، حيث جادل ونافح، عن الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء، وما تبرأ منهم، وما سعى في استئصال شأفتهم وجذورهم..

وما درى هؤلاء الفرق بين اصطلاح البراءة المطلقة، من العاصين ذاتا وصفاتا، الذي يذهبون إليه، وبين ولاء وبراء الأنبياء وأهل السنة والجماعة، الذي مقتضاه البراءة من الفعل لا من الفاعل، ومن الكفر لا من الكافر، ومن الفسق لا من الفاسق..

---

(١) سورة هود آية: ٧٥.

فيكرهون الكفر والفسوق والعصيان، ولكن لا يكرهون الكافر والفاسق والعاصي، لذلك دعوا أقوامهم وفيهم هذه الأصناف الكفر والفسوق والعصيان، ولم يمنعهم ذلك من الحرص عليهم وجلب النفع لهم، ودفع الضرر عنهم، مع كراهية وبغض ما يفعلون، فكانوا عدولا وسطا في الحب والبغض وفي الولاء والبراء، وكذلك جاء الوحي والفرقان بقوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾[1] وما قال وكره إليكم الكافر والفاسق والعاصي، وقال تعالى مخاطبا نبيه ﷺ: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[2] ولم يقل سبحانه وتعالى له ﷺ «فقل إني بريء منكم» فأمره سبحانه وتعالى بالبراءة من أعمالهم ومعاصيهم، ولم يأمره بالبراءة منهم، وأمره بالبراءة من العمل لا من العامل، ومن الفعل لا من الفاعل..

وكذلك أمر الله عز وجل نوحا عليه السلام بالبراءة من الإجرام لا من المجرم، وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ﴾[3] ولم يقل له سبحانه وتعالى: «قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء منكم»، فتبرأ من إجرامهم ولم يتبرأ منهم..

وهذا هو منهج النبوة والدعوة في ذلك، والذي مقتضاه البراءة من الفسق لا الفاسق، ومن الظلم لا الظالم، فيكرهون الصفة لا الذات، والمعصية لا العاصي، بخلاف غيرهم الذين يتبرءون من العصاة ذاتا وصفاتا..

---

(١) سورة الحجرات آية: ٧.

(٢) سورة الشعراء آية: ٢١٦.

(٣) سورة هود آية: ٣٥.

ومع أن الله تعالى مـدح الخليل إبراهيم عليه السلام على مـشاعر الحرص والشفقة على خلقـه، وطلب الهداية والفوز والنجاح لهم في الدنيا والآخرة، فقد عاتب نبيه يونس عليه السلام، لما سلك مع قومه خلاف هذا السبيل، وأراد هلاكهم..

وهذا ما أورده الإمـام القرطبي في تفـسير قـوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[1].

قـال: وأجود منه إسنـادا وأصح ما حـدّثناه عن علي بن الحـسين قال: حدثنا الحسن بن محمد قال حدثنا عمرو بن العَنْقَزِيّ قال حدثنا إسرائيل عن أبي إسحق عن عـمرو بن ميمون قال حـدثنا عبدالله بن مسعود في بيت المال عن يونس النبي ﷺ **قال: إن يونس وعد قومه العـذاب وأخـبـرهم أن يأتيـهم إلى ثلاثة أيام، فـفـرقـوا بين كل والدة وولدها، وخرجـوا فجأروا إلى الله عز وجل واستـغفـروا فكف الله عز وجل عنهم العـذاب، وغدا يـونس عليه السـلام ينتظر العـذاب فلم ير شيئـا ـ وكان من كَذَب ولم تكن له بينة قُـتل ـ فخرج يونس مغـاضبا، فأتى قـوما في سـفينة فـحملوه وعـرفوه، فلمـا دخل السفيـنة ركدت السفينة والسـفن تسير يمينا وشمـالا؛ فقالوا: ما لسفـينتكم؟ فقالوا: لا ندري.**

---

(١) سورة الصافات آية: ١٤٧

فقال يونس عليه السلام: إن فيها عبدا آبقا من ربه جل وعز وإنها لن تسير حتى تلقوه. قالوا: أما أنت يا نبي الله فإنا لا نلقيك، قال: فاقترِعوا فمن قُرِع فليقع، فاقترعوا فقرعهم يونس فأبوا أن يدعوه، قال: فاقترِعوا ثلاثا فمن قرع فليقع. فاقترعوا فقرعهم يونس ثلاث مرات أو قال ثلاثًا فوقع. وقد وكل الله به جل وعز حوتا فابتلعه وهو يهوي به إلى قرار الأرض، فسمع يونس عليه السلام تسبيح الحصى: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1] قال: ظلمة الليل وظلمة البحر وظلمة بطن الحوت. قال ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾[2] قال: كهيئة الفرخ الممعوط الذي ليس عليه ريش. قال: وأنبت الله عليه شجرة من يقطين فنبتت، فكان يستظل بها ويصيب منها، فيبست فبكى عليها فأوحى الله جل وعز إليه: أتبكي على شجرة يبست، ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم!». انتهى كلام الإمام القرطبي.

وأورد الإمام القرطبي ج٨ ص٥٥٧٤ عن الثعلبي: «كانت تظله فرأى خضرتها فأعجبته فيبست فجعل يتحزن عليها، فقيل له: يا يونس أنت الذي لم تَخلُق ولم تسقِ ولم تُنبِت تحزنُ على شجيرةٍ، فأنا الذي خلقتُ مائة ألف من الناس أو يزيدون تريد مني أن أستأصلهم في ساعةٍ واحدةٍ، وقد تابوا وتبتُ عليهم! فأين رحمتي، يا يونسُ، أنا أرحم الراحمين» انتهى.

---

(١) سورة الأنبياء آية: ٨٧.

(٢) سورة الصافات آية: ١٤٥.

رحمة النبي ﷺ وشفقته على أمته وعلى أن يؤمن كل أحد ويبلغه رسالة ربه

الله تعالى قد لخّص حياة النبي ﷺ في آية من القرآن العظيم، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[1].

فالنبي ﷺ شاهد على الأولين والآخرين وعلى المرسلين، ومبشرا بالجنة وجلب النفع، كل النفع، لكل أحد بإدخاله إليها، ونذيرا بالنار، ودفع الضرر، كل الضرر، عن كل أحد بإبعاده عنها، فمن كانت فيه صفات النبوة، من البشارة لكل أحد، والحرص والنصح له حتى يدخل الجنة، والنذارة لكل أحد، والحرص عليه ألا يدخل النار، فهو داع إلى الله تعالى، وهو السراج المنير بالهداية في وقته لأهل زمانه..

والله تعالى قد عاتب حبيبه وخليله سيدنا محمداً ﷺ على شدة حرصه، ونصحه للكفار من قومه، في وقته وزمانه وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[2] وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[3] أي لعلك قاتل نفسك، حرصا على إيمانهم ونصحا لهم. أخرج الطبراني عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾[4] ونحو هذا من القرآن قال: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويبايعونه على الهدى فأخبره الله عز وجل أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول، ثم قال الله عز وجل لنبيه ﷺ:

---

(١) سورة الأحزاب آية: ٤٥، ٤٦.

(٢) سورة الكهف آية: ٦.

(٣) سورة الشعراء آية: ٣.

(٤) سورة هود آية: ١٠٥.

﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[1].

هذا مع الكفـار المشركين، فـهل تحوي قلوبنا مـشاعر نبـينا ﷺ ، وهل نقـتل نفوسنا حـرصا ونصـحا لـلمسلمين، فـضلا عن الكافـرين المعرضين، وكم هو البعـد والقرب، من نيات ومقاصد النبـوة، وشفقة ونصح الرسالة..

وهل نسعى كـما كانت لنا المشـابهة، لظاهر السنة المشـرفة، في الثوب واللحية والسواك، أن يكون لنا نفس النسـبة من المشابهة لباطن النبوة، ونيـات الرسول ﷺ **من بذل كل الجـهد، حـرصا على نجـاة وإيمان الناس**، هذا الجهد الذي وصفـه الله تعالى بقوله: **﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾** أي قاتل نفـسك، فجـهد يوصف بكونه قتل للـنفس، كيف هو؟، وأين هو؟، ومتى نسـعى لتحصيل نفس الجهـد في نفوسنا، أو تكون لنا المشابهة لمثله، في نياتنا ومقاصدنا..

متى يحين الوقت الذي نصف فيـه المسلمين، بأنهم باخعين قاتلين أنفـسهـم على الناس، ألا يكونوا مـؤمنين، ومـال اللائمين على أهل الدعـوة، يغمـزونهم بالسـوء، ويُشيـعون حـولهم البـهتـان، لأنهم يحرصون على الإيمـان، ويبذلون الجهد بالنفس والمال، لتـحصيله في الناس، بدءا بالمسلمين، أتباع النبي ﷺ الموحدين، ونهاية بكل أحد على وجه المعمورة..

---

(1) مجمع الزوائد «سورة طسم الشعراء» ج٧ ص٨٧، ٨٨ وقال الإمام الهيثمي: رواه الطبراني ورجاله وثقوا إلا أن علي بن أبي طلحة قيل لم يسمع من ابن عباس.

وإذ مررنا على هذه الآية السابقة فلنردفها بأختها في سورة فاطر وهي قوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿**فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾[1]، وابْكِ معي على نفوسنا وعاتب أرواحنا، على ماذا تذهب؟، وبأي شيء تتفطر؟، وعلى أي شيء تتأسف؟..

فهذه نفس النبي ﷺ الزكية المباركة، تكاد تموت حسرة وألما على كفار زمانه، حرصا عليهم ونصحا لهم..

ونحن تأبى نفوسنا أن تتألم على أهل ملتنا، أو تنصح لأصحاب شريعتنا، فيضيع الإيمان فيهم ولا نسعى لرجوعه، ولا نحزن لفقده أو نتحسر عليه، وننام مطمئنين، والمحن تحيط بالمسلمين، حيث ضاعت فيهم الأركان، وانصدع من طاعتهم البنيان..

وهمُّ الدين هو الذي شرح صدر النبي ﷺ، وهو الذي رفع ذكره، وهو دافع للإنسان أن يُخرج الناس من الضيق إلى السعة، فإذا كان هو في الضيق فكيف يأخذ الناس إلى السعة؟.

وهذا حرص النبي ﷺ ورأفته، ورحمته وشفقته على أمته، قرآنا يتلى، عبرة للمتوسمين وسبيلا للمهتدين: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[2].

أي عزيز عليه عنتكم ومشقتكم، يحرص دوما عليكم، وهو رءوف رحيم في كل أحواله بكم، ما خير بين أمرين إلا واختار أيسرهما لأمته، **وقد وردت الكثير من الآثار في رحمة النبي ﷺ وحرصه على إيمان الناس، ووصولهم إلى الهداية، نكتفي ببعض الأمثلة للدلالة على هذا الأصل..**

---

(١) سورة فاطر آية: ٨.

(٢) سورة التوبة آية: ١٢٨.

أخـرج ابن سعـد (ج٤ ص١٣٧) عن المقـداد بن عـمرو قـال: أنا أسرت الحكم بن كـيسان فأراد أميـرنا ضرب عنقه فقلت: دعـه نقدم به على رسـول الله ﷺ، فقـدمنا، فـجـعل رسول الله ﷺ يدعـوه إلى الإسلام فأطال، فقال عـمر: علام تكلم هذا يا رسول الله؟ والله لا يسلم هذا آخر الأبد، دعني أضـرب عنقه ويقدم إلى أمه الهاوية فـجعل النبي ﷺ لا يقبل على عمـر حتى أسلم الحكم، فقال عمـر: فما هو إلا أن رأيته قـد أسلم حتى أخذني مـا تقدم وما تأخـر وقلت: كيف أرد على النبي ﷺ أمرا هو أعلم بـه مني ثم أقول: إنما أردت بذلك النصيـحة لله ولرسوله، فـقال عمـر: فأسلم والله فـحسن إسلامـه وجاهد في الله حتى قتل شهيدا ببئر معونة ورسول الله ﷺ راض عنه ودخل الجنان.

وعنده أيضـا (ج٤ ص١٣٨) عن الزهري قـال قـال الحـكم: ومـا الإسلام؟ قـال: تعبـد الله وحده لا شـريك له وتشهـد أن محـمداً عـبده ورسوله فـقال: قد أسلمت، فالتـفت النبي ﷺ إلى أصحابه فـقال: «لو أطعتكم فيه آنفا فقتلته دخل النار».

قلت: فانظر إلى رحمـة النبي ﷺ وحرصه على هداية الحكم ابن كيسان، مع أنه أطال في الإجابة إلى الإسلام، مما دفع عمر رضي الله عنه أن يطلب قـتله، وكيف أسلم رضي الله عنه بتـوفيق الله تعالى لـه، ثم ثمرة جهـد النبي ﷺ، وشرف نيـته في ذلك، حتى قـتل شهـيدا والنبي ﷺ عنه راضٍ ودخل الجنان، مـع أنه قـبل ذلك لو تُرك ومـا أراد عمر فقتله النبي ﷺ على كفره لدخل النار..

وأخرج البخاري[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، فأتوا محمدا ﷺ فقالوا: ان الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ﴾[2] ونزل ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾[3] وأخرجه أيضا مسلم (ج١ ص٧٦) وأبو داود (ج٢ ص٢٣٨) والنسائي، كما في العيني (ج٩ ص١٢١) وأخرجه البيهقي (ج٩ ص٩٨) بنحوه.

قلت: فانظر إلى رحمة النبي ﷺ على المشركين، الذين قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، ولم يمنعه ﷺ شركهم ولا زناهم ولا قتلهم من الحرص عليهم ودعوتهم، ونصحهم وطلب النجاة لهم حتى عندما استعظموا نجاتهم لعظيم ما ارتكبوا، وظنوا أن الله لا يقبل أمثالهم، نزل الوحي بتأييد الرسول ﷺ في حرصه عليهم، وفتح الباب لهم..

---

(١) أخرجه الإمام البخاري «كتاب التفسير ج٨ ص٨١٠» «باب يا عبادي الذين أسرفوا»، وأخرجه مسلم ج٢ ص١٣٩ «كتاب الإيمان» «باب الإسلام يهدم ما قبله وكذا الحج والهجرة »، وأخرجه الإمام البيهقي ج٩ ص٩٨ «كتاب السير» «باب الكافر الحربي يقتل مسلما ثم يسلم لم يكن عليه قود».

(٢) سورة الفرقان آية: ٦٨.

(٣) سورة الزمر آية: ٥٨.

قال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر في الفتح ج٨ ص٤١٢ قوله (لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة) في رواية الطبراني من وجه آخر عن ابن عباس أن السائل عن ذلك هو وحشي بن حرب قاتل حمزة وأنه لما قال ذلك نزلت ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾ الآية فقال: هذا شرط شديد، فنزلت: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ﴾ الآية.

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح أيضًا ج٨ ص٤١٢:

قوله (ونزل قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم) في رواية الطبراني «فقال الناس يا رسول الله، إنا أصبنا ما أصاب وحشي، فقال هي للمسلمين عامة» وروي أحمد والطبراني في «الأوسط» من حديث ثوبان قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما أحب أن لي بهذه الآية الدنيا وما فيها ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية. قال رجل: ومن أشرك؟ فسكت ساعة ثم قال: ومن أشرك ثلاث مرات» واستدل بعموم هذه الآية على غفران جميع الذنوب كبيرها وصغيرها سواء تعلقت بحق الآدميين أم لا، والمشهور عند أهل السنة أن الذنوب كلها تغفر بالتوبة، وأنها تغفر لمن شاء الله ولو مات على غير توبة، لكن حقوق الآدميين إذا تاب صاحبها من العود إلى شيء من ذلك تنفعه التوبة من العود، وأما خصوص ما وقع منه فلابد له من رده لصاحبه أو محاللته منه. نعم في سعة فضل الله ما يمكن أن يعرض صاحب الحق عن حقه ولا يعذب العاصي بذلك، ويرشد إليه عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ والله أعلم» انتهى كلام الحافظ ابن حجر.

وهذه رحمة النبي ﷺ على كل أحد أن يكون في النجاة فيؤمن ويبلغه رسالة ربه، حتى مع وحشي قاتل عمه حمزة رضي الله عنه، وهو أحب الناس إليه وهو أسد الله وأسد رسوله، والذي لم يصب بمثله ﷺ، فمنهج النبوة والدعوة ليس فيه مجال للثأرات الشخصية..

قال الحافظ ابن حجر في الفتح ج٧ ص٤٢٨ وعند يونس ابن بكير في المغازي عند ابن إسحاق قال «فقيل لرسول الله ﷺ: هذا وحشي، فقال: دعوه، فلإسلام رجل واحد أحب إليّ من قتل ألف كافر»[١].

قلت: فترك رسول الله ﷺ قاتل عمه وأحب الناس إليه حمزة رضي الله عنه، مفضلا إسلامه على قتله، بل فضل ﷺ إسلام رجل واحد على قتل ألف كافر، فلا مجال في هذه الرسالة وتلك الدعوة للثأرات الشخصية، بل هذه الرسالة هي النصح والحرص، والعفو والصفح، والشفقة والإصلاح..

كما قال النبي الكريم شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٢] وقال النبي نوح عليه السلام لقومه: ﴿وأنصح لكم﴾[٣] وهذا النبي هود عليه السلام يقول: ﴿وأنا لكم ناصح أمين﴾[٤].

وقد يقول قائل إن النبي ﷺ إنما عفا عن وحشي وقَبِلَ منه إسلامه، لكون قتل حمزة رضي الله عنه قد مر عليه زمن طويل، فلم يعد حزنه عليه كحزنه الأول، لما وقف فوقه بعد مقتله، وقد مثّل الكفار به، وبكائه صلى الله عليه وسلم عليه، حتى قال في رواية ابن هشام «لن أصاب بمثلك أبدا».

---

(١) فتح الباري «كتاب المغازي» «باب قتل حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه» ج٧ ص٤٢٨.

(٢) سورة هود آية: ٨٨.

(٣) سورة الأعراف آية: ٦٢.

(٤) سورة الأعراف.

فنقول مُجيبين على ذلك: بل لم ينس النبي ﷺ عمه وأحب الناس إليه، فقد كان صلى الله عليه وسلم حتى آخر أيامه من الدنيا، يذكر أحباءه من شهداء أحد، يدعو لهم، ويزورهم ويستغفر لهم..

وعندما قَبل النبي ﷺ إسلام وحشي وأمَّنه، طلب منه طلبا، يبين ويوضح أنه لم ينس عمه حمزة رضي الله عنه أسد الله وأسد رسوله ﷺ، حيث قال لوحشي رضي الله عنه بعد أن أسلم: «غيِّب وجهك عني لا أراك» قال وحشي رضي الله عنه في رواية الطيالسي «فكنت أتَّقي أن يراني»، ولابن عائذ «فما رآني حتى مات».

فلم يستطع النبي ﷺ أن ينظر إلى قاتل أحب الناس إليه حمزة رضي الله عنه، والذي ظل يذكره حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، فالنبي ﷺ لا يطيق رؤية وحشي ومع ذلك هو على الحرص عليه والنصح له..

فمنهج النبوة والدعوة ليس فيه الانتقام للنفس، ولا مجال في الدعوة لتأثير وتدخل العواطف في إيصال الخير للآخرين، بل يداس على العواطف من أجل وصول هذا الخير..

وهذا الذي حدث مع وحشي رضي الله عنه، حيث لم تمنع عاطفة بغض وكُره قاتل عمه حمزة رضي الله عنه وحزن النبي ﷺ عليه من إيصال الخير لوحشي رضي الله عنه، وقبول الإسلام منه، والحرص على نجاته، والأمثلة على ذلك كثيرة متكررة، مع عكرمة رضي الله عنه وأبي سفيان رضي الله عنه وهند بنت عتبة رضي الله عنها وغيرهم كثير..

وهذه قصة الحبْر اليهودي الذي روَّعه عمر عندما أساء الطلب من النبي ﷺ وهو ما أخرجه الطبراني عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال: إن الله عزّ وجلّ لما أراد هدى زيد بن سعنة قال زيد بن سعنة: ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلما. قال زيد بن سعنة: فخرج رسول الله ﷺ يوما من الحجرات ـ ومعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ فأتاه رجل على راحلته كالبدوي فقال: يا رسول الله! لي نفر في قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، وكنت حدثتهم إن أسلموا أتاهم الرزق رغدا وقد أصابتهم سنة وشدة وقحط من الغيث، فأنا أخشى يا رسول الله! أن يخرجوا من الإسلام طمعا كما دخلوا فيه طمعا؛ فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تغيثهم به فعلت. فنظر إلى رجل إلى جانبه أراه عليا فقال: يا رسول الله! ما بقى منه شيء. قال زيد بن سعنة: فدنوت إليه فقلت: يا محمد! هل لك أن تبيعني تمرا معلوما في حائط بني فلان إلى أجل معلوم إلى أجل كذا وكذا. قال: لا تسمى حائط بني فلان قلت: نعم، فبايعني فأطلقت همياني فأعطيته ثمانين مثقالا من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا فأعطاني[1] الرجل وقال: اعدل عليهم وأغثهم. قال زيد بن سعنة: فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاث خرج رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم في نفر من أصحابه. فلما صلى على الجنازة ودنا إلى الجدار ليجلس إليه أتيته فأخذته بمجامع قميصه وردائه ونظرت إليه بوجه غليظ. قلت له: يا محمد! ألا تقضيني حقي؟ فوالله! ما علمتم بني عبدالمطلب إلا مطلا ولقد كان بمخالطتكم علم. ونظرت إلى عمر وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير ثم

(١) هكذا في الأصل.

رماني ببصره فقال: يا عـدو الله! أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع؟ وتصنع به ما أرى؟ فـوالذي نفسي بيده! لولا ما أحاذر فـوته لضربت بسيفي رأسك ورسـول الله ﷺ ينظر إليّ في سكون وتؤدة. فقال: يا عمـر! إنا وهو كنا أحوج إلى غـير هذا: أن تأمـرني بحسن الأداء وتأمره بحـسن اتباعه؛ اذهب بـه يا عمر! فـأعطه حقه وزده عـشرين صاعا من تمر مكان ما رعته. قال زيد: فذهب بي عمر فأعطاني حقي وزادني عشرين صاعا من تمر. فـقلت: ما هذه الزيادة؟ يا عمر! قال: أمرني رسـول الله ﷺ أن أزيدك مكان ما رعتك. قـال: وتعرفني؟ يا عـمر! قـال: لا. قلت: أنا زيد بن سـعنة. قـال: الحبـر. قلت: الحبر. قال: فما دعـاك إلى أن فعلت برسول الله ما فعلت؟ وقلت له ما قلت؟ قلـت: يا عمر! لم يكن من عـلامات النبـوة شيء إلا وقد عـرفت في وجـه رسـول الله ﷺ حين نظرت إليـه إلا اثنتين، لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جـهله ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما وقد اختبرتهما، فأشـهدك يا عمر! أني قد رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا ومحمد نبـيا وأشهدك أن شطر مالي فإني أكثـرها مالا صدقة على أمة مـحمـد ﷺ. قال عمـر: أو على بعضـهم فإنك لا تسـعهم، قلت: أو على بعـضهم. فـرجع عمر وزيـد إلى رسول الله ﷺ. فقال زيـد: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهـد أن محمداً عبـده ورسوله وآمن به وصدقه وبايعه، وشهد معـه مشاهد كثيرة؛ ثم توفى في غزوة تبوك مقبلا غيـر مدبر ـ رحم الله زيدا. قال الهيثمي (ج٨ ص٢٤٠): رواه الطبراني ورجاله ثقات؛ وروي ابن ماجه منه طرفا ـ انتهى.

وأخرجـه أيضا ابن حبان والحـاكم وأبو الشيخ في كتـاب أخلاق النبي ﷺ وغـيرهم كمـا في الإصابة ج١ ص٥٦٦ وقـال: ورجال الإسناد موثقون.

قلت: فزاد النبي ﷺ هذا الذي أساء الأدب معه عشرين صاعا من تمر، مقابل أن أحد أصحابه وهو عمر رضي الله عنه قد روعه، واشتد عليه وأفزعه، فما أروع الإسلام في رحمته وأمانه، وبره وإحسانه، وقد كان هذا سببًا في إسلام هذا الحبر رضي الله عنه ونجاته بالإيمان.

وهذا حديث أنس رضي الله عنه: (كنت مع النبي ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية فجبذه أعرابي بردائه جبذة شديدة حتى أثرت حاشية البرد في صفحة عاتقه ثم قال يا محمد، احمل لي على بعيري هذين من مال الله الذي عندك فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك فسكت النبي ﷺ ثم قال: المال مالُ الله وأنا عبده. ثم قال: ويُقادُ منك يا أعرابيُّ ما فعلت بي. قال: لا. قال: لم؟ قال: لأنك لا تُكافئُ بالسيئةِ السيئةَ. فضحك النبيُ ﷺ ثُم أمَرَ أن يُحملَ لهُ على بعيرٍ شعيرٌ وعلى الآخر تمرٌ).

وهذا رسول الله ﷺ في فتح مكة، وقد دخلها منتصرا غالبا، وفي البيت أعداؤه الذين أخرجوه وأصحابه، ونالوا منه ما نالوا، وقد قدر عليهم، فدخل مكة ﷺ منكسا رأسه على رحله تواضعا لربه، وكان حاله مع الذين حاربوه وآذوا أصحابه، آية للزمان، وقدوة للأنام أخرج الواقدي وابن عساكر وابن سعد عن سهيل بن عمرو رضي الله عنه قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة وظهر اقتحمت بيتي وأغلقت عليّ بابي وأرسلت ابني عبدالله بن سهيل أن أطلب لي جوارا من محمد ﷺ فإني لا آمن أن أقتل. فذهب عبدالله بن سهيل فقال: يا رسول الله ﷺ! أبي تؤمنه. قال: نعم، هو آمن بأمان الله فليظهر. ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله: من لقى منكم سهيلا فلا يشد إليه النظر فليخرج، فلعمري! إن سهيلا له عقل وشرف وما مثل سهيل جهل الإسلام والقدر أي ما كان يوضع فيه أنه لم يكن له بنافع. فخرج عبدالله إلى أبيه فاخبره بمقالة رسول الله ﷺ، فقال

سهيل: كان والله! برا صغيرا وكبيرا. فكان سهيل يقبل ويدبر وخرج إلى حنين مع رسول الله ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرانة، فأعطاه رسول الله ﷺ يومئذ غنائم حنين مائة من الإبل. كذا في كنز العمال ج٥ ص٢٩٤؛ وأخرجه أيضا الحاكم في المستدرك ج٣ ص٢٨١ مثله.

وأخرج ابن عساكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لما كان يوم الفتح ورسول الله ﷺ بمكة أرسل إلى صفوان بن أمية وإلى سفيان بن حرب وإلى الحارث بن هشام. قال عمر: فقلت: قد أمكن الله منهم لأعرفنهم بما صنعوا حتى قال رسول الله ﷺ: مثلي ومثلكم كما قال يوسف - على نبينا وعليه السلام - لإخوته: ﴿**لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾.

قال عمر: فافتضحت حياء من رسول الله ﷺ كراهية أن يكون بدر مني، وقد قال لهم رسول الله ﷺ ما قال. كذا في الكنز ج٥ ص ٢٩٢.

وعند ابن زنجويه في كتاب الأموال من طريق ابن أبي حسين: قال لما فتح رسول الله ﷺ مكة دخل البيت ثم خرج فوضع يده على عضادتي الباب فقال: ماذا تقولون؟ فقال سهيل بن عمرو: نقول ونظن خيرا أخ كريم، وابن أخ كريم وقد قدرت. فقال: أقول كما قال أخي يوسف: ﴿**لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ**﴾. كذا في الإصابة ج٢ ص٩٣.

وأخرجه البيهقي (ج٩ ص١١٨) من طريق القاسم بن سلام بن مسكين عن أبيه عن ثابت البناني عن عبدالله بن رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه - فذكر الحديث، وفيه: قال: ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي

الباب فقال: ما تقولون؟ وما تظنون؟ قالوا نقول: ابن أخ، وابن عم حليم. قال: وقالوا ذلك ثلاثا. فقال رسول الله ﷺ: «أقول كما قال يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. قال: فخرجوا كأنما نشروا من القبور فدخلوا في الإسلام.

قال البيهقي: وفيما حكى الشافعي عن أبي يوسف في هذه القصة: أنه قال لهم حين اجتمعوا في المسجد: ما ترون أني صانع بكم؟ قالوا: خيرا! أخ كريم، وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء» انتهى.

قلت: فهذا منهج النبوة والدعوة يرحم ويعطف بالناس، كل الناس، القريبين والبعيدين، مُسالمين كانوا أو معادين، يعفو ويصفح عنهم، ويبرهم ويصلهم، بخلاف منهج الملك، وغيره من المناهج، التي تعصف بالناس: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

وهذا عكرمة ابن أبي جهل أعدى أعداء النبي ﷺ، قبل أن يسلم رضي الله عنه، يضع وساما على صدر النبوة، حين وقف أمام النبي ﷺ، وهو ما أخرجه الحاكم عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما قال: «فلما بلغ باب رسول الله ﷺ استبشر ووثب له رسول الله ﷺ قائما على رجليه فرحا بقدومه».

ثم أخرج عن عروة بن الزبير رضي الله عنهما قال: قال عكرمة بن أبي جهل: لما انتهيت إلى رسول الله ﷺ قلت: يا محمد! ان هذه أخبرتني أنك آمنتني. فقال رسول الله ﷺ: أنت آمن. فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنت عبدالله ورسوله وأنت أبر الناس، وأصدق الناس، وأوفى الناس. قال عكرمة: أقول ذلك وإني لمطأطئ رأسي استحياء منه ثم قلت: يا رسول الله! استغفر لي كل

عداوة عاديتكها، أو موكب أوضعت فيه أريد فيه إظهار الشرك. فقال رسول الله ﷺ: اللهم! اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها أو موكب أوضع فيه يريد أن يصد عن سبيلك. قلت: يا رسول الله! مرني بخير ما تعلم فأعلمه. قال: قل: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وتجاهد في سبيله. ثم قال عكرمة: أما والله! يا رسول الله! لا أدع نفقة كنت أنفقتها في الصد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قاتلت قتالا في الصد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله. ثم اجتهد في القتال حتى قتل يوم أجنادين شهيدا في خلافة أبي بكر رضي الله عنه.

وهذه رحمة النبي ﷺ على قومه وهم كفار، حتى مع الإيذاء والعداوة منهم، وهو ما روي عن ابن مسعود أنه قال: «كأني أحاكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1].

وقد كان الحاكي هو النبي ﷺ والمحكي عنه أيضا هو الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد روي ذلك عن النبي ﷺ عندما شج الكفار وجهه في غزوة أُحُد عندما قال «كيف يفلح قومٌ شجوا وجه نبيهم».

---

(١) أخرجه الإمام البخاري ج٤ ص٢١٤ «كتاب بدء الخلق»، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ج١ ص٤٤١، وفي مجمع الزوائد ج٦ ص١٢٠ وقال الإمام الهيثمي رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح، وفي كنز العمال «غزوة أحد ج١٠ ص٣٧٩ ح رقم ٢٩٨٨٣، وفي مشكل الآثار ج٣ ص١٨٩ بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺ في الاستغفار للمشركين من نهي وإباحة.

فأنزل الله تعالى عليه: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يعذبهم أو يتوب عليهم فإنهم ظالمون﴾[1] حينئذ دعا النبي ﷺ لهم بقوله: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون». قال القاضي عياض رحمه الله: «انظر ما في هذا القول من جماع الفضل ودرجات الإحسان وحُسن الخلق وكرم النفس وغاية الصبر والحلم إذ لم يقتصر صلى الله عليه وسلم على السكوت عنهم حتى عفا عنهم ثم أشفق عليهم ورحمهم ودعا وشفع لهم فقال: اغفر أو اهدِ ثُم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: لقومي ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال: فإنهم لا يعلمون»انتهى.

قلت: حتى عندما كان الإيذاء له ﷺ في رحلة الطائف، وسلطوا عليه السفهاء يرمونه بالحجارة، وأدميت قدماه الشريفتان ونزل ملك الجبال قائلا له ﷺ، **إن الله أمرني أن أطيعك إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين»** وهما جبلان بهذه الناحية، أجاب النبي ﷺ وهو الرءوف الرحيم: «**لا، عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده**» **فصلوات الله وتسليماته عليك يا رسول الله، فمع العداوة والضرب والإيذاء، رحمت وعفوت، وأمَّلت في الهداية، ونحن مع الدعة والترفه والتقصير قسونا على من ندعوه، وتمنينا هلاك وبوار المدعوين، صلوات الله وتسليماته عليك فعندما وجدت الصدود ممن أمامك، من العيون والآذان والقلوب، اتسعت معك النيات لتأمل في النطف التي في الأصلاب أن يكونوا في الهداية، فلا يأس في منهج النبوة والدعوة**

---

(١) أخرجه الإمام البخاري «كتاب المغازي» «باب قوله تعالى: ليس لك من الأمر شيء» ج٧ ص٤٢٢، وأخرجه الإمام مسلم «كتاب الجهاد» «باب غزوة أحد ج١٢ ص١٤٩، ١٥٠، وأخرجه ابن ماجة «كتاب الفتن» «باب الصبر على البلاء»، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ج٣ ص٢٠٦، ٢٥٣، ٢٥٨.

أمـام أي مـؤثرات، لـوقف إشـاعـة الإيمان، بل كل المؤثـرات تتـفكك وتتلاشى مع نيات الإصلاح والنصح والهداية.

وقد أخـرج الله تعـالى من أصلاب هؤلاء الناس من أهل ثقـيف بالطائف ببركة دعوة النبي ﷺ من عبده ودعى لعبادته، حيث كانت الجيوش التي فتـحت جنوب شرق أسيا في مقدمـتها أهل ثقيف، ولا عجـب في ذلك فقـد وصفه الله تعـالى بالرحـمة العـامة التامـة في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1]، ووصف أمتـه بهذه الصـفة أيضا فقال تعالى ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[2]. .

وغفـر الله عز وجل لأهل الدعوة، الذين أحـيوا هذه الصفـة في أمة النبي ﷺ، فـقاموا يبـذلون الجهـد بالنفس والمال لرحمـة هذه الأمة، وللدعوة إلى التراحم بينها..

وإذا نظرنا إلى سائر حياة النبي ﷺ، لوجدناها حرصا متواصلا، ونصحا كامـلا، ورحمة عامة، والأمثلة على ذلك كثـيرة عديدة تصعب على الاستقـصاء والحصر، وإن أردت بعض الإشـــارات إلى ذلك، فانظر إلى قصة إسلام عـمر رضي الله عنه ودعاء النبي ﷺ له بالهداية وهو من أشـد المعـارضين له، وتأمل قـصص إسـلام عكرمة وعـمـرو بن العاص وخالد بن الوليد وسهيل بن عمـرو وصفوان بن أمية وغيرهم كثير رضي الله عنهم جميعا.

---

(١) سورة الأنبياء آية: ١٠٧.

(٢) سورة الفتح آية: ٢٩.

وانظر إلى قصة عيادة النبي ﷺ للغلام اليهودي وهو يحتضر وحرصه ﷺ على إسلامه وتهلله وفرحه بذلك عندما أسلم، وقصته صلوات الله وسلامه عليه مع جنازة اليهودي التي مرت به وقوله ﷺ متحسراً: «أليس نفسًا تفلتت مني إلى النار»[1].

فرأى في كل نفس تموت على غير الإسلام مسئولية عظيمة عليه، أن يدعوها ويرحمها ويحرص عليها، والآن كم ابتعدت أمته ﷺ عن هذه النيات والمقاصد، وفُقدت منها هذه المشاعر، وهل تتحسر الأمة الآن على الذين يموتون كل يوم بغير أن يتحصلوا على الهداية، ويتعرفوا على الإسلام، وهل نصحت الأمة وحرصت على الناس؟، كما كان نبيها ﷺ يفعل ذلك..

والأمثلة في هذا الباب كما قلنا قبل ذلك تصعب على الاستقصاء والحصر، **ومن أراد التوسع فعليه بكتب السيرة النبوية المشرفة، ففيها أقوى دلالة، وأبلغ رسالة، على نيات النبوة، وشفقة وحرص الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أجمعين، نسأل الله تعالى أن يجعل لنا والمسلمين حظا من حسن مقاصده، وكمال هديه وتمام نصحه ورحمته آمين.**

---

(١) الإمام البخاري «كتاب الجنائز» «باب من قام لجنازة يهودي» ج٣ ص٢١٤، وأخرجه الإمام مسلم «كتاب الجنائز» «باب القيام للجنائز» ج٧ ص٢٩، وأخرجه الإمام النسائي «في كتاب الجنائز» «باب القيام لجنازة أهل الشرك» ج٤ ص٤٥، وأخرجه الإمام البيهقي «كتاب الجنائز» «باب حجة من زعم إن القيام للجنازة منسوخ» ج٤ ص٢٧.

بعض الأمثلة على نصح الدعاة المؤمنين المذكورين في القرآن العظيم

من ذلك دعوة مؤمن آل ياسين مع قومه، كيف نصح لهم وسعى إليهم، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وحتى يتبعوا المرسلين، الذين لا يسألون أجرا على دعوتهم، ولا يريدون مالا بكلماتهم، فهم محتسبون بأموالهم وأنفسهم، مهتدون في نهجهم ومقصدهم..

وأعلن أمام قومه الإيمان، وأنه يعبد فاطر المخلوقات، ومرجع الموجودات الذي بيده الضر والنفع، وكل معبود سواه باطل، فالأصنام باطلة، ظاهرة كانت أم باطنة: **﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾**[1].

حينئذ هدَّده قومه إن لم ينته أن يقتلوه، عن يد جميعا ويرجموه، وظل الداعي يدعو، والهادي يتقدم، وكل واحد من قومه يتناول الموت بيده حجرا، ثم رموه جميعا فرجموه، مع كل حجر موت جديد، وألم شديد، **قال قتادة: «جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون فلم يزالوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك فقتلوه رحمه الله»انتهى.**

فلما نال الشهادة، وجاءت الملائكة لرفع روحه إلى السماء، نادى بأعلى صوته **﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾. أي قال لهم أسمعوا قولي لتشهدوا لي، بما أقول لكم عند ربي، إني آمنت بربكم واتبعتكم، أنا الآن صاحب المرسلين، والداعي إلى الإيمان برب العالمين، فأجابه النداء ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾[2] والعجب يأخذنا من رحمة منهج النبوة**

---

(١) سورة يس آية: ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤.

(٢) سورة يس آية: ٢٦، ٢٧.

والدعوة، فهذا الرجل المؤمن من لحظات قليلات، فاتت نفسه وخرجت روحه بأيدي هؤلاء المجرمين، وهو ما فتئ يدعو لهم بالصلاح والفلاح، ومعرفة ما وصل إليه من النعيم المقيم، يدعو لهم أن يصلوا إلى ما وصل إليه من الفوز والنجاح، هذا برغم أن دماءه لم تجف بعد من أيديهم؟

نعم ورغم أن دماءه ما زالت حارة بأحجارهم، فهذا هو درب الدعوة وسبيل الهداية، رحمة دائمة شاملة عامة..

للموافقين والمخالفين، للقريبين والبعيدين، للظالمين والمجرمين، وللعتاة الطاغين، كل الأصناف والأجناس حقل لأعمال الهداية، يُبذر فيها بذور الإيمان، فتخرج شجرة طيبة: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(١).

قال الإمام ابن كثير في قصص الأنبياء ص٢٨٤ قال ابن عباس: نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ وبعد مماته في قوله ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ رواه ابن أبي حاتم.

وقال الإمام الطبري ج١٢ ص١٩٣: قال قتادة فلا تلقى المؤمن إلا ناصحا ولا تلقاه غاشا فلما عاين من كرامة الله: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ تمنى على الله أن يُعلم قومه ما عاين من كرامة الله وما هجم عليه» انتهى.

---

(١) سورة إبراهيم آية: ٢٤، ٢٥.

وهذا حرص مؤمن آل فرعون، عندما استمع إلى الكليم موسى عليه الصلاة والتسليم فآمن به، وانتقل نصح موسى عليه السلام لفرعون وقومه بالإيمان، إلى هذا المؤمن، فتنورت روحه وتحركت نفسه لنجاة الظالمين قوم فرعون الطاغين، وللدفاع عن منهج الإيمان لما تعرض للعدوان: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[1] فدافع عن الكليم موسى عليه الصلاة والتسليم، ودعا معه إلى توحيد الله تعالى، واتباع الآيات البينات الظاهرات، لأن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب، وأن ما يسمعون إن كان صدقا، أصابهم موعود الإيمان، وفوز الإحسان، ثم قال لهم منتسبا إليهم ناصحا إياهم ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[2]، فمع أن فرعون لم يقتل موسى عليه السلام، إلا أنه قتل بني إسرائيل جملة، ومع ذلك ما ترك هذا الداعية المؤمن الحرص عليه، وحب جلب النفع له، ولسائر قومه، والخوف عليهم من عذاب الله تعالى في الدنيا والآخرة، ومحبة هدايتهم ونفعهم: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾[3]، فنادهم بالإنتماء إليهم، لا بالتبرأ منهم، حيث قال «يا قومي» وأكد ذلك الإنتماء أكثر من مرة، بل ما بدأ معهم

---

(١) سورة غافر آية: ٢٧، ٢٨.

(٢) سورة غافر آية: ٢٩.

(٣) سورة غافر آية: ٣١، ٣٢.

الخطاب في كل حالة، إلا وهو يبدأ بتقرير ذلك، أنهم قومه، وهو جزء منهم، ليس منفردًا، ولا منعزلاً عنهم، فخاف عليهم محبة لنجاتهم، من مصير من سبقهم، من أمم المكذبين، ومن الخزي والندامة يوم الدين: ﴿**وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾[1]، فخاف عليهم من الضلالة ودعاهم إلى الرشاد: ﴿**يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ**﴾[2] ولكنهم أبطأوا عليه، وتأخروا عنه، فعاتبهم ولامهم بكل النصح والشفقة عليهم..

فهل كان ذلك انطلاقا من النصح والحب أم من البراءة والبغض؟

وخاف عليهم لجلب النفع لهم أم لوقوع الضرر بهم؟

وحرص عليهم إن لم يتبعوه أن لا يهتدوا إلى سبيل الرشاد أم ليدخلهم جهنم وبئس المهاد: ﴿**وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ**﴾[3]، فجادلوه وأهملوه، وأداروا الظهر لدعوته، ولم ييأس منهم، وظل على حرصه عليهم، أملا في أن يتذكروا ويتدبّروا، وفوض أمره إلى البصير بالعباد: ﴿**فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ**﴾[4] فحفظه الله تعالى من مكرهم ونجّاه منهم: ﴿**فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ**﴾[5].

---

(١) سورة غافر آية: ٣٢، ٣٣.

(٢) سورة غافر آية: ٣٨.

(٣) سورة غافر آية: ٤١، ٤٢، ٤٣.

(٤) سورة غافر آية: ٤٤.

(٥) سورة غافر آية: ٤٥.

وهذا ما ورد تأكيده في الآثار

أن البراءة

في منهج النبوة والدعوة

من الصفة لا من الذات

روي الإمام البخاري عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أن رجلاً كان على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبدالله وكان يُلقبُ حماراً وكان يُضحكُ رسول الله ﷺ، وكان النبيُّ ﷺ قد جَلَدَهُ في الشراب، فأُوتيَ به يومًا فأمَرَ به فُجلدَ، فقال رجلٌ من القوم: اللهمَّ العنهُ، ما أكثرَ ما يُؤتى به! فقال النبيُّ ﷺ: **«لا تلعنَوهُ، فوالله ما علمتُ أنه يحبُّ الله ورسوله»**[1]. **وفي رواية قال «فلما انصرف قال رجل ما له أخزاه الله فقال رسول الله ﷺ: لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم»**[2].

قلت: ففي هذا الحديث غضب النبي ﷺ على من سوى بين كره الخمر لأنها رجس من عمل الشيطان ونجس، وكره شاربها، حتى دعا عليه بقوله «لعنه الله» فقال النبي ﷺ: لا تلعنوه، وفي رواية قالوا: «أخزاك الله» فنهى النبي ﷺ عن ذلك وقال لا تعينوا عليه الشيطان، وأمرهم بالدعاء له، فلم يُقر النبي ﷺ من خلط بين كره الخمر وكره شاربها، وبين المعصية والعاصي، وبين كره الفعل وكره الذات.

---

(١) رواه الإمام البخاري «كتاب الحدود» «باب ما يكره من لعن شارب الخمر» ج١٢ ص٧٧، رواه الإمام البيهقي ج٨ ص٣١٢ «كتاب الأشربة والحد فيها» «باب ما جاء في وجوب الحد على من شرب خمرا أو نبيذًا مسكرًا»، وفي مشكاة المصابيح ج٣ ص٤٢٤، «كتاب الحدود»، وفي كنز العمال ١٣٧٤٧، ١٣٧٤٨، وفي إتحاف السادة المتقين ج٦ ص٤٨٧.

(٢) رواه الإمام البخاري «كتاب الحدود» «باب ما يكره من لعن شارب الخمر» ج١٢ ص٧٧، «كتاب الحدود» «باب الضرب بالجريد والنعال» ج١٢ ص٦٧، ورواه الإمام البيهقي «كتاب الأشربة والحد فيها»، وفي مشكاة المصابيح ج٣ ص٣٢٤ «كتاب الحدود».

وهذا ما رواه الإمام البخاري في صحيحه، والإمـام أحمد في مسنده، عن ابن عـمـر رضي الله عنهما قـال: «بعث رسـول الله صلـى الله عليـه وآله وسلم خـالد بن الوليـد إلى بني جذيمة فـدعاهم إلى الإسلام فلم يـحسنوا أن يقولوا أسلمنا فـجعلوا يقولون صبأنا صـبأنا فجعل خـالد يقتل ويأسر ودفع إلى كل رجل منا أسيره حتى أصـبح أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره قلت والله لا أقتل أسيري ولا يـقتل رجل من أصحابي أسيره حتى قـدمنا على رسول الله صلى الله علـيه وآله وسلم فقـال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين».

قال العلامة الشوكاني في نيل الأوطار في شرحه على هذا الحديث: «قوله مما صنع خالد تبرأ صلى الله عليه وسلم من صنع خالد ولم يتبرأ منه وهكذا ينبغي أن يقال لمـن فعل ما يخالف الشرع ولا سيـما إذا كان خطأ»انتهى كلام الإمام الشوكاني.

قلت: فانظر إلى تقرير العلامة الشوكاني رحمه الله تعالى في نيل الأوطار، لمذهب أهل السنة والجـمـاعة والسلف الصـالح رضي الله عنهم، في البـراءة من الصفـة لا من الذات، ومن الفـعل لا من الفـاعل، وهو قولـه رحمه الله «تـبرأ النبي صلى الله عليه وسلم من صنع خـالد ولم يتبـرأ منه»، تعقيبًا على دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: **«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»**.

وفي ذلك تأكيـد من الإمام الشـوكاني على منهج النبـوة والدعوة، من أقوال وأفعال سيـد المرسلين صلى الله عليه وسلم، الذي تبرأ من فعل خالد رضي الله عنه في قتله لـلمسلمين على سبـيل الخطأ، ولكنه لم يتبـرأ من خالد نفـسه رضي الله عنه، فتبرأ النبي صلى الله عليه وسلم من فعله ولم يتبرأ من ذاته..

ثم عمم العـلامة الشوكاني الحـكم السابق بالبراءة من الصفة لا من الذات، على كل من خـالف الشـرع في مخالفة من المخـالفات، أو معصـية من المعصيات، ولم يقـصر الحكم أو يخصه بواقـعة خالد رضي الله عنه وحدهـا، فقال الإمـام الشوكـاني رحمـه الله تعالى بعـد ذلك «وهكذا ينبغي أن يقال لمن فعل ما يخالف الشرع»انتهى.

قلت: أي أن كل من يخالف الشـرع فنحن نتبرأ من صنيـعه هذا، ولكن لا نتبرأ مـنه أو من ذاته، فنتبرأ من المعصيـة لا من العاصي، ومن العمل لا من العامل..

وقد بين الإمـام الشوكاني أن هذا الأصل لأهل السنة والجمـاعة، في باب الولاء والبراء، الشامل في عمومه، لكل ما يخالف الشرع، إنما يتأكد من باب أولى، إن كانت هـذه المخالفات، قد ارتُكبت على سبيل الخـطأ، وعدم القصد والعـمد فيها، فـقال العلامة الشـوكاني رحـمه الله تعـالى مقـررا ذلك «وهكذا ينبـغي أن يقـال لمن فعل مـا يخالف الشرع ولا سيما إذا كان خطأ»انتهى.

وهذا حـديث العابد من بـني إسرائيل الذي رواه الإمـام أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قـال: سمـعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقـول: «**كان رجـلان في بني إسرائيل مُـتَـوَاخِيَـيْن، فكان أحـدُهما يُذْنبُ، والآخـر مـجتـهدٌ في العـبادة، فكان لا يـزال المجتـهدُ يرى الآخـر على الذَّنب، فيقـول: أَقصر. فوجدَه يومًـا على ذنب، فقال له: أقصـر. فقال: خلِّني وربي، أبُعثتَ عليَّ رقـيبًا؟ فـقال: والله لَا يغـفر الله لك، (أو لا يُدْخلُكَ الجنَّة). فَقَبضَ أرواحهُما، فاجتمعا عند ربِّ العالمين، فقال لهذا المجتَهد: أكنتَ بي عالمًا؟ أوْ كنت على ما في يدي قـادرًا، وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنَّة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار**»(١).

وما رواه ابن مسعـود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كان رجل يصلي فأتاه رجـل فـوطئ على رقبـته فـقـال الذي تحـته والله لا يغـفـر الله لك أبدا

---

(١) أبو داود «كتاب الأدب» «باب النهي عن البـغي» ج٤ ص٦٢٥، وكنز العمال في لواحق التوبة ج٤ ص٢٤١ (١٠٣٤٧)، وفي إتحاف السادة المتقين ج٩ ص١٨٧.

فقال الله عز وجل تألى عليَّ عبدي أن لا أغفر لعبدي فإني قد غفرت له»[1].

قلت: فكره هذا العابد فعل هذا العاصي المسرف على نفسه وكره ذاته أيضا حتى دعا عليه وتَأَلَّى على الله تعالى ألا يغفر له فعاقبه الله تعالى على ذلك، بأن أدخل هذا المسرف على نفسه الجنة وغفر له، وغضب عليه هو وأدخله النار.

وهذه قصة ماعز ﷺ عندما أقر على نفسه بالزنا ورجمه النبي ﷺ بإقراره، وهي عن عم لأبي هريرة «أن ماعزا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني قد زنيت. فأعرض عنه حتى قالها أربعا فقال له النبي ﷺ: أتدري ما الزنا؟ قال نعم أتيت منها حراما ما يأتي الرجل من امرأته حلالا. قال: ما تريد إلى هذا القول؟ قال: أريد أن تطهرني. قال: فقال رسول الله ﷺ: أدخلت ذلك منك في ذلك منها كما يغيب الميل في المكحلة والعصا في البئر؟ قال: نعم يا رسول الله، فأمر برجمه فرجم فسمع النبي ﷺ رجلين يقول أحدهما لصاحبه: ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم يدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب، ثم سار النبي ﷺ حتى مر بجيفة حمار فقال: انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار. فقالا: غفر الله لك يا رسول الله وهل يُؤكل هذا؟ قال رسول الله ﷺ: فما نلتما من أخيكما آنفًا أشد أكلا منه، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها» قال ابن كثير: إسناد صحيح[2].

(١) رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح.

(٢) أصل الحديث في الصحيحين الإمام البخاري كتاب الحدود «باب هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست أو غمزت، والإمام مسلم كتاب الحدود «باب حد الزنا ج١١، ورواه الإمام أحمد ج١ ص٢٣٨، ورواه الإمام البيهقي ج٨ ص٢٢٧، ٢٢٨.

قلت: ففي هذا الحديث غضب النبي ﷺ على هاذين الرجلين، عندما خلطا بين المعصية والعاصي، والزني والزاني، فقال أحدهما للآخر: «ألم تر إلى هذا الذي ستر الله عليه فلم تدعه نفسه حتى رجم رجم الكلب»، فتكلما عليه بما فيه انتقاصه، فذمهما النبي ﷺ على هذا وقال لهما: «انزلا فكلا من جيفة هذا الحمار» قالا: غفر الله لك يا رسول الله وهل يُؤكل هذا؟ قال ﷺ: «فما نلتما من أخيكما آنفا أشد أكلا منه». فما أقبح ما شبههما به، وما أسوأ منزلتهما عنده صلى الله عليه وسلم.

كذلك ما أخرجه عبدالرزاق عن ابن المنكدر أن النبي ﷺ رجم امرأة فقال بعض المسلمين: حبط عمل هذه، فقال النبي ﷺ: «بل هذه كفارة لما عملت وتحاسب أنت بما عملت»[1].

قلت: فقد غضب النبي ﷺ على من سوّى بين المعصية والعاصي، وعلى من عمم ذم الصفة ليشمل الذات والموصوف.

وعند سعيد بن منصور والبيهقي عن الشعبي أن جارية فَجَرت فأُقيم عليها الحدُّ ثم أنهم أقبلوا مهاجرين فتابت الجارية وحسنت توبتها فكانت تخطب إلى عمها فيكره أن يزوجها حتى يُخبر بما كان من أمرها وجعل يكره أن يفشى ذلك عليها فذكر أمرها لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: زوِّجها كما تزوجوا صالحي فَتَيَاتكم[2].

---

(١) عبدالرزاق في المصنف كتاب الطلاق باب الرجم والإحصان ٧/ ٣٢٦، وفي كنز العمال كتاب الحدود «باب الرجم ج٥ ص٣٤٣.

(٢) أخرجه في كنز العمال كتاب النكاح باب الأولياء ج١٦ ص٥٢٩.

وأخرج هناد والحارث عن الشعبي أن رجلا أتى عمر بن الخطاب ﷺ فقال إن لي ابنة كنت وأدتها في الجاهلية فاستخرجناها قبل أن تموت فأدركت معنا الإسلام فأسلمت، فلما أسلمت أصابها حدٌّ من حدود الله تعالى فأخذت الشفرة لتذبح نفسها فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برئت، ثم أقبلت بعد بتوبة حسنة وهي تخطب إلى قوم فأخبرتهم من شأنها بالذي كان. فقال عمر: أتعمد إلى ما ستر الله فتبديه؟ والله لئن أخبرت بشأنها أحدا من الناس لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار، بل أنكحها نكاح العفيفة المسلمة[1].

قلت: فلم يكره عمر ذاتها، ولم يسوِّ بين كره المعصية والعاصي، ولم يسقط حقوقها، بل حرص عليها واراد كل النفع لها، ولم يجعل معصيتها سببا في بغضها، ونبذها وردها، بل أدناها وعفها ووالاها، وقبلها وكأن لم يكن منها معصية، حتى عدَّها من العفيفات المسلمات، وتوعد من نظر لها بغير ذلك.

وأخرج البيهقي عن ابن عمر ﷺ قال: «كنت مع عمر في حج أو عمرة فإذا نحن براكب فقال عمر: أرى هذا يطلبنا، فجاء الرجل فبكى، قال: ما شأنك؟ إن كنت غارما أعنَّاك، وإن كنت خائفا أمنَّاك إلا أن تكون قتلت نفسا فتُقتل بها وإن كنت كرهت جوار قوم حوَّلناك عنهم. قال:إني شربت الخمر وأنا أحد بني تميم وإن أبا موسى جلدني وحلقني وسود وجهي وطاف بي الناس وقال: لا تجالسوه ولا تواكلوه! فحدثت نفسي بإحدى ثلاث: إما أن أتخذ سيفا فأضرب به أبا موسى، وإما أن آتيك فتحولني إلى الشام فإنهم لا يعرفوني، وإما أن ألحق بالعدو فآكل معهم وأشرب. فبكى عمر وقال: ما يسرني أنك فعلت وإن لعمر كذا

---

(١) أخرجه في كنز العمال كتاب الأخلاق من قسم الأفعال باب ستر العيب ج٣ ص٧٣٣.

وكذا وإني كنت لأشرب الناس لها في الجاهلية وإنها ليست كالزنا وكتب إلى أبي موسى: «سلام عليك أما بعد! فإن فلان بن فلان التيمي أخبرني بكذا وكذا، وايم الله! إني إن عدت لأسودن وجهك ولأطوفن بك في الناس، فإن أردت أن تعلم حق ما أقول لك فعد فأمر الناس أن يجالسوه ويواكلوه، فإن تاب فاقبلوا شهادته». وحمله وأعطاه مائتي درهم». كذا في الكنز ج٣ ص١٠٧.

قلت: فها هو عمر ﷺ يغضب على من سوى بين بغض الخمر، وبغض شاربها، حتى حمله ذلك على تسويد وجهه والطواف به في الناس، وتوعد أبا موسى ﷺ الذي فعل هذا بشارب الخمر إن لم يصلح ما فعل أن يصنع به هو ذلك..

وبكى الفاروق ﷺ حرصا وشفقة على العاصي، لما رأى من يخلط حكمه بحكم معصيته، فيبغضه كما يبغض معصيته، ويكرهه لكراهية معصيته، بل أمر ﷺ بالحرص والإقبال عليه أملا في توبته ورجوعه وإصلاحه، فأمرهم أن يواكلوه ويشاربوه، فإن نزع وتاب وأصلح فحينئذ يقبلوا شهادته ويعدّلوه ويوثقوه.

منهج النبوة والدعوة

لا يأس مع أحد من الناس

أن يُبَلَّغَ رسالة ربه

وذلك لخفاء العاقبة والموافاة

نقول: إنما يذهب أهل الدعوة إلى العصاة في مجامعهم، ويحرصون ويشفقون عليهم، لكونهم لا يعرفون بم يختم الله تعالى لهم، فلغياب العلم بالسابقة، ولحظة الخواتيم، جعلهم ذلك يقبلون على أي أحد، فلا يأس مع أي من الناس أن يُبلغ رسالة ربه، وعظمة معبوده، وصدق معاده، لمن أبدعه أول مرة ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[1].

فخفاء كيفية الموافاة لكل أحد من الناس، أكدت ضرورة الحرص والاهتمام لكل الأصناف التي هي مجال لعمل الدعوة، كفارا كانوا أو ظالمين أو فاسقين، على اختلاف أحوالهم..

ونحن لا ندري لهذه الروح التي هي الآن في ظاهرها خبيثة، عند نفخها ماذا أُمر المَلَكُ بها، شقية أو سعيدة، وكم من بعيد بغيض لكفره وعتوه وطغيانه، وهو في نفس اللحظة وذات الساعة، محبوب من الله تعالى للإيمان الموافي به.

وحب الله تعالى له في هذه اللحظة ليس لكفره وعصيانه، بل لتقواه وإيمانه الموافي به، والمقدَّر له من أرحم الراحمين.. وأين أنت من عِلم مقلب القلوب ومُصرف الوجوه..

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج يحمل سيفه، يغذ السير، يبحث عن النبي صلى الله عليه وسلم ليقتله، ويريح قريشا منه، خرج محاربا، صادا عن سبيل الله تعالى، عازما على أعظم الجرائم، وهو قتل النبي صلى الله عليه وسلم، وحاله أنه مشرك عابد لصنم من عجوة، كلما جاع أكل منه..

---

(١) سورة الأنبياء آية: ١٠٤.

عمر بن الخطاب الذي كان قاسي القلب مُـتحجِّر الروح، الذي وضع بيديه ابنته في حفرة، حفرها ليأدها، والتراب يتناثر على لحيته، فتمد يدها الصغـيرة إليه، تمسح ما سقط عليه، ومع هذا دفنهـا حية، وهي تصرخ به، وتبـكي منه، ماذا يفعل بها؟!!، ومـع هذا تركها، ومضى وحده بدونها..

عمر بن الخطاب ﵁ الذي لطم أخته فأدماها، وهي تعلن أمامه إيمانها، وتصـرخ بإسلامـها، **ومع كل هذه الـقـواطع، وارتفـاع هذه الحواجز، كان عمر بن الخطاب ﵁، محبوبا من الله تعالى، ليس لكفره وقتـها، ولا لظلمه وشَـكِّه ساعتـها، بل لإيمانه ويقينـه الذي يعود به إلى رب العالمين..**

فلشرف الموافاة أحبه الله تعـالى، ورفـعه فوق مـدارج المجـد والعـز والرفعة، فاسـتمع إلى القـرآن في بيت أخته، وأشـرقت الروح التي نُفخت بالسـعادة والإيمان، لما عادت ووافقت المقـدور لها، وصاح به البشيـر: أبشر يا عمر فوالله إني لأظن أن دعـوة رسول الله ﷺ قد أصابتك فإنه دعـا فقال: «**اللهم أعـز الإسلام بأحد العـمرين عـمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام**».

وانطلق عمر بن الخطاب ﵁ إلى الحبيب المصطفى ﷺ الذي أحبـه ودعا له، وهو المشرك العابد لـغير مولاه، الرافع السـيف صدا وجحودا لمن خلقه فسوَّاه..

انطلق إلى الحبيب ﷺ، وقلبه يسابـق الهواء، ويرف مرتفعا إلى أعلى سماء، ليهتف به يا نعمة الله التي بدَّلناها كفرا أي روح زكية أنت، من أي طهـر ونقاء وصـفـاء خلقك الله تعـالى فسـواك، بحيث اتسع

صدرك لأمثالنا، وأحاطت نيتك بنا من حولنا، فلم تتبرأ منا!، ونحن حقيقون بذلك، ولم تتنكر لنا!، ونحن المنكرون لمنزلتك ومكانك، أي مشاعر عندك صلى الله عليك، حتى وسعتنا ونحن مشركون، ودعوت وحرصت علينا ونحن ظالمون طاغون، وقد كان يسعك الكف عنا، عند صدودنا وجحودنا، واليأس منا، مع شرودنا وشذوذنا..

حتى وصل إلى الباب، والمسلمون خلفه، وقد انزعجوا لرؤيتهم عمر ﵁ حاملاً لسيفه، ماذا يريد؟!!، وما يبغي؟!!

وتكلم حمزة ﵁ فقال: «**وإن كان عمر افتحوا الباب فإن أراد خيرا فخير له وإن أراد غير ذلك قتلناه بسيفه**»..

وتقدمت الهداية بخطوها تسعى إلى الشاردين، وتسابق الخطى للوصول إلى المعرضين، ففتح النبي ﷺ الباب لعمر ﵁، وأخذه من محامل سيفه ومجامع ثوبه فهزّه هزًا شديدا، فقال ﷺ: يا عمر، أما آن لك أن تسلم!..

يا سبحان الله!! أكانت خطوات النبي ﷺ لهذه الغاية؟!، وصدره على هذه النية؟!، رغم ما عليه عمر ﵁ من حال!، وما وصل إليه من ضلال!..

نعم هذه كانت خطوات النبوة وتلك كانت نية ومقصد البعثة والرسالة، لذا لا جرم أن أجاب عمر ﵁ النبي ﷺ بقوله: **أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله**، فما كانت مشاعر النبوة والهداية لتعود بغير ذلك..

ثم تحول عمر ﵁ وتنوّر حتى صار الفاروق، سُئل ابن عباس: أي رجل كان عمر؟ فقال: «كان الطائر الحذر الذي كان له بكل طريق شركا».

وإليك ما أورده الحافظ ابن حجر ﷺ **في الفتح ج٧ ص٥٩ في رحمة النبي** ﷺ **، ودعائه لأعدائه والصادّين عن سبيله،** رغم أنهم كانوا ما يزالون على شركهم وكفرهم، ومنهم عمر بن الخطاب ﷺ وأبو جهل عمرو بن هشام **فقال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر رحمه الله: قوله «ما زلنا أعزّةً منذ أسلم عمر»** أي لما كان فيه من الجلد والقوة في أمر الله. وروي ابن أبي شيبة والطبراني من طريق القاسم بن عبدالرحمن قال: **قال عبدالله بن مسعود «كان إسلام عمر عِزاً، وهجرته نصراً، وإمارته رحمة. والله ما استطعنا أن نصلي حول البيت ظاهرين حتى أسلم عمر»** وقد ورد سبب إسلامه مطولا فيما أخرجه الدارقطني من طريق القاسم بن عثمان عن أنس قال **«خرج عمر متقلدا السيف، فلقيه رجل من بني زهرة ـ فذكر قصة دخول عمر على أخته وإنكاره إسلامها وإسلام زوجها سعيد بن زيد وقراءته سورة طه ورغبته في الإسلام ـ فخرج خباب فقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة رسول الله** ﷺ **لك، قال: اللهم أعز الإسلام بعمر أو بعمرو ابن هشام،** وروي أبو جعفر بن أبي شيبة نحوه في تاريخه من حديث ابن عباس، وفي آخره **«فقلت يا رسول الله ففيم الاختفاء؟ فخرجنا في صفين: أنا في أحدهما، وحمزة في الآخر، فنظرت قريش إلينا فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها،** وأخرجه البزار من طريق أسلم مولى عمر عن عمر مطولا، وروي ابن أبي خيثمة من حديث عمر نفسه قال **«لقد رأيتني وما أسلم مع رسول الله** ﷺ **إلا تسعة وثلاثون رجلا فكملتهم أربعين، فأظهر الله دينه، وأعز الإسلام»** وروي البزار نحوه من حديث ابن عباس وقال فيه «فنزل جبريل فقال: **﴿يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين﴾** وفي «فضائل الصحابة» لخيثمة من طريق أبي وائل عن ابن مسعود قال **«قال رسول الله** ﷺ **: اللهم أيد الإسلام بعمر»** ومن حديث علي مثله بلفظ **«أعز»** وفي حديث عائشة

مثله أخرجه الحاكم بإسناد صحيح، وأخرجه الترمذي من حديث ابن عمر بلفظ «**اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بأبي جهل وبعمر، قال فكان أحبهما إليه عمر**، قال الترمذي: حسن صحيح.

قلت: وصححه ابن حبان أيضا، وفي إسناده خارجة ابن عبدالله صدوق فيه مقال، لكن له شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الترمذي أيضا، ومن حديث أنس كما قدمته في القصة المطولة، ومن طريق أسلم مولى عمر عن عمر عن خباب، وله شاهد مرسل أخرجه ابن سعد من طريق سعيد بن المسيب والإسناد صحيح إليه، وروي ابن سعد أيضا من حديث صهيب قال «**لما أسلم عمر قال المشركون انتصف القوم منا**» وروي البزار والطبراني من حديث ابن عباس نحوه»**انتهى كلام الحافظ ابن حجر.**

وهذا نفسه كان حال كثير من الصحابة بعد إسلامهم، وإن أردت التفصيل فعليك بقراءة قصص إسلام عكرمة ﷺ وخالد ﷺ وسهيل ابن عمرو ﷺ وعمرو بن العاص ﷺ وغيرهم كثير..

الفرق بين الغَضَب لله تعالى وبين العُجبِ والكِبْرِ بالطاعَةِ

نقـول: فيـا من التـبس مـعك الحال مع العـاصين، فلم تفـرق بين الغـضب لله عز وجل فـيـما يفـعلون، وبين العـجب بطاعتك والكبـر عليهم، حتى ظننت أنك ناج وهم هلكي، وقطعت لنفسك بالموافاة على الإيمان، وقطعت لهم بالحسرة والخسران..

رغم أنك تجهل عـلم الله تعالى فيك وفـيهم، والله عـز وجل قد غيَّب عـنك وعنهم العاقـبة، وإنما كـان الكبر على الطائعين شـراً كله فاجتنبه المؤمنون، لما فيه من الظهور والوضوح..

أما الكبـر على العاصين، فـقد تلبس به كـثيـر من الطائعين، لما يشوبه ويختلط مـعه من توهَّم كونه غضبا لله تعـالى، ونصرةً وإعزازا للدين، ولم يدرِ هذا أنه صار بذلك على خطر عظيم..

إذ نظر إليهم بعـين الازدراء والحُقرية، يظن هلاكـهم، وأنه وحده الناجي دونهم، ولا يذكر من نفسه سالف ذنوبه، ولا يخاف بم يختم له ولهم..

وقد يجمع هذا الطائع عصيانا على عصيان، فيأنف أن يقبل الحق من غيره ممن هو بعيـد عن الإيمان، ويأنف أن يؤدي الحق إليه إن كان ذا رحم أو قرابة أو مال..

ويأنف إذا أمـره بعدم الظلم أو أمـره بالإنصاف والعـدل فيقـطعه **غضبا لله بزعمه**، رغم أن صلة الرحم الذي هو طرف فـيـها، أحـد أوكد الحـقوق التي عليـه بذلها له، وبـذلك أمره الله تعالـى ورسوله ﷺ، قال تعـالى: **﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾**[1].

---

(١) سورة محمد آية: ٢٢، ٢٣.

والذي يريد الانقطاع عن عصاة المسلمين، ومجانبة الآثمين منهم والفاسقين، إنما قطع فيهم رحم الإسلام، التي أمر الله تعالى أن توصل..

وكثير من هؤلاء أنت لا تعلم العاقبة فيك وفيهم، فقد يختم له بالإيمان ولك بالصدود والعصيان..

فأنت لا تعلم فلعله أن يموت وهو أعبد وأعلم أهل زمانه، وتموت أنت وأنت أفسق أهل زمانك، فمن ذلك الخوف، وعلى ذلك الحذر..

وأنت وإن كنت عارفا بضلالته أو كفره، أو ظلمه أو فسقه، وأن الله تعالى قد فضلك عليه بأن منَّ عليك بالإيمان، وعصمك عن الكفر والعصيان، فالحذر والخوف من جهلك بعاقبة أمرك وأمره..

فأنت لا تدري على أي حال تموت أنت وعلى أي حال يموت هو، ففي الشغل بنفسك متسع عن البُغض والكِبر على العصاة، للجهل منك بعلم الله تعالى فيك وفيهم..

بل عليك بأداء ما هو لازم في حقك، وهو بيعة نبينا ونبيك ﷺ لأصحابه، على أن يحرصوا ويشفقوا وينصحوا لكل مسلم، فلقد قال قائلهم يتحدث عن جميعهم كما ورد في الصحيح عن جرير ابن عبدالله رضي الله عنه قال: «**بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم**»(١).

فبايعوا على النصح لكل المسلمين، طائعين مؤمنين، أو عاصين معرضين، بل هؤلاء أولى وأحوج للنصح من غيرهم..

---

(١) متفق عليه.

أما الذين يظنون أنهم رافعين للواء الولاء والبراء في هذا الوقت، وأنهم المحققين لأوثق عرى الإيمان في أنفسهم، فهم وحدهم الذين يحبون في الله الطائعين، ويبغضون في الله العاصين (فحبهم لما أحب مولاهم، وبغضهم لما يبغض)، بعد أن تبرءوا ظاهرا وباطنا ممن ليس في طاعة مولاه، وأعلنوهم وأشعروهم بهذا..

فقطعوا الحبال عن حبالهم، وعادوهم وجانبوهم في حياتهم، غضبا لله تعالى، وبراءة من العصاة بزعمهم، فقد انخدع أحدهم بذلك..

وتزين له الإثم في ثوب طاعة، فيضيع الحقوق التي هي لازمة له تجاه العاصين، من الحرص والشفقة عليهم، والنصح والتوجيه لهم، ودعوتهم إلى الهداية، ودلالتهم على الإيمان، ما وجد إلى ذلك سبيلا، فيقطعهم ويبغضهم براءةً منهم إذ عصوا الإله..

فإذا جلس إليه أحدهم، أو قاربه في مكان اجتنبه، يزعم بذلك النزاهة والغضب لله عز وجل، وهو في حقيقة الحال، وفي ذات الأمر، مُعظِّم لنفسه، يأنف لمثله وهو الطائع الممتثل لأمر مولاه، أن يقترب من مثله، وهو العاصي المجانب لطاعته وتقواه..

ففي نفسه أنه خير منه، ولا يشك لحظة أنه مغضوب عليه، هالك لا محالة، أما هو فمرضيٌّ عنه، ناج لا شك في ذلك، فيجتمع عليه الكبر ونزاهة الدين..

وينخدع باسم الغضب لله عز وجل، فينغمس في التعظم والكبر وهو لا يشعر، ويزين له الشيطان البر لينغمس في الإثم، وهذا ما أرشدت إليه الآثار: «**أن عابدا كان يتعبد في جبل، فأتى في النوم فقيل له: إيت فلانا الإسكافي فاسأله أن يدعو لك، فأتاه فسأله عن عمله، فأخبره أنه يصوم النهار، ويتكسَّب فيتصدق ببعضه ويطعم عياله**

ببعضه، فرجع وهو يقول: إن هذا لحسن، فأما كالتفرغ لطاعة الله عز وجل فلا، فأتى في النوم فقيل له: إيت الإسكافي فاسأله فقل له: ما هذا الصفار في وجهك؟ فأتاه فسأله، فقال له الإسكافي: ما رُفع لي أحد من الناس إلا ظننت أنه سينجو وأهلك أنا، فقال له العابد بهذه نجوت».

قلت: وأنت وإن بلغت في عبادتك مبلغها، فلن تصل إلى منزلة الملائكة الذين هم خشوعا ركوعا منذ خلقهم الله تعالى وإلى قيام الساعة، فإن قامت قالوا سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، وقد ذكر الله تعالى عنهم في كتابه أنهم ﴿لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ﴾[1].

وروي في الآثار: «أن حكيما من الحكماء صنف ثلاثمائة وستين مصنفا في الحكمة حتى ظن أنه نال منزلة عند الله تعالى فأوحى الله إلى نبيه قل لفلان: إنك قد ملأت الأرض نفاقا وإني لا أقبل من نفاقك شيئا، قال: فتخلى وانفرد في سرب تحت الأرض وقال: قد بلغت محبة ربي فأوحى الله عز وجل إلى النبي قل له إنك لم تبلغ رضاي، قال: فدخل الأسواق وخالط العامة وجالسهم وأكل الطعام بينهم ومشى في الأسواق معهم، فأوحى الله تبارك وتعالى: الآن حين بلغت رضاي».

قلت: وقد كان هذا وصف سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم في نظر المنكرين المتكبرين ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾[2] استكبارا منهم عن الاختلاط بالعامة، وتعظما وصوله في أنفسهم على سائر الناس، وقد قال الله تبارك وتعالى:

---

(١) سورة الأنبياء آية: ١٩، ٢٠.

(٢) سورة الفرقان آية: ٧.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾[1] **قال القاضي عياض في الكلام على هذه الآية في الشفا ج٢ ص٧**: (قال محمد بن علي الترمذي الأسوة في الرسول الاقتداء به والاتباع لسنته وترك مخالفته في قول أو فعل وقال غير واحد من المفسرين بمعناه وقيل هو عتاب للمتخلفين عنه)انتهى.

وقال الله عز وجل: **﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾**[2] **قال العلماء**: «أي يصونوا أنفسهم عما ارتضى النبي ﷺ لنفسه»، لأن نفسه الزكية أعز نفس عند الله تعالى فإذا تعرضت مع كرامتها للخوض في أمر أو شدة، وجب على سائر الأنفس أن لا يضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، يقال رغبت بنفسي عن هذا الأمر: أي أبخل بها عليه ولا أتركها له..

فارتضى النبي ﷺ لنفسه السير في الأسواق ودعوة الناس فيها، وأن يعرض عليهم الإيمان في منتدياتهم ومجامعهم، وأن يسير على قدميه المسافات الطويلة في الطائف وغيرها، حرصًا ونصحًا للناس، فهل نفوسنا الآن مصانة عما ارتضاه النبي ﷺ لنفسه الزكية؟

وهل هي على هدي النبوة في ذلك؟، وهل ترضى نفوسنا ببعض هذه الأشياء التي ارتضاها لنفسه خير البرية ﷺ؟، فلا تأنف ولا تتعالى ولا تتعظم على هذه الوظيفة، وتلك المسئولية..

وإذا كانت نفوسنا على عكس هدي النبوة في ذلك، وبها من الأنفة والتعالي ما لا يُمكِّنها أن تفعل هذا، فتسير في الأسواق والمنتديات والمجامع، لا لبيع أو شراء، ولا للنزهة أو الترفه!..

بل كما كان يفعل النبي ﷺ حتى يعرض الإيمان على الناس البعيدين عنه والمنكرين له، فإذا لم تفعل نفوسنا ذلك، وتركت ما هنالك

(١) سورة الأحزاب آية: ٢١.

(٢) سورة التوبة آية: ١٢٠.

أفلا يحسن بهـذه النفوس أن تُزكي من قام مكانها بهـذه الوظيفة، ومن أحـيـا فـي الأمـة هذه السنة، سنة الـتـجـوال على النـاس في المجـامع والطرقات والأسواق، وجمعهم في المساجد..

ودعوتهم للامـتثال الكامل بأمر الله تعـالى وأمر رسوله ﷺ، وترغـيـبهم فـي الإيمان والدار الآخرة، وحـثـهم على السـعي نحـو الموعود، وتعظيم ما لا يُدرَك على ما يُدرَك وما لا يُرى على ما يُرى، وما لا يُحس على ما يُحس..

وأن يتقوى فـيهم الاعتماد علـى قوة الخبر لا قوة البـصر، والعمل على نشر الهداية والإيمان في كل أنحاء المعمورة..

وقد كـان هذا من هدي النبي ﷺ أنه يجمع المسلمين ليخـبرهم بما يهـمـهم، وليـحثـهم على الإيمان والتـقـوى، ويحـذرهم من الفتن والشرور عند تتابعها وشدتها..

وسنته ﷺ في ذلك ثابتة في صحيح مـسلم عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قـال: كنا مع رسـول الله ﷺ في سـفـر فنزلنـا منزلا، فـمنَّا من يصلح خباءه، ومنَّا من ينتضل، ومنَّا من هو في جَشَره، إذ نادى مُنادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعة. فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمـته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شـر ما يعلمـه لهم، وإن أمتكم هذه جـعل عافـيتـها في أولها، وسيصيب آخرها بلاءٌ وأمـور تنكرونها، وتجيءُ فتن يرقق بعضها بعضا، وتجيءُ الـفتنة فيقول المؤمـن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه هذه! فمن أحب أن يُزحزح عن النار، ويدخل الجنة فلتأته منيّتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي

يحب أن يؤتى إليه. ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر»[1]. رواه مسلم.

«قال الإمام النووي قوله: «ينتضل»: أي يسابق بالرمي بالنبل والنشاب. «والجَشَر» بفتح الجيم والشين المعجمة وبالراء، وهي الدواب التي ترعى وتبيت مكانها.

وقوله: «يرقق بعضها بعضًا»: أي يصيِّر بعضها بعضًا رقيقًا: أي خفيفًا لعظم ما بعده، فالثاني يرقق الأول. وقيل: معناه يشوِّق بعضها إلى بعض بتحسينها وتسويلها، وقيل: يشبه بعضها بعضًا»انتهى.

أقول: ومن بعض إفادات هذا الحديث في نزهة المتقين شرح رياض الصالحين ج١ ص٤٧٧:

«★ استحباب جمع الناس من أجل إخبارهم ما يهمهم.

★ الحث على التزام الإيمان، وسلوك سبل الهداية، والمعاملة الحسنة والخلق الطيب، وأن ذلك يقيه شر الفتن والوقوع في جهنم»انتهى.

قلت: وهذا الاستحباب في جمع الناس من أجل إخبارهم بما يهمهم، سواءً عن طريق الإمام وولي الأمر بندائه الصلاة جامعة، أو عن طريق عامة الأمة بأي وسيلة أخرى من وسائل جمع الناس، كالدعوة كتابة إلى لقاء عام بالمسجد، أو بالمرور والتجول على المسلمين في أسواقهم ومجامعهم..

هذا الاستحباب قد يكون هو ما اختاره أهل الدعوة أساسا، لأصل ما يقومون به من الجولات التي يسيرون بها في الطرقات، لجمع الناس في المساجد على الصلوات: «لإخبارهم بما يهمهم وحثهم على التزام

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإمارة «باب وجوب الوفاء ببيعة الخليفة الأول فالأول».

الإيمان، وسلوك سبل الهداية، والمعاملة الحسنة والخلق الطيب، وأن ذلك يقيهم شر الفتن والوقوع في جهنم»، وهذه نفسها هي بعض إفادات الحديث السابق كما وردت في نزهة المتقين شرح رياض الصالحين..

ولا يختلف اثنان ولا يتردد منصف، أن كل ما سبق هو محصلة ما يقومون به في هذه الجولات، لتحصيل هذه الصفات الإيمانية في الأمة، والتي بتحصيلها يسهل عليها السير على كل أوامر الدين..

نسأل الله تعالى أن يرزقنا التواضع في أنفسنا، وحسن القصد في نياتنا، وسنة النبي ﷺ في أقوالنا وأفعالنا وظواهرنا وبواطننا، إنه تعالى خير مسئول ومأمول، وأقرب مجيب وخير حسيب..

في بغض الفاسق والمبتدع مع التواضع لهما وكيف الجمع بينهما على ما فيهما من تناقض

أورد الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء ج٣ ص٣٥٤ مبحث عظيم في «بغض الفاسق والمبتدع مع التواضع لهما وكيف الجمع بينهما على ما فيهما من تناقض».

قال رحمه الله تعالى: «فإن قلت فكيف يتواضع للفاسق المتظاهر بالفسق وللمبتدع وكيف يرى نفسه دونهم وهو عالم عابد وكيف يجهل فضل العلم والعبادة عند الله تعالى وكيف يغنيه أن يخطر بباله خطر العلم وهو يعلم أن خطر الفاسق والمبتدع أكثر.

فاعلم أن ذلك إنما يمكن بالتفكر في خطر الخاتمة بل لو نظر إلى كافر لم يمكنه أن يتكبر عليه إذ يتصور أن يسلم الكافر فيختم له بالإيمان ويضل هذا العالم فيختم له بالكفر والكبير من هو كبير عند الله في الآخرة والكلب والخنزير أعلى رتبة ممن هو عند الله من أهل النار وهو لا يدري ذلك فكم من مسلم نظر إلى عمر ﷺ قبل إسلامه فاستحقره وازدراه لكفره وقد رزقه الله الإسلام وفاق جميع المسلمين إلا أبا بكر وحده فالعواقب مطوية عن العباد ولا ينظر العاقل إلا إلى العاقبة وجميع الفضائل في الدنيا تراد للعاقبة فإذن من حق العبد أن لا يتكبر على أحد بل إن نظر إلى جاهل قال: هذا عصى الله بجهله وأنا عصيته بعلم فهو أعذر مني، وإن نظر إلى عالم قال: هذا قد علم ما لم أعلم فكيف أكون مثله، وإن نظر إلى كبير هو أكبر منه سنا قال: هذا قد أطاع الله قبلي فلن أكون مثله، وإن نظر إلى صغير قال: إني عصيت الله قبله فكيف أكون مثله وإن نظر إلى مبتدع أو كافر قال: ما يدريني لعله يختم له بالإسلام ويختم لي بما هو عليه الآن فليس دوام الهداية إليّ كما لم يكن ابتداؤها إليّ، **فبملاحظة الخاتمة يقدر على أن ينفي الكبر عن نفسه وكل ذلك بأن يعلم أن الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله لا فيما يظهر في الدنيا مما لا بقاء له**، ولعمري هذا الخطر مشترك بين المتكبر والمتكبر عليه ولكن

حق على كل واحد أن يكون مصروف الهمة إلى نفسه مشغول القلب بخوفه بعاقبته لا أن يشتغل بخوف غيره فإن الشفيق بسوء الظن مولع وشفقة كل إنسان على نفسه فإذا حبس جماعة في جناية ووعدوا بأن تضرب رقابهم لم يتفرغوا لتكبر بعضهم على بعض وإن عمهم الخطر إذ شغل كل واحد همّ نفسه عن الالتفات إلى همّ غيره حتى كأن كل واحد هو وحده في مصيبته وخطره. فإن قلت فكيف أبغض المبتدع في الله وأبغض الفاسق وقد أمرت ببغضهما ثم مع ذلك أتواضع لهما والجمع بينهما متناقض؟!!.

فاعلم أن هذا أمر مشتبه يلتبس على أكثر الخلق إذ يمتزج غضبك لله في إنكار البدعة والفسق بكبر النفس والإدلال بالعلم والورع فكم من عابد جاهل وعالم مغرور إذا رأى فاسقًا جلس بجنبه أزعجه من عنده وتنزه عنه بكبر باطن في نفسه وهو ظان أنه قد غضب لله كما وقع لعابد بني إسرائيل مع خليعهم[1] وذلك لأن الكبر على المطيع ظاهر كونه شرًا والحذر منه ممكن، والكبر على الفاسق والمبتدع يشبه الغضب لله وهو خير فإن الغضبان أيضًا يتكبر على من غضب عليه والمتكبر يغضب وأحدهما يثمر الآخر ويوجبه وهما ممتزجان ملتبسان لا يميز بينهما إلا الموفقون، والذي يخلصك من هذا أن يكون الحاضرُ

---

(١) روي عن الشعبي، وروي أيضًا عن أبي الجلد بن أيوب: أن رجلا من بني إسرائيل كان يقال له خليع بني إسرائيل، فمر الخليع بالعابد وعلى رأسه غمامة تظلله فقال الخليع في نفسه: أنا خليع بني إسرائيل، وهذا عابد بني إسرائيل، فلو جلست إليه لعل الله أن يرحمني به، فجلس إليه، فقال العابد في نفسه: أنا عابد بني إسرائيل، وهذا خليع بني إسرائيل، يجلس إلي؟ فأنف منه وقال له: «قم عنّي». فأوحى الله عز وجل إلى نبي ذلك الزمان: «مرُهما فليستأنفا العمل، فقد غفرتُ للخليع، وأحبطت عمل العابد». وفي رواية: فتحولت الغمامة على رأس الخليع.

على قلبك عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو **عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر ثلاثة أمور:**

أحدهما: التفاتك إلى ما سبق من ذنوبك وخطاياك ليصغر عند ذلك قدرك في عينك.

والثاني: أن تكون ملاحظتك لما أنت متميز به من العلم واعتقاد الحق والعمل الصالح من حيث إنها نعمة من الله تعالى عليك فله المنة فيه لا لك فترى ذلك منه حتى لا تعجب بنفسك وإذا لم تعجب لم تتكبر.

والثالث: ملاحظة إبهام عاقبتك، وعاقبته أنه ربما يختم لك بالسوء ويختم له بالحسنى حتى يشغلك الخوف عن التكبر عليه.

فإن قلت: فكيف أغضب مع هذه الأحوال؟ **فأقول:** تغضب لمولاك وسيدك إذا أمرك أن تغضب له لا لنفسك وأنت في غضبك لا ترى نفسك ناجيًا وصاحبك هالكًا بل لا يكون خوفك على نفسك بما علم الله من خفايا ذنوبك أكثر من خوفك عليه من الجهل بالخاتمة، وأعرفك ذلك بمثال لتعلم أنه ليس من ضرورة الغضب أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره.

فأقول: إذا كان للملك غلام وولد هو قرة عينه وقد وكل الغلام بالولد ليراقبه وأمره أن يضربه مهما أساء أدبه واشتغل بما لا يليق به ويغضب عليه فإن كان الغلام محبًا مطيعًا لمولاه فلا يجد بدا أن يغضب مهما رأى ولده قد أساء الأدب وإنما يغضب عليه لمولاه ولأنه أمره به ولأنه يريد التقرب بامتثال أمره إليه ولأنه جرى من ولده ما يكره مولاه فيضرب ولده ويغضب عليه من غير تكبر عليه بل هو متواضع له يرى قدره عند مولاه فوق قدر نفسه لأن الولد أعز لا محالة من الغلام، فإذن ليس من ضرورة الغضب الكبر وعدم

التواضع فكذلك يمكنك أن تنظر إلى المبتدع والفاسق وتظن أنه ربما كان قدرهما في الآخرة عند الله أعظم لما سبق لهما من الحسنى في الأزل ولما سبق لك من سوء القضاء في الأزل وأنت غافل عنه، ومع ذلك فتغضب بحكم الأمر محبة لمولاك إذ جرى ما يكرهه مع التواضع لمن يجوز أن يكون عنده أقرب منك في الآخرة، فهكذا يكون بغض العلماء الأكياس فينضم إليه الخوف والتواضع. وأما المغرور فإنه يتكبر ويرجو لنفسه أكثر مما يرجوه لغيره مع جهله بالعاقبة، وذلك غاية الغرور فهذا سبيل التواضع لمن عصى الله أو اعتقد البدعة مع الغضب عليه ومجانبته بحكم الأمر» انتهى كلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى.

ما ينبغي أن يتَّصف به
الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر

وهذه ردود **الإمام أحمد - رحمه الله - في الأمر بالمعروف بمعروف** وعدم الانتصار للنفس والتعظم على العاصين كما أورد ذلك **الإمام ابن مفلح الحنبلي - رحمه الله - في الآداب الشرعية ج١ ص١٤٩** قال: «ونقل يعقوب أنه سئل عن الأمر بالمعروف قال: **كان أصحاب عبدالله ابن مسعود يقولون: مهلا رحمكم الله.**

ونقل مهنا: «ينبغي أن يأمر بالرفق والخضوع، قلت: كيف؟ قال: أن أسمعوه ما يكره **لا يغضب فيريد أن ينتصر لنفسه**».

وسأله أبو طالب: إذا أمرته بمعروف فلم ينته؟ **قال: دعه إن زدت عليه ذهب الأمر بالمعروف وصرت منتصرا لنفسك فتخرج إلى الإثم، فإذا أمرت بالمعروف فإن قبل منك وإلا فدعه.**

وقال أبو بكر الخلال: أخبرني الميموني حدثنا ابن حنبل حدثنا معمر بن سليمان عن فرات بن سلمان عن ميمون بن مهران أن **عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز قال له:** «يا أبت ما يمنعك أن تمضي لما تريده من العدل فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك؟ **قال: يا بني، إني إنما أروض الناس رياضة الصعب، إني أريد أن أحيي الأمر من العدل فأؤخر ذلك حتى أخرج منه طمعا من طمع الدنيا فينفروا لهذه ويسكنوا لهذه»انتهى.**

وقال حماد بن سلمة: «إن صلة بن أشيم مرّ عليه رجل قد أسبل إزاره فهمّ أصحابه أن يأخذوه بشدّة، فقال: دعوني أنا أكفيكم. **فقال: يا ابن أخي إن لي إليك حاجة.** قال: وما حاجتك يا عم؟ قال: أحب أن ترفع من إزارك. فقال: نعم وكرامة، فرفع إزاره. **فقال لأصحابه: لو أخذتموه بشدة لقال لا ولا كرامة وشتمكم»**.

وقال الإمام ابن الجوزي رحمه الله في صفوة الصفوة ج٢ ص٣٢١:

عن إبراهيم الأطرش قال: «كان معروف الكرخي قاعداً على دجلةَ ببغداد إذْ مرّ بنا أحداث في زورقٍ يضربون الملاهي ويشربون. فقال له أصحابه: أما ترى أن هؤلاء في هذا الماء يعصون الله؟ ادْعُ عليهم فرفع يده إلى السماء وقال: **إلهي وسيّدي، أسألك أن تُفَرّحهم في الجنة كما فرّحتهم في الدنيا.** فقال له أصحابه: إنما قلنا لك ادْعُ الله عليهم، لم نقُل لك ادْعُ الله لهم. **فقال: إذا فرّحهم في الآخرة تابَ عليهم في الدنيا ولم يضرّكم بشيء» انتهى.**

وقال محمد بن زكريا الغلابي: شهدت عبدالله بن محمد بن عائشة ليلة وقد خرج من المسجد بعد المغرب يريد منزله وإذا في طريقه غلامٌ من قريش سكران وقد قبض على امرأة فجذبها فاستغاثت فاجتمع الناس يضربونه فنظر إليه ابن عائشة فعرفه فقال للناس: تنحوا عن ابن أخي، ثم قال: إليَّ يا ابن أخي، فاستحى الغلام، فجاء إليه فضمه إلى نفسه، ثم قال له: امض معي، فمضى معه حتى صار إلى منزله فأدخله الدار وقال لبعض غلمانه: بيّته عندك فإذا أفاق من سكره فأعلمه بما كان منه ولا تدعه ينصرف حتى تأتيني به، فلما أفاق ذكر له ما جرى فاستحيا منه وبكى وهمّ بالانصراف فقال الغلام: قد أمر أن تأتيه فأدخله عليه، **فقال له: أما استحييت لنفسك، أما استحييت لشرفك، أما ترى من ولدك؟ فاتق الله وانزع عما أنت فيه، فبكى الغلام منكسا رأسه ثم رفع رأسه وقال: عاهدت الله تعالى عهدا يسألني عنه يوم القيامة أني لا أعود لشرب النبيذ ولا لشيء مما كنت فيه وأنا تائب، فقال: ادن مني فقبل رأسه وقال: أحسنت يا بني،** فكان الغلام بعد ذلك يلزمه ويكتب عنه الحديث وكان ذلك ببركة رفقه ثم قال: **إن الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويكون معروفهم منكرا فعليكم بالرفق في جميع أموركم تنالون به ما تطلبون» انتهى.**

وأخرج أبو الشيخ عن السدي قال: خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإذا هو بضوء نار ومعه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه فأتبع الضوء حتى دخل دارا فإذا بسراج في بيت، فدخل وذلك في جوف الليل فإذا شيخ جالس وبين يديه شراب وقينة تغنيه فلم يشعر حتى هجم عليه عمر، فقال عمر: ما رأيت كالليلة منظرا أقبح من شيخ ينتظر أجله فرفع رأسه إليه: فقال: بلى يا أمير المؤمنين! ما صنعت أنت أقبح، تجسّست وقد نهى عن التجسس، ودخلت بغير إذن؟ **فقال عمر: صدقت. ثم خرج عاضا على ثوبه يبكي وقال: ثكلت عمر أمه إن لم يغفر له ربه يجد هذا كان يستخفى به من أهله، فيقول: الآن رآني عمر فيتتابع فيه** وهجر الشيخ مجلس عمر حينا. فبينا عمر بعد ذلك جالس إذ به قد جاء شبه المستخفي حتى جلس في أخريات الناس فرآه عمر: فقال: عليَّ بهذا الشيخ فأتي، فقيل له: أجب! فقال وهو يرى أن عمر سيسوءه بما رأى منه، فقال عمر: ادن مني! فما زال يدنيه حتى أجلسه بجنبه فقال: ادن مني أذنك! فالتقم أذنه فقال: **أما والذي بعث محمدا بالحق رسولا! ما أخبرت أحدًا من الناس بما رأيت منك ولا ابن مسعود فإنه كان معي، فقال يا أمير المؤمنين ادن مني أذنك! فالتقم أذنه فقال: ولا أنا والذي بعث محمدا بالحق رسولا! ما عدت إليه حتى جلست مجلسي هذا، فرفع عمر صوته يكبر فما يدري الناس من أي شيء يكبر. كذا في الكنز ج٢ ص١٤١**.

قلت: ولهذا الباب وهو ما يتصف به الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، وأصول وأحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما يتعلق بهما بحث واسع مستقل نبسطه في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

الكافر ضربان: كافر يُعاقَب

لا محالة على التحقيق

وكافر لا يُعاقَب

لقد كان الحرص من الأنبياء صلوات الله وتسليماته عليهم، العام الشامل لكل مخالفات من أرسلوا إليه سـواء كانوا كافرين أو فاسقين أو ظالمين، لكون أن عاقبة الأمور في الإيمان والكفر، غيَّبها الله تعالى عن خلقه، وأمر السابقـة لكلٍ أحد بالكفر أو بالإيمان إنما هي بيد الله تعـالى وحده، والخـواتيم قدَّرها الله تـعالى ولم يخـبر الناس بهـا، **فحرص الأنبيـاء وطلبوا النفع لكل أحد، كافرا كـان أو ظالما أو فاسقا، وأحبوا الهداية للناس..**

وسار أهل السنة والجماعة على أصـول منهج النبوة في ذلك، فقرر أئمتهم أن المؤمن ضربان: (أحدهما) مؤمن يحبه الله ويواليه.

(والثاني) مؤمن لا يحبه الله ولا يواليه، بل يبغضه ويعاديه، مع أنه في ظاهر حاله على ملامح الإيمان، وصورة الإسلام..

فكل من علم الله تـعالى في سـابق التـقـدير أنه يوافي بالإيمان، ويختم له بالتقوى والإحسان، فالله تعالى مُحِبٌّ له، موالٍ له، راض عنه..

وكل من علم الله تعـالى في سابـق الـتقدير أنه يوافـي بالكـفر والعصيان، فالله تعالى مُبـغض له، ساخط عليه، معاد له، لا لأجل إيمانه الآن، ولكن لكفره وضـلاله الذي يُوافَي به، ويُلاقَي الله عليه، ويقابله به..

والكافر ضربان: (أحدهما) كافر يُعاقب لا محالة على التحقيق.

(والثاني) كافـر لا يعاقب، فالكافـر الذي يعاقب هو الذي يوافي بالكفر، ويُختم له بالعصيان، ويلقى الله مجرما، ويرجع إليه بالآثام، فالله تعـالى ساخط على هذا، معـاد له، قال السحرة بعـد أن ذاقوا الإيمان: **﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾**[1].

---

(١) سورة طه آية: ٧٤، ٧٥، ٧٦.

فأشـاروا إلى الخواتيم ورغبـوا في الموافاة على الإيمان حيث إنها الشأن، وعليها مدار الأمر. .

أما الكافر الذي لا يُعاقب فـهو الموافي بالإيمان والملاقي ربه بالطاعة والإحسان..

فاللـه تعالى غيـر ساخط على هذا الـكافر، ولا مبـغض له، بل محب له، موالٍ إيّاه، لا لكفـره المقيم عليه، ولكن لإيمانه الموافي به، وحسن الخاتمة التي يلقى الله عليها. .

لذلك لم ييـأس الرسل من أحد أن يبلغـوه رسالة ربهـم، وكان منهم الحرص والشفقة على أن يؤمن كل أحد. .

فحرصوا على الكفار، وألحُّوا عليهم بالهداية، فكان أن أنجح الله سعـيهم، وبارك جـهدهم، وأخرجـوا الناس بحسن قـصدهم، ونور بصيرتهم، وصفاء نياتهم، من الظلمات إلى النور. .

وكان أن آمن أمـثال السحرة في لحظة، وكـان أن أضاءت الأرض بركب الإيمان، أتباع كل نبي من الأنبـياء في كل عصر من الـعصور، وكانوا قبل ذلك ضالين، أو ظالمين فاسقين. .

قال الإمـام القرطبي في تفـسيره ج١ص١٦٨ ـ ١٦٩: قـوله تعالى ﴿ومن الناس من يقول آمنا﴾ فيه سبع مسائل:

(**الرابعة:** قال علماؤنا رحـمة الله عليهم: **المؤمن ضربان: مؤمن يحبـه الله ويواليه، ومؤمن لا يحبـه الله ولا يواليه، بل يبغضـه ويعاديه،** فكل من علم الله أنه يوافي بالإيمان، فالله محب له، موالٍ له، راضٍ عنه وكل من علم الله أنـه يوافي بالكفر، فـالله مـبغض له، سـاخط عليه، مـعادٍ له لا لأجل إيمانه ولكن لكفره وضـلاله الذي يوافي به،

والكافر ضربان: **كافر يُعاقب لا محالة، وكافر لا يُعاقب**؛ فالذي يُعاقب هو الذي يُوافي بالكفر، فالله ساخط عليه معاد له، والذي لا يُعاقب هو الموافي بالإيمان، فالله غير ساخط على هذا، ولا باغض له، بل محب له، موالٍ، لا لكفره لكن لإيمانه الموافي به، فلا يجوز أن يطلق القول وهي:

الخامسة: بأن المؤمن يستحق الثواب، والكافر يستحق العقاب، بل يجب تقييده بالموافاة، ولأجل هذا قلنا إن الله راض عن عمر في الوقت الذي كان يعبد الأصنام، ومريد لثوابه ودخوله الجنة، لا لعبادته الصنم، لكن لإيمانه الموافي به، وإن الله تعالى ساخط على إبليس في حال عبادته لكفره الموافي به.

وخالفت القدرية في هذا وقالت: إن الله لم يكن ساخطًا على إبليس وقت عبادته ولا راضيًا عن عمر وقت عبادته للصنم، وهذا فاسد لما ثبت أن الله سبحانه عالم بما يوافي به إبليس لعنه الله، وبما يوافي به عمر رضي الله عنه فيما لم يزل، فثبت أنه كان ساخطًا على إبليس محبّاً لعمر، ويدل عليه **إجماع الأمة على أن الله سبحانه وتعالى غير محب لمن علم أنه من أهل النار، بل هو ساخط عليه، وأنه محب لمن علم أنه من أهل الجنة؟** وقد قال رسول الله ﷺ: «**وإنما الأعمال بالخواتيم**»[1] **ولهذا قال علماء الصوفية: ليس الإيمان ما يتزين به العبد قولاً وفعلاً؛ لكن الإيمان جرى السعادة في سوابق الأزل؛ وأما ظهوره على الهياكل فربما يكون عاريا، وربما يكون حقيقة. قلت «أي الإمام القرطبي»: هذا ثبت في صحيح مسلم وغيره، عن عبدالله بن مسعود قال حدثنا**

---

(١) رواه البخاري كتاب في القدر باب العمل بالخواتيم ج٨ ص١٥٥، ورواه الإمام أحمد في المسند ج٥ ص٣٣٥، كنز العمال باب الإيمان بالقدر ج١ ص١٢٥، ح رقم٥٩٠.

رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل أهل الجنة فيدخلها»[1] انتهى كلام الإمام القرطبي.

---

(١) رواه الإمام مسلم في الصحيح، ورواه الإمام أحمد في المسند ج١ ص٤١٤، وفي سنن ابن ماجة باب القدر ج١ ح٧٦.

البراءة في منهج الأنبياء والدعوة

من العصاة نَوْعا لا عَيْنا

وحُرمة لعن العصاة المعينين

أخرج الإمام البخاري رحمه الله تعالى عن زيد بن أسلم عن أبيه «عن عمر بن الخطاب ﵁ أن رجلاً كان عهد على النبي ﷺ كان اسمه عبدالله وكان يُلقبُ حماراً وكان يُضحكُ رسولَ الله ﷺ، وكان النبيُّ ﷺ قد جَلَدهُ في الشَراب، فأُوتيَ به يومًا فأمَر به فجُلدَ، فقال رجلٌ منَ القوم: اللهمَّ العنهُ، ما أكثرَ ما يؤتى به! فقال النبيُّ ﷺ: لا تلعَنوهُ، فوالله ما علمتُ أنه يحبُّ الله ورسوله»[1].

قلت: فغضب النبي ﷺ على من سوّى بين المعصية وصاحبها، وبين النوع والمعين، فقد لعن النبي ﷺ في الخمر أصنافًا، عاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وشاربها وساقيها وبائعها ومشتريها وآكل ثمنها، كل هذا يلعن النوع لا المعين، فلعن شارب الخمر نوعا، ولكن فلان يشرب الخمر هل نلعنه؟..

هذا الذي غضب منه النبي ﷺ، وغضب على من فعله، وقال له: لا تلعنه فإنه ما فتئ يحب الله ورسوله ﷺ، ولو طبقنا أحكام النوع على المعينين فلن يسلم لنا مجتمع، بل لابد في ذلك من وجود الشروط وانتفاء الموانع.

فالبراءة في منهج الأنبياء والدعوة **من العصاة غير المعينين**، وهذا ما كان عليه كل الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم، حيث يتبرءون من العصاة **نوعا لا عينا**..

وهذا الذي عليه منهج النبوة والدعوة والرسالة، فقد لعن الله تعالى في كتابه الظالمين نوعا لا عينا، فقال تعالى: **﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾**[2] ولكن فلان المعين الظالم أو الكافر هل نلعنه؟،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سورة هود آية: ١٨.

لم يفعل الأنبياء ذلك بل حرصوا عليهم ونصحوهم ودعوا لهم، كذلك السنة فقد أورد شيخ الإسلام الإمام النووي رحمه الله تعالى ترجمة في رياض الصالحين تؤكد هذا المعنى وتوضحه، وتقرر هذا الحكم وتؤكده . .

وهو قوله رحمه الله تعالى: «باب جواز لعن أصحاب المعاصي غير المعينين» فقرر عن طريق المفهوم عدم جواز لعن أصحاب المعاصي المعينين، وذهب إلى تحريم ذلك بطريق المنطوق وذلك في باب **«تحريم لعن إنسان بعينه أو دابته» من كتابه رياض الصالحين.**

وأورد في الترجمة الأولى **«باب جواز لعن أصحاب المعاصي غير المعينين»** الآيات في ذلك وهو قوله تعالى: **﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾** وقوله تعالى: **﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾**[1] فلعن الله تعالى الظالمين نوعا لاعينا، وكذلك كان منهج النبوة والدعوة . .

كما أورد الإمام النووي رحمه الله تعالى أيضا أحاديث النبي ﷺ في لعن العصاة غير المعينين فقال رحمه الله تعالى: «وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: **لعن الله الواصلة والمستوصلة، وأنه لعن آكل الربا، وأنه لعن المصورين وأنه قال: لعن الله من غيّر منار الأرض أي حدودها وأنه قال: لعن اللهالسارق يسرق البيضة، وأنه قال: لعن الله من لعن والديه، ولعن الله من ذبح لغير الله، وأنه قال: من أحدث فيها حدثا أو أوى مُحدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وأنه قال: اللهم العن رِعلا وذكوان وعُصيَّة عَصُوا الله ورسوله، وهذه ثلاث قبائل من العَرب، وأنه قال: لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وأنه لعن المتشبهين من النساء بالرجال، وجميع هذه الألفاظ في الصحيح، وبعضها في صحيحي البخاري ومسلم وبعضها في أحدهما» انتهى.**

---

(١) سورة الأعراف آية: ٤٤.

قلت: فبينت الأحاديث السابقة التي أوردها الإمام النووي رحمه الله تعالى تحت ترجمته «باب جواز لعن أصحاب المعاصي غير المعينين» منهج النبوة والسنة والدعوة في ذلك، وهو لعن العصاة نوعا لا عينا، أي لعن الظالمين لا الظالم، والفاسقين لا الفاسق..

وإذا ما ثبت على أحد عصاة المسلمين ذنب من الذنوب التي ورد فيها اللعن من النبي ﷺ، فلا يواجه هذا العاصي بمقتضى الحديث وهو اللعن والدعاء عليه، بل نهى النبي ﷺ أحد الصحابة لما فعل ذلك في قصة شارب الخمر، عندما قال له: لعنه الله ما أكثر ما يُؤتي به، وغضب على من قال له: «أخزاك الله» وقال ﷺ: لا تُعينوا عليه الشيطان، بل رغَّب في الدعاء له بالمغفرة والتوبة..

وذلك للفرق بين النوع والمعَيّن، فنقول لعنة الله تعالى على شارب الخمر، ولكن فلان المعين الذي يشرب الخمر هل نلعنه؟، أو نقول: لعنة الله تعالى عليه؟ هذا الذي منعه النبي ﷺ، بل حَرَّم أئمةُ أهل السنة والجماعة فعل ذلك..

حتى عندما أفرط الكفار في ردهم للرسالة، وجحدهم النبوة، وقتلوا الدعاة إليهم، وذلك في حادثة بئر معونة، وحزن النبي ﷺ عليهم حزنا شديدا، وظل يدعو عليهم شهرا كاملا، يقول اللهم العن فلانا وفلان، وكان يقنت في صلاة الفجر يدعو عليهم، أنزل الله تعالى عليه قوله سبحانه ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾[1] فترك النبي ﷺ الدعاء عليهم، وتاب الله عليهم جميعا..

---

(1) سورة آل عمران آية: ١٢٨.

وهو ما رواه الإمام البخاري من طريق الزهري قال حدثنا سالم عن أبيه «**أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الآخرة من الفجر يقول: اللهم العن فلانا وفلانا وفلانا بعد ما يقول: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد. فأنزل الله ﴿ليس لك من الأمر شيء - إلى قوله - فإنهم ظالمون﴾**»[1].

قال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر في ج٨ص٧٤ من الفتح: قوله (فلانا وفلانا وفلانا) تقدمت تسميتهم في غزوة أُحُد من رواية مرسلة أوردها المصنف عقب هذا الحديث بعينه عن حنظلة بن أبي سفيان عن سالم بن عبدالله بن عمر **قال: «كان رسول الله ﷺ يدعو على صفوان بن أمية» وسهيل بن عمير والحارث بن هشام، فنزلت»** وأخرج أحمد والترمذي هذا الحديث موصولا من رواية عمرو بن حمزة عن سالم عن أبيه فسماهم وزاد في آخر الحديث «**فتيب عليهم كلهم**»[2] وأشار بذلك إلى قوله في بقية الآية: **﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾** ولأحمد أيضا من طريق محمد بن عجلان عن نافع عن ابن عمر: كان رسول الله ﷺ يدعو على أربعة، فنزلت قال: **وهداهم الله للإسلام**» وكان الرابع عمرو بن العاص، فقد عزاه السهيلي لرواية الترمذي لكن لم أره فيه. والله أعلم»انتهى.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري (كتاب التفسير) باب «ليس لك من الأمر شيء» ج٢ ص٤٧، ورواه الإمام النسائي (باب لعن المنافقين في القنوت) ج٢ ص٢٠٣، ورواه الإمام أحمد في المسند ج٢ ص٢٥٥، ورواه الإمام البيهقي في السنن (كتاب الصلاة) «باب القنوت في الصلوات عند نزول نازلة» ج٢ ص١٩٧، ١٩٨.

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند ج٢ ص٩٣.

أقول: فـإلى هؤلاء الذين يُؤَجِّجُون الأوقـات دعوة على غـيـر الطائعـين، ويحـسبون أنها نصرة للدين، كيف بكم أمام هذا الذي رواه الإمام البخاري، من دعاء النبي ﷺ على الذين قتلوا القراء، ثم نهى الله تعالى له عن ذلك وإنزاله قرآنا في هذا، وهو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

فنقول لكم: الله تعالى ينهى نبـيه عن الدعاء عـلى الكفار الذين قـتلوا الأبرار من المؤمنين، والقـراء من المسلمين، وأنتم تدعـون على عصـاة المسلمين، المعيَّنين منهم، فضـلا عن غير المعينين من الفـاسقين والظالمين!!..

قال العلامة الإمام القرطبي في تفسيره ج٣ ص١٤٤١:

«ثبت في صحيح مسلم أن النبي ﷺ كُسـرت رباعيته يوم أحد، وشُجَّ في رأسه، فجعل يَسْلُت الدم عنه ويقـول: كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيـهم وكسـروا رباعيـته وهو يدعـوهم إلى الله تعالى» فـأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾[1]. الضحـاك: هَمّ النبي ﷺ أن يدعو عـلى المشركين فأنزل الله تـعالى: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾** وقيل: استأذن في أن يدعو إلى استئصالهم، فلما نزلت هذه الآية علم أن منهم من سيـسلم وقد آمن كثيـر منهم خالد بن الوليد وعـمرو بن العاص وعكرمة بن أبي جهل وغيرهم». وروي الترمذي عن ابن عمر قال: وكـان النبي ﷺ يدعو على أربعـة نفر فـأنزل **الله** عز وجل: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فهـداهم الله للإسلام.** وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح» انتهى كلام الإمام القرطبي.

---

(١) رواه الإمام مسلم في الصحيح (كتاب الجهاد والسير) «باب غزوة أحد».

وقال الإمام القرطبي رحمه الله في ج٣ ص١٤٤١ قال علماؤنا: قوله عليه السلام: «كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم» استبعاد لتوفيق من فعل ذلك به. وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ تقريب لما استبعده وإطماع في إسلامهم، ولما أطمع في ذلك قال ﷺ: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» كما في صحيح مسلم عن ابن مسعود **قال: كأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي نبيا من الأنبياء ضربه قومه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»**[1].

قال علماؤنا: فالحاكي في حديث ابن مسعود هو الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو المحكي عنه، بدليل ما قد جاء صريحًا مُبيَّنًا أنه عليه الصلاة والسلام لما كُسرت رباعيته وشُجَّ وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه شقًّا شديدًا وقالوا: لو دعوت عليهم! فقال: **«إني لم أبعث لعانًا ولكن بعثت داعيًا ورحمة، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»**[2]. فكأنه عليه السلام أوحي إليه بذلك قبل وقوع قضية أُحُد، ولم يعين له ذلك الشيء، فلما وقع له ذلك تعيّن أنه المعنى بذلك بدليل ما ذكرنا. ويبينه أيضًا **ما قاله عمر له في بعض كلامه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله: لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[3]الآية. ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند آخرنا، فلقد وطئ ظهرك وأدمى وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيراً، فقلت: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»انتهى كلام الإمام القرطبي.**

---

(١) رواه الإمام مسلم (كتاب الجهاد والسير) «باب غزوة أحد».

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، والإمام الهيثمي في مجمع الزوائد (كتاب الأدب) «باب النهي عن اللعن والسب»، وفي مشكاة المصابيح (كتاب الفضائل) «باب في أخلاقه وشمائله ﷺ».

(٣) سورة نوح آية: ٢٦.

قلت: فرسول الله ﷺ مع وجود المسوغ للدعاء على الكافرين حينئذ، من كسر رباعيته وشج رأسه، ووطئ ظهره، وإسالة الدم على وجهه، حتى استبعد فلاحهم وتوفيقهم لأجل ذلك بقوله ﷺ: «**كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم**» يدنيه ربه ويعلمه ﷺ بالحقيقة الحق، وبالشهادة الصدق، أن مردَّ الأمور كلها إلى من بيده الأمر والنهي والقبض والبسط والهداية والتوفيق، إلى من تعود كل الأشياء إليه وإلى تدبيره سبحانه وتعالى، حتى لا يستبعد أمرا دونه، قد يكون قد قضى بكونه، فقال تعالى: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**﴾..

فلما قرَّب له البعيد، وجوَّز له المستبعد وأطمعه في هدايتهم هنالك دعا رسول الله ﷺ لهم بقوله: «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»، هذا مع الكافرين الصادين عن سبل الهدى المعتدين، لكونهم ما زالوا أحياء ويرجو إيمانهم..

فكيف بمن يدعو على المسلمين!.. الموحدين لرب العالمين!، لتلوثهم ببعض المخالفات، وكيف بمن يعتبر أن وظيفته في الدنيا هو عداوة غير المسلمين، ولو لم يكن لهم إيذاء، ولم يجرِ منهم اعتداء..

فبدلا من التفكر لهم بالرحمة والهداية، واتباع سنن الأنبياء في ذلك، يرى البعض أن رفع اليد بالدعاء لاستئصالهم، وتخليص المعمورة منهم لكفرهم، هو الأولى والأجدى، فكرسوا جهودهم له، وقووا العزم فيه، فكانت الجفوة والعداوة بين «أمة الإجابة» وهم المسلمون، «وأمة الدعوة» وهم غير المسلمين، على مستوى المعمورة، وتعطلت أعمال الهداية، وزادت في الأرض الغواية...

وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في الإحياء الجزء الثالث صفحة ١١٩: الآفة الثامنة (اللعن)

(إما لحيوان أو جماد أو إنسان وكلٌّ ذلك مذموم. قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن ليس بلعان»**[١] وقال ﷺ: **«لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم»**[٢] وقال حذيفة رضي الله عنه: **ما تلاعن قوم قط إلا حق عليهم القول**، وقال عمران بن حصين: **«بينما رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها فقال ﷺ: خذوا ما عليها وأعروها فإنها ملعونة»**[٣] قال فكأني أنظر إلى تلك الناقة تمشي بين الناس لا يتعرض لها أحد. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: **ما لعن أحد الأرض إلا قالت لعن الله أعصانا لله. وقالت عائشة** رضي الله عنها **«سمع رسول الله ﷺ أبا بكر وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه وقال: يا أبا بكر، أصدّيقين ولعانين كلا وربّ الكعبة مرتين أو ثلاثًا»**[٤]

---

(١) قال الحافظ العراقي: أخرجه الترمذي بإسناد صحيح من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب وصححه وروي موقوفا قال الدارقطني في العلل والموقوف أصح، وأخرجه الإمام البيهقي في السنن (كتاب الشهادات) «باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها التي من كان متخلقا بها كان من أهل المروءة التي هي شرط في قبول الشهادة على طريق الاختصار» ج١٠ ص١٩٣، وأخرجه الإمام الهيثمي في مجمع الزوائد ج٨ ص٧٥، وقال الحافظ الهيثمي وفي كثير ابن زيد وثقه جماعة وفيه لين، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) قال الحافظ العراقي أخرجه الترمذي وأبو داود من حديث سمرة بن جندب قال الترمذي: حسن صحيح، وأخرجه أبو داود (كتاب الأدب) «باب في اللعن» ج٢ ص٦٢٧»، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ج٥ ص١٥.

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (كتاب البر والصلة والآداب) «باب النهي عن لعن الدواب وغيرها».

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وقال الحافظ العراقي: وشيخه بشار بن موسى الخفاف ضعفه الجمهور وكان أحمد حسن الرأي فيه.

فأعتق أبو بكر يومئذ رقيقه وأتى النبي ﷺ وقال: لا أعود وقال رسول الله ﷺ: «**إن اللعانين لا يكونون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة**»(١) وقال أنس كان رجل يسير مع رسول الله ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال ﷺ «**يا عبدالله لا تسر معنا على بعير ملعون**»(٢) وقال ذلك إنكارا عليه واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل وهو الكفر والظلم بأن يقول لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين **وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع فإن في اللعنة خطراً لأنه حكم على الله عزّ وجلّ بأنه قد أبعد الملعون وذلك غيب لا يطّلع عليه غير الله تعالى** ويطلع عليه رسول الله ﷺ إذا أطلعه الله عليه والصفات المقتضية للعن ثلاثة: الكفر والبدعة والفسق. واللعن في كل واحدة ثلاث مراتب:

الأولى: اللعن بالوصف الأعم كقولك: لعنة الله على الكافر والمبتدعين والفسقة.

الثانية: اللعن بأوصاف أخصّ منه كقولك: لعنة الله على اليهود والنصارى والمجوس وعلى القدرية والخوارج والروافض أو على الزناة والظلمة وآكلي الربا وكل ذلك جائز ولكن في لعن أوصاف المبتدعة خطر لأن معرفة البدعة غامضة ولم يرد فيه لفظ مأثور فينبغي أن يُمنع منه **العوام** لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله ويثير نزاعًا بين الناس وفسادا.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في الصحيح (كتاب البر والصلة)، وأخرجه أبو دواد (كتاب الأدب) «باب في اللعن» ج٢ ص٦٢٧، وأخرجه الحاكم في المستدرك (كتاب الإيمان) ج١ ص٤٨.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا قال الحافظ العراقي: بإسناد جيد.

الثالثة: اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك: زيد لعنه الله وهو كافر أو فاسق أو مبتدع والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعًا فتجوز لعنته كقولك فرعون لعنه الله وأبو جهل لعنه الله **لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعًا** أما شخص بعينه في زماننا كقولك زيد لعنه الله وهو يهودي مثلاً فهذا فيه خطر فإنه ربما يسلم فيموت مقربًا عند الله فكيف يحكم بكونه ملعونا. فإن قلت يلعن لكونه كافرًا في الحال كما يقال للمسلم رحمه الله لكونه مسلمًا في الحال وإن كان يتصور أن يرتد. **فاعلم أن معنى قولنا رحمه الله أي: ثبّته الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة** وعلى الطاعة ولا يمكن أن يقال ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر بل الجائز أن يقال: **لعنه الله إن مات على الكفر ولا لعنه الله إن مات على الإسلام**، وذلك غيب لا يدرى والمطلق متردد بين الجهتين ففيه خطر وليس في ترك اللعن خطر وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى **فلعن الأعيان فيه خطر لأن الأعيان تتقلب في الأحوال** إلا من أعلم به رسول الله ﷺ فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ولذلك عين قوما باللعن فكان يقول في دعائه على قريش: «**اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة**»[1] وذكر جماعة قتلوا على الكفر ببدر حتى إن من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهى عنه إذ روي: «**أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهرا فنزل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾**»[2] يعني أنهم ربما يسلمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون وكذلك من بان

---

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) متفق عليه من حديث أنس رضي الله عنه.

لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى على مسلم فإن كان لم يجز كما روي أن رسول الله ﷺ **«سأل أبا بكر** رضي الله عنه **عن قبر مرّ به وهو يريد الطائف فقال هذا قبر رجل كان عاتيا على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص. فغضب ابنه عمرو بن سعيد وقال: يا رسول الله، هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للهام من أبي قحافة. فقال أبو بكر: يكلمني هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام؟! فقال** ﷺ **: اكفف عن أبي بكر فانصرف، ثم أقبل على أبي بكر فقال: يا أبا بكر إذا ذكرتم الكفار فعمموا؛ فإنكم إذا خصصتم غضب الأبناء للآباء فكف الناس عن ذلك»**[1] وشرب نعيمان الخمر فحُدّ مرات في مجلس رسول الله ﷺ فقال بعض الصحابة: لعنه الله ما أكثر ما يُؤتي به، فقال ﷺ : **«لا تكن عونا للشيطان على أخيك»** وفي رواية: **لا تقل هذا فإنه يُحب الله ورسوله»**[2] **فنهاه عن ذلك وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز وعلى الجملة ففي لعن الأشخاص خطر فليتجنب ولا خطر في السكوت عن لعن إبليس مثلاً فضلا عن غيره»**انتهى كلام الإمام الغزالي.

وقال الإمام الغزالي رحمه الله في الإحياء ج٣ ص١٢٢

. (فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين

---

(١) قال الحافظ العراقي أخرجه أبو داود في المراسيل من رواية علي بن ربيعة.

(٢) سبق تخريجه.

فالاشتغال بذكر الله أولى فإن لم يكن **ففي السكوت سلامة** قال مكي ابن إبراهيم: كنا عند ابن عون فذكروا بلال بن أبي بردة فجعلوا يلعنونه ويقعون فيه وابن عون ساكت فقالوا: يا ابن عون، إنما نذكره لما ارتكب منك، فقال: **إنما هما كلمتان تخرجان من صحيفتي يوم القيامة: لا إله إلا الله ولعن الله فلانا فلأن يخرج من صحيفتي لا إله إلا الله أحب إلي من أن يخرج منها لعن الله فلانا.** وقال رجل لرسول الله ﷺ: أوصني، فقال: «**أوصيك أن لا تكون لعانًا**»[1] وقال ابن عمر: **إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان.** وقال بعضهم: **لعن المؤمن يعدل قتله** وقال حماد بن زيد بعد أن روي هذا: **لو قلت إنه مرفوع لم أبال،** وعن أبي قتادة قال كان يقال: «**من لعن مؤمنا فهو مثل أن يقتله**»[2] وقد نقل ذلك حديثا مرفوعا إلى رسول الله ﷺ.
ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر حتى الدعاء على الظالم كقول الإنسان مثلا: لا صحح الله جسمه ولا سلَّمه الله وما يجري مجراه فإن ذلك مذموم وفي الخبر: «إن المظلوم ليدعوا على الظالم حتى يكافئه ثم يبقى للظالم عنده فضله يوم القيامة»[3]. انتهى كلام الإمام الغزالي.

---

(١) قال الحافظ العراقي أخرجه أحمد والطبراني وابن أبي عاصم في الآحاد والثاني من حديث جرموز الهجمي وفيه رجل لم يسم أسقط ذكره ابن أبي عاصم.
(٢) متفق عليه من حديث ثابت بن الضحاك.
(٣) قال الحافظ العراقي: لم أقف له على أصل وللترمذي من حديث عائشة بسند ضعيف «من دعا على من ظلمه فقد انتصر».

وقال الإمام القرطبي في تفسيره ج ١٠ ص ٦٧٩١ عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[١].

(فيه أربع مسائل:

الأولى: دعا عليهم حين يئس من اتباعهم إياه. وقال قتادة: دعا عليهم بعد أن أوحى الله إليه: ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ﴾[٢] فأجاب الله دعوته وأغرق أمته، وهذا كقول النبي: «**اللهم منزل الكتاب وهازم الأحزاب اهزمهم وزلزلهم**»[٣] وقيل: سبب دعائه أن رجلا من قومه حمل ولداً صغيراً على كتفه فمر بنوح فقال: «**احذر هذا فإنه يضلك**» فقال: **يا أبت، أنزلني. فأنزله فرماه فشجه. فحينئذ غضب ودعا عليهم**، وقال محمد بن كعب ومقاتل والربيع وعطية وابن زيد: **إنما قال هذا حينما أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحامهم ونسائهم وأعقم أرحام النساء وأصلاب الرجال قبل العذاب بسبعين سنة**. وقيل بأربعين. قال قتادة: **ولم يكن فيهم صبي وقت العذاب** وقال الحسن وأبو العالية: **لو أهلك الله أطفالهم معهم كان عذابا من الله لهم وعدلاً فيهم ولكن الله أهلك أطفالهم وذريتهم بغير عذاب ثم أهلكهم بالعذاب** بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾[٤].

---

(١) سورة نوح آية: ٢٦، ٢٧.　　(٢) سورة هود آية: ٣٦.

(٣) أخرجه الإمام البخاري ج٤ ص٥٣، ٦٢، ج٥ ص١٤٢، ج٨ ص١٠٤، ج٩ ص١٧٤، وأخرجه الإمام مسلم (كتاب الجهاد) «باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو»، وأخرجه الإمام أبو داود (كتاب الجهاد) «باب في كراهية تمني لقاء العدو» ج٢ ص٤٣، وأخرجه الإمام الترمذي، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ج٤ ص٣٥٤، وفي سنن الإمام البيهقي ج٩ ص٦٥٢.

(٤) سورة الفرقان آية: ٣٧.

الثانية: قال ابن العربي: دعا نوح على الكافرين أجمعين ودعا النبي ﷺ على من تحزّب على المؤمنين وألب عليهم وكان هذا أصلاً في الدعاء على الكافرين في الجملة. **فأما كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يدعي عليه لأن مآله عندنا مجهول وربما كان عند الله معلوم الخاتمة بالسعادة**. وإنما خص النبي ﷺ بالدعاء عتبة وشيبة وأصحابهما لعلمه بمآلهم وما كشف له من الغطاء عن حالهم والله أعلم.

قلت:قد مضت هذه المسألة مجودة في سورة «البقرة» والحمد لله.

الثالثة: قال ابن العربي: **إن قيل لم جعل نوح دعوته على قومه سببًا لتوقفه عن طلب الشفاعة للخلق من الله في الآخرة؟ قلنا: قال الناس في ذلك وجهان:**

أحدهما: أن تلك الدعوة نشأت عن غضب وقسوة والشفاعة تكون عن رضا ورقة فخاف أن يعاقب.

ويقال: دعوت على الكفار بالأمس وتشفع لهم اليوم.

الثاني: أنه دعا غضبًا بغير نص ولا إذن صريح في ذلك، فخاف الدرك فيه يوم القيامة كما قال موسى عليه السلام: «**إني قتلت نفسا لم أومر بقتلها**» قال: **وبهذا أقول**».

قلت (أي الإمام القرطبي): **إن كان لم يؤمر بالدعاء نصًا فقد قيل له: ﴿أنه لن يؤمن من قومك لا من قد آمن﴾ فأعلم عواقبهم فدعا عليهم بالهلاك كما دعا نبينا صلى الله عليه وسلم على شيبة وعتبة ونظرائهم فقال: «اللهم عليك بهم» لما أعلم عواقبهم، وعلى هذا يكون فيه معنى الأمر بالدعاء. والله أعلم)**.انتهى كلام الإمام القرطبي.

قلت: فانظر إلى قول الإمام أبي بكر بن العربي رحمه الله تعالى «دعا نوح على الكافرين أجمعين ودعا النبي ﷺ على من تحزب على المؤمنين وألب عليهم وكان هذا أصلا في الدعاء على الكافرين في الجملة فأما كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يُدعى عليه لأن مآله عندنا مجهول وربما كان عند الله معلوم الخاتمة بالسعادة. وإنما خص النبي ﷺ بالدعاء عتبة وشيبة وأصحابهما لعلمه بمآلهم وما كشف له من الغطاء عن حالهم والله أعلم».

وتأمل كيف نص رحمه الله تعالى على أن الأصل في الدعاء على الكافرين أو الظالمين إنما هو للنوع لا للمعين منهم، فيدعى على الكافرين نوعا، وعلى الكافرين جملة، أما فلان الكافر أو الظالم فلا يدعى عليه على التعيين والتخصيص، لأننا لا نعلم العاقبة والخاتمة في حقه كيف تكون..

ولعل الله تعالى قد ختم له بالسعادة والفوز والفلاح، وهذا حدث مع كثير من الأئمة والفضلاء، وكيف علل رحمه الله تعالى دعاء النبي ﷺ على بعض الكافرين على التعيين والتخصيص كعتبة وشيبة وأصحابهما، بأن ذلك كان لمعرفة النبي ﷺ بعاقبتهم ومآلهم وخاتمتهم بما منَّ الله عليه من ذلك، وأنهم يموتون على الغي والكفر، والكشف عن الغيبيات بيد عالم السماوات الذي لم يُطلع على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول، فهذا العلم متعذر مع غير النبي ﷺ، لذا بقى الجميع على الأصل في ذلك، وهو أن يُدعي على الكافرين نوعا وجملة، ويمنع ذلك على المعينين منهم أو تخصيص أحدهم بذلك..

نسأل الله تعالى الهداية للثقلين الجن والإنس أجمعين، وأن يجعل لنا من كل روح عرفت طريقها إليه بالهداية، ثواب الدعاء لها بالتوفيق والحرص عليها بالإيمان. آمين.

وقد كان هدي الأئمة التحذير من لعن المعينين الواقعين في المخالفات، حتى لا يقنطوا ويأنفوا من الإيمان والتوبة، والرجوع إلى الله تعالى، حيث كان حرص الأئمة رضي الله عنهم على هؤلاء العصاة أن ينصلحوا، ويئوبوا إلى الله تعالى ويقتربوا، بخلاف غيرهم من الراغبين في إبعاد هؤلاء من الرحمة، في الدنيا والآخرة، بلعنهم وطردهم منها..

وهذا الذي بوب عليه الإمام البخاري في الصحيح باب (لعن السارق إذا لم يُسمَّ).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح ج١٢ ص٨٣. قوله (باب لعن السارق إذا لم يُسمَّ) أي إذا لم يُعيّن، إشارة إلى الجمع بين النهي عن لعن الشارب المعين كما مضى تقريره وبين حديث الباب. **قال ابن بطال: معناه لا ينبغي تعيين أهل المعاصي ومواجهتهم باللعن وإنما ينبغي أن يلعن في الجملة من فعل ذلك ليكون ردعا لهم وزجرا عن انتهاك شيء منها، ولا يكون لمعين لئلا يقنط»انتهى.**

قلت: فنهى أئمة الإسلام عن لعن العصاة المذنبين المعينين، حتى لا يفضى ذلك إلى قنوطهم ويأسهم من التوبة والمغفرة والإنابة، حرصا وشفقة ونصحا منهم لعصاة الأمة، حتى تنكشف وتزول عنهم الغُمّة..

وهذا ما قرَّره الإمام العلامة ابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية ص٢٧٠ (وسئل رضي الله عنه ونفعنا به: عما في الإحياء من حديث لعن المؤمن كقتله) قال في الصحيح متفق عليه فما معنى هذا الحديث وكيف لعن المؤمن المذكور؟)

فأجاب بقوله: «إن معنى لعن المؤمن كقتله أي مثله في الحرمة الشديدة لأن لعن المسلم حرام بل لعن الكافر غير الحربي كذلك بل لعن الحيوان كذلك، وسبب ذلك أن اللعن عبارة عن الطرد والإبعاد عن الله

وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده عن الله تعالى وهو الكفر والبدعة والفسق، فيجوز لعن المتصف بواحدة من هذه باعتبار الوصف الأعم نحو لعنة الله على الكافرين والمبتدعة والفسقة أو الوصف الأخص نحو لعن الله اليهود والخوارج والقدرية والروافض والزنادقة والظلمة وآكل الربا، أما لعن شخص بعينه فإن كان حيا لم يجز مطلقا إلا إن علم أنه يموت على الكفر كإبليس وذلك كمن لم يعلم موته على الكفر وإن كان كافرا في الحال، لأنه ربما يسلم فيموت مقربا عند الله تعالى فكيف يحكم بكونه ملعونا مبعدا مطرودا فلا نظر للكفر في الحال، نعم يجوز أن يقال لعنه الله إن مات كافرا وكذا يقال في فاسق ومبتدع معين إن مات ولم يتب». انتهى.

وقد ذهب شيخ الإسلام الإمام النووي رحمه الله إلى تحريم اللعن للمعين إنسانا كان أو دابة إذا لم يتيقن موته على الكفر وذلك في الترجمة التي أوردها في رياض الصالحين باب (**تحريم لعن إنسان بعينه أو دابته**).

قال العلامة ابن علان في دليل الفالحين شرح رياض الصالحين ((باب تحريم لعن إنسان بعينه) أي إن لم يتيقن موته على الكفر. أما من تيقن موته عليه فلا، سواء مات كأبي جهل وأمثاله أو لا كإبليس وأجناده. وإنما حرمت اللعنة فيما عداه لأنها طرد عن رحمة الله ولا يعلم ذلك إلا بتوقيف، **والحي الكافر إيمانه مرجو فيدخل في أهلها (أو دابة)** أي مثلا وكذا كل مخلوق من النبات والجماد). انتهى.

قلت: فانظر إلى تقييد العلامة ابن علان لجواز لعن إنسان بعينه، بتيقن موته على الكفر، سواء مات فعلا كأبي جهل وأمثاله، أم لم يمت بعد كإبليس وجنوده، الكفرة المردة، ثم بين رحمه الله تعالى السبب في سوق الترجمة السابقة، بتحريم لعن الإنسان المعين لكون

ذلك طرد من رحـمه الله تعالى، وإبـعاد من هذه الرحـمة، وهذا لا يُصار إليه إلا بتوقيف، إما نص أو دليل شرعي معتبر، وعلل ذلك بأن الكافر الحي إيمانه مرجو فيدخل في أهلها، أي في أهل الرحمة..

ومن ثم إذا أتى آت فلعنه، ودعى عليه بالطرد مـن هذه الرحمة، مع مـا قـد سبق من كـونه من أهلـها، وقع هذا الـداعي باللعن في المذموم المحـذور، وارتكب منهيـا من المنهيـات، وفعل مـحذورا من المحذورات..

وهذا هو الحامل لأهل الدعـوة، على الحرص على كل أحد، كـافرا كان أو مـؤمنا، والعمـل على نجاته ودعـوته والشفـقه عليـه، رجاء أن يكون من أهل الرحـمة، فـيكونون هم سببـا في تحـصيل الأجـور التي جعلهـا الشارع ثوابا، لمن صاروا في تحـصيل أسباب الهـداية للآخرين، ولعموم الناس..

وأوضح الأمـثلة على ذلك قـول النبي ﷺ لعلي رضي الله عنه «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمر النعم»[1].

حيث إن الأعمـال حسنها وسيـئها أمارات وليـست بموجبات وأن مصـير الأمور في الـعاقبـة إلى ما سبق به القـضاء وجـري به القدر في الابتداء على ما قاله العلامة الخطابي رحمه الله تعالى.

فأمور الناس من الطاعة والمعصيـة علامة على السعادة أو الشقاء، وهذه العلامات والأمارات ليست بموجبة للسـعادة أو الشقاوة بنفسها، والنجاة والخسارة بمقتضاها، بل قد يعمل الرجل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار

---

(١) أخـرجه الإمـام البـخاري (كـتـاب المغازي) «باب غـزوة خـيبـر» ج٥ ص١٧١، وأخرجه الإمام مسلم في الصحيح (كتاب فضائل الصحابة) «باب فضل علي ابن أبي طالب رضي الله عنه»، وفي مسند الإمام أحمد ج٥ ص٣٣٣.

فيدخلهـا، على ما جاء في حديث عبـدالله بن مسعود ﷺ، فعـاقبة الأمور وما تنتـهي إليه على السابقة ومـا قدَّر الله تعالى فيـها، ومدار الأمر على الموافاة، فمن وافى الله بالإيمان فهو من أهل السعادة، ولو كان حـاله في غالب عـمره على المخـالفات، ومن وافى الله تـعالى بالعصيان فهو من أهل الشقـاوة، ولو كان حاله في غالب عمره على الإيمان. .

وهو مـا ترجم له الإمام البـخاري: (بـاب جف القلم على علم الله وقوله «وأضله الله على علم»)

ثم أورد حديث عـمران بن الحـصين قال: قـال رجل: يا رسول الله أيُعْرَف أهل الجنة من أهل النار؟ قال: نعم، قـال: فلم يعمل العاملون؟ قال: كلٌّ يعمل لما خلق له، أو لما يُيسَّر له»[1].

قال الحافظ ابن حجر في الفتح ج١١ ص٥٠١ «وفي الحديث إشارة إلى أن المآل محجوب عن المكلف فعليه أن يجـتهد في عمل ما أُمِرَ به فإن عمله أمارة إلى ما يئول إليه أمره غـالبا وإن كان بعضهم قد يختم له بغير ذلك كما ثبت في حديث ابن مسعود وغيره لكن لا اطلاع له على ذلك فعليه أن يبذل جهده ويجاهد نفسه في عمل الطاعة لا يترك وكولاً إلى ما يئول إليه أمره فيُـلام على ترك المأمور ويستحق العقوبة، وقد ترجم ابن حبان بحديث الباب: «**ما يجب على المرء من التشـمير في الطاعات وإن جرى قـبلها ما يكره الله من المحظورات**» ولمسلم من طريق أبي الأسود عن عمران أنه قال له: أرأيت **ما يعمل الناس اليوم أشيء قُضى عليهم ومضى فيهم من قدر قـد سبق أو فيما يستقبلون مما**

---

(١) أخرجـه الإمام البخاري في الصـحيح (كتاب الـقدر) «باب جف القلم عن علم الله» ج٨ ص١٥٣.

أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: لا بل شيء قضى عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(١) وفيه قصة لأبي الأسود الدؤلي مع عمران وفيه قوله له: أيكون ذلك ظلما؟ فقال: لا كل شيء خلق الله وملك يده فلا يُسأل عما يَفعل. قال عياض: أورد عمران على أبي الأسود شبهة القدرية من تحكمهم على الله ودخولهم بآرائهم في حكمه، **فلما أجابه بما دلَّ على ثباته في الدين قوّاه بذكر الآية وهي حد لأهل السنة**، وقوله كل شيء خلق الله وملكه يشير إلى أن المالك الأعلى الخالق الآمر لا يعترض عليه إذا تصرف في ملكه بما يشاء، وإنما يعترض على المخلوق المأمور» انتهى.

قلت: هذا ومن عقوبة لاعن الناس في الدنيا سقوط عدالته، واهتزاز منزلته أن يكون من الشافعين للهلكى والخاسرين، أو يكون من الشاهدين على المكذبين المعرضين..

فإذا ما اعترضت الأمم على رسلها وكذبوا أنبياءها، وجادلوا وماحلوا، في كون الأنبياء ظلموهم، ومنعوهم الرسالة وما بلغوهم، فيزكي الله تعالى هذه الأمة، الهادية المهدية، المبعوثة للعالمين، بأن يجعلها شاهدة لأنبيائه على أداء الأمانة، وتبليغ الرسالة وهو قوله تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾**(٢).

وقد أورد الإمام النووي في رياض الصالحين: (باب تحريم لعن إنسان بعينه أو دابته) وأورد في أحاديث الباب ما يدل على أن اللعانين للناس في الدنيا ليست لهم منزلة عند الله تعالى في الآخرة، بل لا يكونون شفعاء ولا شهداء، بل ذهب الإمام المظهري إلى فسق من يلعن الناس..

---

(١) سورة الشمس آية: ٧، ٨. (٢) سورة البقرة آية: ١٤٣.

وهو ما أورده العلامة ابن علان في دليل الفالحين شرح رياض الصالحين ج٤ ص٤٠٦ في شرحه على الحديث الثالث عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة»[(١)] رواه مسلم.

قال العلامة ابن علان: «لا يكون اللعانون شفعاء» جمع شفيع: أي لا يشفعون يوم القيامة حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار (ولا شهداء).

قال المظهري: يعني من يلعن الناس في الدنيا فهو فاسق لا تقبل شفاعته ولا شهادته (يوم القيامة) يعني حال تكذيب الأمم الماضية أنبياءهم ويقولون: ما بلغونا رسالتك فيقول الله تعالى للأنبياء: هل لكم شاهد على إبلاغكم رسالتي؟ فيقولون: يا رب أمة محمد صلى الله عليه وسلم تشهد، فيجاء بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون أن الأنبياء بلغوا رسالات الله تعالى إلى أممهم. والمراد بهذا الحديث أن اللعانين ليس لهم منزلة عند الله حتى تقبل شهادتهم في جملة من شهد من الأنبياء»انتهى.

قال الإمام النووي رحمه الله في شرح صحيح مسلم ج١٦ ص١٤٨: قوله صلى الله عليه وسلم: «لا ينبغي لصديق أن يكون لعانا ولا يكون اللعانون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة» فيه الزجر عن اللعن وأن من تخلق به لا يكون فيه هذه الصفات الجميلة لأن اللعنة في الدعاء يراد بها الإبعاد من رحمة الله تعالى وليس الدعاء بهذا من أخلاق المؤمنين الذين وصفهم الله تعالى بالرحمة بينهم والتعاون على البر والتقوى وجعلهم كالبنيان يشد بعضه بعضا وكالجسد الواحد وأن المؤمن يحب

---

(١) أخرجه الإمام مسلم (كتاب البر والصلة) «باب النهي عن لعن الدواب وغيرها»، وأخرجه أبو داود (كتاب الأدب) «باب في اللعن»، وأخرجه الحكام في المستدرك (كتاب الإيمان) ج١ ص٤٨.

لأخيه ما يحب لنفسه فمن دعا على أخيه المسلم باللعنة وهي الإبعاد من رحمة الله تعالى فهو من نهاية المقاطعة والتدابر وهذا غاية ما يوده المسلم للكافر ويدعو عليه ولهذا جاء في الحديث الصحيح لعن المؤمن كقتله لأن القاتل يقطعه عن منافع الدنيا وهذا يقطعه عن نعيم الآخرة ورحمة الله تعالى وقيل معنى لعن المؤمن كقتله في الإثم وهذا أظهر وأما قوله صلى الله عليه وسلم: **إنهم لا يكونون شفعاء ولا شهداء فمعناه لا يشفعون يوم القيامة حين يشفع المؤمنون في إخوانهم الذين استوجبوا النار ولا شهداء فيه ثلاثة أقوال أصحها وأشهرها**: لا يكونون شهداء يوم القيامة على الأمم بتبليغ رسلهم إليهم الرسالات **والثاني**: لا يكونون شهداء في الدنيا أي لا تُقبل شهادتهم لفسقهم. **والثالث**: لا يرزقون الشهادة وهي القتل في سبيل الله وإنما قال صلى الله عليه وسلم لا ينبغي لصديق أن يكون لعانا ولا يكون اللعانون شفعاء بصيغة التكثير ولم يقل لاعنا واللاعنون لأن هذا الذم في الحديث إنما هو لمن كثر منه اللعن لا لمرة ونحوها ولأنه يخرج منه أيضا اللعن المباح وهو الذي ورد الشرع به وهو لعنة الله على الظالمين لعن الله اليهود والنصارى لعن الله الواصلة والواشمة وشارب الخمر وآكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه والمصورين ومن انتمى إلى غير أبيه وتولى غير مواليه وغير منار الأرض وغيرهم ممن هو مشهور في الأحاديث الصحيحة»انتهى.

قلت: ولم يقتصر النهي عن لعن المعينين الأحياء فقط، بل أورد الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن سب الأموات

المعينين حيث قـالت: قال رسول الله ﷺ : «لا تسبوا الأمـوات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»[1].

وقد ترجم لهـذا الحديث الإمام النووي بترجـمة شافيـة حيث قال: (باب تحريم سب الأموات بغـير حق ومصلحة شـرعية) وهي التحذير من الاقتداء به في بدعته وفسقه ونحو ذلك فساق رضي الله تعالى عنه ترجمة الباب بالتحريم، لبيـان حرمة سب الأموات المعينين، إن كانوا مسلمين لغير مـصلحة شرعية كجرح رواة أو بيـان بدعة أو غير ذلك، وإن كانوا كفاراً، فلا يجوز سـبهم أيضا على التعيين، لجواز أن يكون هذا الكافر المعين قد مات على الإسلام والإيمان، إلا من نص الشارع على موته على الكفر كأبي جـهل وغيره، ولكن يجوز سب من مات من الكفار على العموم والجملة . .

قال العلامة ابن علان في دليل الفالحين شرح رياض الصالحين ج٤ ص٤١٦ في تعليقه على هذه الترجمـة: (باب تحريم سب الأموات بغير حق ومصلحة شرعية)

وذلك في شـرحـه للحـديث فـي دليل الفـالحين: (ولا تسـبـوا الأموات) النهي فيه للتحريم وأل لإبطال معنى الجمعية أي: أيّ ميت. وعلل النهي بقوله (فـإنهم قد أفضوا) أي وصلوا (إلى مـا قدموا) من عملهم خـيرا كان أو شـرا إذ لا فائدة في سبـهم. والحديث في سب أموات المسلمين، أما أموات الكفار فيجـوز سبهم عموما، وأما المعين منهم فلا يجوز سبه لاحتـمال أنه مات مسلما، إلا أن يكون ممن نص الشارع على موته كافرا كأبي لهب وأبي جهل)انتهى.

---

(١) أخرجـه الإمام البـخاري (كتـاب الجنائز) «باب ما ينهـى عن سب الأموات» ج٢ ص١٢٩، وأخرجـه النسائي (كتاب الجنـائز) «باب النهي عن سب الأموات» ج٤ ص٥٣، وأورده الإمام البـيهـقي في السنن «باب النهي عن سب الأمـوات والأمر بالكف عن مسـاويهم إذا كان مستـغنيا عن ذكرهم» ج٤ ص٧٥، وأخرجـه الحاكم في المستدرك (كتاب الجنائز) ج١ ص٣٨٥.

استحباب الدعاء للعصاة

قال الإمام الطبري في تفسيره ج٣ ص١١٤: وتأويل قوله: (ليس لك من الأمر شيء): ليس إليك يا محمد من أمر خلقي إلا أن تنفذ فيهم أمرى، وتنتهي فيهم إلى طاعتي، وإنما أمرهم إليَّ والقضاء فيهم بيدي دون غيري، أقضي فيهم، وأحكم بالذي أشاء من التوبة على من كفر بي وعصاني، وخالف أمري، أو العذاب إما في عاجل الدنيا بالقتل والنقم المبيرة، وإما في آجل الآخرة بما أعددت لأهل الكفر بي» كما: حدثني ابن حميد، قال: ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، قال: ثم قال لمحمد ﷺ: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**﴾: أي ليس لك من الحكم في شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم، أو أتوب عليهم برحمتي، فإن شئت فعلت. أو أعذبهم بذنوبهم، «فإنهم ظالمون» أي قد استحقوا ذلك بمعصيتهم إياي.

وذكر أن الله عز وجل إنما أنزل هذه الآية على نبيه محمد ﷺ، لأنه لما أصابه بأُحُد ما أصابه من المشركين، قال كالآيس لهم من الهدى أو من الإنابة إلى الحق: «**كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم**» انتهى.

قلت: فإلى المتقدمين حتى على قدم النبوة في الدعاء على العاصين، ليس لكم من أمر الخلق كفارا كانوا، أو ظالمين أو فاسقين، إلا أن تنفذوا أمر الله تعالى فيهم، وتنتهوا معهم إلى طاعته، حيث إن أمرهم إلى الله تعالى والقضاء فيهم بيده دون غيره، فهو سبحانه يقضي فيهم ويحكم بما يشاء..

فإن شاء يتوب عليهم، ويصلحهم ويقبلهم، وإن شاء عذبهم في الدنيا والآخرة، فالخلق ملكه التام الخالص وليس لمنهج الدعوة والنبوة إلا الحرص والشفقة والنصح لكل الشاردين، كفارا كانوا أو ظالمين أو فاسقين..

فالله يقبل من يشاء منهم ويدينه، ويرد غيره ويقصيه، فلا يأس في منهج النبوة والدعوة أمام أي أحد من الناس، أن يُبلغ رسالة ربه لبعده أو لقوة معاصيه، ولا ضجر أو ضيق في أن يكون في الهداية والتوبة والإنابة وكذلك أرشد الله تعالى رسوله عليه السلام بقوله: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾**.

وأورد الإمام ابن جرير ج٣ ص١١٦ عن عمار، قال: ثنا ابن أبي جعفر، عن أبيه، قوله: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾**... الآية، قال: قال الربيع بن أنس، أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ يوم أُحُد وقد شج رسول الله ﷺ في وجهه، وأصيبت رباعيته، فهم رسول الله ﷺ أن يدعو عليهم، فقال: «**كيف يفلح قوم أدموا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى الله وهم يدعونه إلى الشيطان ويدعوهم إلى الهدى ويدعونه إلى الضلالة، ويدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار**» فهم أن يدعو عليهم، فأنزل الله عز وجل: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾**[1] فكف رسول الله ﷺ عن الدعاء عليهم» انتهى.

قلت: فإلى الذين يدعون إلى الله تعالى وحده أمام من يدعونهم إلى الشياطين، ومن يدعون إلى الهداية أمام من يدعونهم إلى الضلالة، ومن يدعون إلى الجنة أمام من يدعونهم إلى النار... **لا تدعو علي دعاة الغفلة، فقد كان لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة لما همَّ بأن يفعل ذلك، ويدعو على هذه الأصناف من قومه، فأرشده رب العالمين إلى السبيل الأزكى، والشراب الأنقى، وأنزل الله عليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، فكف رسول الله ﷺ عن الدعاء عليهم، استجابة للإرشاد، وأملا في عودتهم إلى الرشاد فتاب الله عليهم جميعا..**

---

(١) الطبري ج٣ ص١١٦.

وقد كان الدعاء للمشركين، بالهدى ليتألفهم، هو آخر الحالين للنبي ﷺ بعد أن كان يدعو عليهم صلوات الله وتسليماته عليه، وهو ما أورده الإمام البخاري رضي الله عنه في أربع تراجم من الصحيح وفي كتابين مختلفين، فأورد ترجمة في كتاب الجهاد (باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة) ثم أورد بعدها ترجمة قيمة وهي قوله: (باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم) وساق فيها حديث النبي ﷺ في الدعاء لدوس قبيلة أبي هريرة بالهداية، وقد كان إسلام أبي هريرة وقبيلته متأخرا..

ثم ساق في كتاب الدعوات ترجمتين على نفس الترتيب، أولها (باب الدعاء على المشركين)، وأعقبها بالترجمة الثانية (باب الدعاء للمشركين)، وكأن البخاري رحمه الله تعالى يميل إلى القول بأن آخر الأمرين للنبي ﷺ هو الدعاء للمشركين لا الدعاء عليهم..

وقد ذهب الإمام ابن بطال رحمه الله تعالى، إلى أن الدعاء للمشركين ناسخ للدعاء عليهم، قال الحافظ في الفتح: ج١١ ص١٩٩: (وحكى ابن بطال أن الدعاء للمشركين ناسخ للدعاء على المشركين ودليله قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ﴾ قال: والأكثر على أن لا نسخ، وأن الدعاء على المشركين جائز وإنما النهي عن ذلك في حق من يرجي تألفهم ودخولهم في الإسلام، ويحتمل في التوفيق بينهما أن الجواز حيث يكون في الدعاء ما يقتضي زجرهم عن تماديهم على الكفر، والمنع حيث يقع الدعاء عليهم بالهلاك على كفرهم، والتقييد بالهداية يرشد إلى أن المراد بالمغفرة في قوله في الحديث الآخر: «اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1] العفو عما جنوه عليه في نفسه لا محو ذنوبهم كلها لأن ذنب الكفر لا يمحي، أو المراد بقوله «اغفر لهم» اهدهم إلى الإسلام الذي تصح معه المغفرة، أو المعنى اغفر لهم إن أسلموا، والله أعلم» انتهى.

---

(١) سبق تخريجه.

وقد ذهب الحافظ ابن حجر رضي الله عنه في الفتح إلى نوع من الجمع بين الترجمتين، فقال رضي الله عنه ج٦ ص١٢٦ في كتاب الجهاد: قوله (باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم) ذكر فيه حديث أبي هريرة في قدوم الطفيل بن عمرو الدوسي وقول النبي صلى الله عليه وسلم : «اللهم اهد دوسا»[1] وهو ظاهر فيما ترجم له، وقوله «ليتألفهم» من تفقه المصنف إشارة منه إلى الفرق بين المقامين، وأنه صلى الله عليه وسلم كان تارة يدعو عليهم وتارة يدعو لهم، فالحالة الأولى حيث تشتد شوكتهم ويكثر أذاهم كما تقدم في الأحاديث التي قبل هذا بباب، والحالة الثانية حيث تؤمن غائلتهم ويرجي تألفهم كما في قصة دوس»انتهى كلام الإمام ابن حجر.

قلت: على أنه قد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا للكفار حتى مع شدة أذاهم، كما حدث مع دوس عندما عصت وأبت وقدم «**الطفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله إن دوسا عصت وأبت، فادع الله عليهم، فقيل هلكت دوس. قال: اللهم اهد دوسا**».

وكما حدث في الطائف عندما ذهب لدعوتهم فسلطوا عليه السفهاء يضربونه صلى الله عليه وسلم بالحجارة..

---

(١) أخرجه الإمام البخاري (كتاب الجهاد والسير) «باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم» ج٤ ص٥٤، (كتاب الدعوات) «باب الدعاء للمشركين» ج٨ ص١٠٥، أخرجه الإمام مسلم في (فضائل الصحابة) «باب من فضائل غفار وأسلم وجهينة وأشجع ومزينة وتميم ودوس وطيء».

ومع ثقيف أيضًا بعد فتح مكة عندما كانوا محاربين وتحصنوا في ديارهم فلم يستطع المسلمون إليها سبيلاً، كما ورد عن جابر رضي الله عنه قال: قالوا يا رسول الله؟ أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم. قال: «**اللهم اهد ثقيفا**»[1]..

فلما دعا لهم النبي صلى الله عليه وسلم آمنوا وأسلموا وحسُن إسلامهم.

وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم للكفار في غزوة أُحُد بعدما شجوا رأسه وكسروا رباعيته بقوله «**اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون**»[2].

وهو ما أورده الإمام الطحاوي رحمه الله تعالى في مشكل الآثار ج٣ ص١٨٦ باب (بيان مشكل ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الاستغفار للمشركين من نهي وإباحة) فقال رحمه الله تعالى: (فكان) في ذلك ما قد دل أن الاستغفار لهم ما كان الإيمان مرجوا منهم ومحرم عليهم بعد أن يوئس منهم وذلك لا يكون إلا بعد موتهم.

وقال رحمه الله تعالى في ص١٨٦ عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله عز وجل: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾[3] قال وكان يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية فلما نزلت أمسكوا عن الإستغفار لأمواتهم ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا ثم أنزل الله: ﴿**وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ**﴾[4] **يعني استغفر له ما كان حيا فلما مات أمسك عن الاستغفار له**»انتهى كلام الإمام الطحاوي.

---

(١) رواه الإمام الترمذي ٣٩٤٢، ورواه الإمام أحمد في المسند ج٣ ص٣٤٣، وفي مشكاة المصابيح (كتاب الفضائل) «باب مناقب قريش وذكر القبائل».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سورة التوبة آية: ١١٣.

(٤) سورة التوبة آية: ١١٤.

قلت: قال العلماء ويجوز أن يكون الواعد إبراهيم عليه السلام، ويوافقه قراءة الحسن: ﴿**وعدها أباه**﴾ بالباء الموحـدة وذلك في قوله: ﴿**لأستغفرن لك**﴾ وعده أن يستغفر له رجاء إسلامه.

وقـيل: المراد من استـغفـار إبراهيم لأبيـه دعاؤه له إلى الإسـلام الموجب للغفران، وكان يتضـرع إلى الله تعالى أن يرزقه الإيمان، فلما تبين لإبراهيم علـيه السـلام أنه عـدو لله، إمـا بطريق الوحي، وإمـا بإصراره على الكفر، أو بموته على ذلك، تبرأ منـه وترك الاستغفار له **وهو ما أورده الإمام الشوكاني في تفسير الآية في فتح القدير عن ابن عبـاس قال: «لم يزل إبراهيم يستـغفر لأبيه حتـى مات، فلما مات تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه»انتهى.**

وقـال الإمـام الطحـاوي رحـمـه الله تعـالى في مـشكل الآثار ج٣ ص١٨٨: (وقد) روي عنه ﷺ في إباحة الاستـغفار لأحيائهم ما قد ثنا محمد بن علي بن داود قال ثنا إبراهيم بن حمزة الزبيري وإبراهيم ابن المنذر الحزامي قـالا ثنا محمـد بن فليح عن موسى بن عقـبة عن الزهري عن سـهل بن سعـد الساعـدي أن رسول الله ﷺ قـال: **«اللهم اغفر لقـومي فإنهم لا يعلمون» (ففي هذا الحديث) «استـغفاره لقومه الذين لا يعلمون فهم الذين لم يؤمنوا به ولـم يصدقوه»انتهى.**

قلت: كذلك دعا النبـي ﷺ للكفار بعدما كان يدعـو عليهم، وذلك عندما قتلوا القراء أصحـابه فدعا عليهم أولا ثم أنزل الله تعالى عليه ﴿**ليس لك من الأمر شيء**﴾ فكف عن ذلك ودعا لهم..

ودعا لعمـر بن الخطاب قبل إسلامه وعمـرو بن هشام أبي جهل رغم شدة أذاهما، فأصابت دعوته عـمر رضي الله عنه فأسلم وفاق كل أقرانه عدا أبي بكر، **فترجيح كون الدعاء للكفار هو آخر الحـالين من النبي ﷺ، له وجاهتـه وقوته، وهو قول عند الحـنابلة وذهب إليه ابن بطال فـيمـا سبق، نسـأل الله تعـالى أن يجعل من ألسـنتنا سبـيل هداية ورحمة ودعاء للشاردين والمعرضين، وأن يجعلنا على سنة سيد المرسلين صلوات الله وتسليماته عليه وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين. آمين..**

وقد ذهب **الأئمة** ﷺ إلى حرمة اللعن للعصاة المقصود به الإبعاد من رحمه الله تعالى، **واستحباب الدعاء لهم بالتوبة والمغفرة، على ما أورده الإمام البخاري (باب: ما يكره من لعن شارب الخمر، وأنه ليس بخارج من الملة).**

قال الحافظ ابن حجر في الفتح ج١٢ ص٧٧ معلقا على ترجمة الإمام البخاري: قوله (باب ما يكره من لعن شارب الخمر، وأنه ليس بخارج من الملة) يشير إلى طريق الجمع بين ما تضمنه حديث الباب من النهي عن لعنه وما تضمنه حديث الباب الأول «**لا يشرب الخمر وهو مؤمن**»[1] **وأن المراد به نفي كمال الإيمان لا أنه يخرج عن الإيمان جملة، وعبر بالكراهة هنا إشارة إلى أن النهي للتنزيه** في حق من يستحق اللعن إذا قصد به اللاعن محض السب لا إذا قصد معناه الأصلي وهو الإبعاد عن رحمة الله، فأما إذا قصده **فيحرم** ولاسيما في حق من لا يستحق اللعن كهذا الذي يحب الله ورسوله ولاسيما مع إقامة الحد عليه، **بل يندب الدعاء له بالتوبة والمغفرة كما تقدم تقريره في الباب الذي قبله في الكلام على حديث أبي هريرة ثاني حديثي الباب»انتهى كلام الحافظ ابن حجر.**

قلت: فانظر إلى قول الحافظ ﷺ أن النهي هنا بالكراهة للتنزيه في حق من يستحق اللعن، إذا قصد به اللاعن محض السب والشتم لمن يلعنه، لا أن يقصد به معناه الأصلي وهو الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى، فإن قصد به اللاعن المعني الأصلي وهو الطرد والإبعاد **فيحرم** خاصة في حق من لا يستحق اللعن بسبب حبه لله تعالى ورسوله ﷺ، أو بسبب إقامة الحد عليه. .

---

(١) أخرجه الإمام البخاري (كتاب الحدود) «باب ما يكره من لعن شارب الخمر».

وفي هذا الكلام تحذير كبير لمن يطلق اللعن وقد يكون قاصدا للمعنى الأصلي له وهو الإبعاد من رحمة الله تعالى والطرد، **فيقع في التحريم** وهو لا يشعر لما قد يكون من محبة الله تعالى ورسوله في قلب من يلعنه، أو غيرها من الحسنات العظيمات..

كذلك انظر إلى قول الحافظ رحمه الله تعالى «**بل يندب الدعاء له بالتوبة والمغفرة**» وفيه تأكيد استحباب الدعاء للعصاة ليتوب الله عليهم ويغفر لهم، وهو حال الأنبياء والمرسلين والدعاة المخلصين الصادقين مع أقوامهم، ومع المخالفين العصاة منهم.

وقد ذهب القاضي عياض رحمه الله تعالى إلى أن قول بعضهم بجواز لعن المعين ما لم يحد لأن الحد كفارة له، أن هذا غير سديد بل المنع من لعن المعين مطلقا سواء حد أم لا هو الصواب، وذلك لان الأحاديث قد ثبتت في النهي عن اللعن في الجملة سواء أكان معينا أم لا، فلأن تحمل هذه الأحاديث على النهي عن لعن المعين من باب أولى، بل إن لعن النبي ﷺ لأهل المعاصي كان على سبيل التحذير من الوقوع فيها، **فإذا وقعوا فيها وارتكبوها، استغفر لهم ودعا لهم بالتوبة**، حتى من شدَّد عليه النبي ﷺ ولعنه لارتكابه بعض المخالفات تأديبا له على ذلك، دخل في شرطه ﷺ حيث قال «**سألت ربي أن يجعل لعني له كفارة ورحمة**»، كيف لا وهو صلى الله عليه وسلم الرحمة المسداه والنعمة المهداه والصراط المستقيم..

وهاك كلام القاضي عياض بتمامه من فتح الباري ج١٢ ص٨٣

قال الحافظ ابن حجر «**وقال عياض**: جوز بعضهم لعن المعين ما لم يحد لأن الحد كفارة، قال: وليس هذا بسديد لثبوت النهي عن اللعن في الجملة فحمله على المعين أولى، وقد قيل أن لعن النبي ﷺ لأهل المعاصي كان تحذيرا لهم عنها قبل وقوعها، **فإذا فعلوها استغفر**

لهم ودعا لهم بالتوبة، وأما من أغلظ له ولعنه تأديبا على فعل فعله فقد دخل في عموم شرطه حيث قال «سألت ربي أن يجعل لعني له كفارة ورحمة» انتهى.

وهذا حديث الغلام الشاب الذي رفق به النبي ﷺ ودعا له حتى يطهر الله قلبه ويحصن فرجه، عندما طلب الإذن له في الزنا وهو ما رواه أبو أمامة قال: «**إن فتى شابا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ائذن لي بالزنا. فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه مه. فقال: ادنه. فدنا منه قريبا. قال: فجلس. قال: أتحبه لأمك؟! قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأمهاتهم. قال: أفتحبه لابنتك؟! قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لبناتهم. قال: أفتحبه لأختك؟! قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لأخواتهم. قال: أفتحبه لعمتك؟! قال: لا والله جعلني الله فداءك. قال ولا الناس يحبونه لعماتهم. قال: أفتحبه لخالتك؟! قال: ولا والله جعلني الله فداءك. قال: ولا الناس يحبونه لخالاتهم. قال: فوضع يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه. فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء**»[1].

قلت: فكان هدي النبي ﷺ الرفق والدعاء للعصاة أملا في إصلاحهم، وسعيا لنجاتهم، كما فعل ﷺ مع هذا الغلام الذي جاء يطلب الإذن له في الزنا، فدعا له النبي ﷺ بعد أن أرشده بقوله: «**اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه**»، فاستجاب الله

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند ج٥ ص٢٥٦، ٢٥٧، وقال الحافظ العراقي رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح.

تعالى لرسوله، وبارك له في نيته في طهارة قلب هذا الشاب، وحرصه ونصحه له، فتاب عز وجل عليه، ولم يكن شيء أبغض إليه من الزنا..

وقال شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر في فتح الباري ج١٢ ص٨٦ في تعليقه على حديث شارب الخمر: وفيه الرد على من زعم أن مرتكب الكبيرة كافر لثبوت النهي عن لعنه **والأمر بالدعاء له**. وفيه أن **لا تنافي بين ارتكاب النهي وثبوت محبة الله ورسوله في قلب المرتكب** لأنه ﷺ أخبر بأن المذكور يحب الله ورسوله مع وجود ما صدر منه **وأن من تكررت منه المعصية لا تُنزع منه محبة الله ورسوله**، ويؤخذ منه تأكيد ما تقدم أن نفي الإيمان عن شارب الخمر لا يُراد به زواله بالكلية بل **نفي كماله** كما تقدم، ويحتمل أن يكون استمرار ثبوت محبة الله ورسوله في قلب العاصي مقيدا بما إذا ندم على وقوع المعصية وأقيم عليه الحد فكفى عنه الذنب المذكور، بخلاف من لم يقع منه ذلك فإنه يخشى عليه بتكرار الذنب أن يُطبع على قلبه شيء حتى يسلب منه ذلك نسأل الله العفو والعافية. وفيه ما يدل على نسخ الأمر الوارد بقتل شارب الخمر إذا تكرر منه إلى الرابعة أو الخامسة» انتهى.

قلت: وفي الكلام السابق للحافظ ابن حجر النص على أن من السنة الأمر بالدعاء للعصاة والمذنبين، أملا في توبتهم، ورجاء انصلاحهم وعودتهم..

هذا وإن الداعي على العاصي قد حصّل مقصود الشيطان في ذلك وهو خزيه بخلاف من يدعو له بالهداية والتوبة، فإنه عند تحقق ذلك يتعلق الخزي بشيطانه، ويفر من مكانه، ويتبدل حال العاصي بعد توبة الله تعالى عليه ومغفرته له إلى العزة، والرفعة بالطاعة، والشرف بالإيمان **وهو ما أورده الحافظ ابن حجر في الفتح ج١٢ ص٦٨ قال الحافظ: في الرواية الأخرى «لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم»**[١] ووجه عونهم الشيطان بذلك أن الشيطان يريد بتزيينه له المعصية أن يحصل له الخزي فإذا دعوا عليه بالخزي فكأنهم قد حصلوا مقصود الشيطان. ووقع عند أبي داود من طريق ابن وهب عن حيوه بن شريح ويحيى بن أيوب وابن لهيعة ثلاثتهم عن يزيد بن الهاد نحوه وزاد في آخره «**ولكن قولوا: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه**»[٢] زاد فيه أيضا بعد الضرب «ثم قال رسول الله ﷺ لأصحابه بكتوه» وهو أمر بالتبكيت وهو مواجهته بقبيح فعله، وقد فسره في الخبر بقوله: «**فأقبلوا عليه يقولون له: ما اتقيت الله عز وجل، ما خشيت الله جل ثناؤه، ما استحيت من رسول الله ﷺ ثم أرسلوه**» وفي حديث عبدالرحمن بن أزهر عند الشافعي بعد ذكر الضرب «**ثم قال عليه الصلاة والسلام: بكتوه فبكتوه، ثم أرسله» ويستفاد من ذلك منع الدعاء على العاصي بالإبعاد عن رحمة الله كاللعن»انتهى كلام الإمام ابن حجر.**

---

(١) الإمام البخاري (كتاب الحدود) «باب ما يكره من لعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج من الملة»، ورواه الإمام أحمد في المسند ج١ ص٤٣٨، وفي كنز العمال «في الأخلاق والأفعال المحمودة» ح رقم ٥١٨٦.

(٢) رواه الإمام أبو داود (كتاب الحدود) «باب في الحد في الخمر» ج٢ ص٥١٥.

قلت: وفي الرواية عـند أبي داود: «**ولكن قولوا اللهم اغـفر له، اللهم ارحمه**» **دليل استحباب الدعاء للعاصين المعرضين، وأن هذا كان توجيه النبي ﷺ لصحابته**، حيث إن انتفاء كمال الإيمان عن العاصي إنما هو حالة ارتكابه للمعـصية، وما سوى هذه الحالة فـهو مؤمن له كل حـقوق أهل الإيمان، من الدعـاء لهم والحرص عليـهم، **وهو ما قرره شـيخ الإسلام ابن حجر العـسقلاني في فـتح الباري ج١٢ ص٦٠ قوله (لا يزني الزاني حـين يزني وهو مـؤمن)[١] قال الحافظ: قـيد نفي الإيمان بحالة ارتكابه لهـا، ومقتضـاه أنه لا يستمر بعد فـراغه، وهذا هو الظاهر**» انتهى.

---

(١) رواه الإمام البخـاري (كتاب الحدود) «باب ما يكره من لعن شـارب الخمر» ج٨ ص١٩٥.

حديث البخاري ومسلم

في حكمة

عمل أهل الدعوة

في نقل العصاة من أماكن معصيتهم

لقد كان الحث في حديث شارب الخمر على الحرص على العصاة، وعدم اليأس منهم، لكون معصيتهم لا تتنافى مع محبة الله ورسوله، بل قد يعصى الإنسان وفي قلبه من محبة الله ورسوله ما الله به عليم، وما ليس عند كثير من الطائعين، ولكن قد تعرض للإنسان كبوة، في معصية من المعاصي، يتلبس بها ويفعلها، ومحبة الله تعالى ورسوله ﷺ في قلبه على الغاية العظمى..

فهذا إن وَجَد من يقيمه ويقيله، من هذه العسرة انطلقت به هذه المحبة إلى ذرى القرب والطاعات، فأخذ منها النصيب الأوفى، فقط إن وجد من يحرص عليه وينصح..

كما يفعل أهل الدعوة مع العصاة والمذنبين، من ترغيبهم في الطاعة ونصحهم والحرص عليهم، لا كما يفعله غيرهم من إقناطهم من معاصيهم، وهجرهم والغلظة عليهم وإبعادهم، فيزدادون بعدا مع بعد، ويظنون أن الباب لا يصلح لدخول أمثالهم، فيقعون في الآثام، ويلوثون المكان، حتى يأتيهم من يفتح لهم باب التوبة واسعا رحيبا، فيدلفون منه إلى أرحم الراحمين، باسط اليدين بالليل ليتوب مسيء النهار، وباسط اليدين بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها..

وإنما يكفي هؤلاء العصاة المنصرفين عن الطاعات، المرتكبين للمنهيات، أن يهجروا أماكن معصيتهم **وينتقلوا إلى بيئة صالحة نقية،** تبعدهم عما اعتادوه في أمكانهم من الغفلة والفسق والفجور، ويصحبهم في هذه البيئة الصالحة أناس مؤمنون موقنون، يلقون عليهم الآيات البينات، والأحاديث الشريفات، فتشرق النفوس، وتضيء الأرواح، وإذا الفاسق في حقيقة الأمر تقيا، وإذا الفاجر صار طائعا نقيا..

وهذا هو هدي النبي صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم في تأكيد ذلك، حيث أمر ﷺ بالإنتقال من الأماكن التي تحصل فيها الغفلة عن عبادة من العبادات، والتحول من هذه الأرض إلى بقاع أخرى، تُقام فيها العبادة، وتؤدى على أكمل ما يكون. .

وهو ما رواه الإمام البخاري رحمه الله عن عمران رضي الله عنه قال: كنَّا في سَفَر معَ النبي ﷺ، وإنَّا أسرينا حتى إذا كنَّا في آخر اللَّيل وَقَعْنا وَقعةً ولا وَقعةَ أحْلى عندَ المُسافر منها، فما أَيْقظَنا إلاَّ حرُّ الشَّمس، وكان أوَّل مَن استيقظَ فُلانٌ ثمَّ فُلانٌ ثمَّ فلان ـ يسمِّيهمْ أبو رَجاء فنَسي عَوفٌ ـ ثمَّ عُمرُ بنُ الخَطَّاب الرَّابعُ، وكان النَّبيُّ ﷺ إذا نامَ لَمْ يُوقَظْ حتى يَكونَ هُوَ يَسْتيقظُ لأَنَّا لا نَدري ما يَحدُثُ لهُ في نَومه. فلمَّا استَيقظَ عمرُ ورأى ما أصابَ النَّاسَ ـ وكانَ رجُلاً جَليداً ـ فَكَبَّرَ ورَفَعَ صوتَهُ بالتكبير، فما زالَ يُكبِّرُ ويَرْفعُ صوتَهُ بالتكبير حتى اسْتَيقَظَ بصوته النَّبيُّ ﷺ، فلمَّا استيقظَ شكَوْا إليه الذي أصابَهمْ، قال: لا ضَيرَ ـ أو لا يَضيرُ ـ ارتحلوا. فارتحلَ، فسارَ غيرَ بَعيد، ثمَّ نزلَ فدَعا بالْوَضوء فتوَضَّأَ، ونُوديَ بالصّلاة فصلَّى بالناس».

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى **في فتح الباري ج١ ص٥٣٦:** «وقد بين مسلم من رواية أبي حازم عن أبي هريرة السبب في الأمر بالإرتحال من ذلك الموضع الذي ناموا فيه ولفظه «**فإن هذا منزل حضرنا فيه الشيطان**» ولإبي داود من حديث ابن مسعود «**تحولوا عن مكانكم الذي أصابتكم فيه الغفلة**».

وقال الحافظ رحمه الله تعالى في شرحه على هذا الحديث **ص٥٣٧:** بعد ذكر فائدة عن الإمام القرطبي: «**وقال غيره: يؤخذ منه أن من حصلت له غفلة في مكان عن عبادة استحب له التحول منه، ومنه أمر الناعس في سماع الخطبة يوم الجمعة بالتحول من مكانه إلى مكان آخر**»انتهى.

قلت: وهذا في حقيقته عمل أهل الدعوة مع العصاة والمذنبين، حيث يذهبون بهم من أماكن الغفلة، إلى خير البيئات وأفضل البقاع وهي المساجد، مع كلام الله تعالى وأحاديث رسوله ﷺ ورفقة الإيمان، وأعمال الإيمان، ومنهج الإيمان، فتتبدل أحوالهم ويصلح الله تعالى شأنهم وقلوبهم، وتعرف التوبة والهداية الطريق إليهم..

وهذا ما حدث أيضًا مع **قاتل التسعة والتسعين نفسا**، حينما تاقت نفسه إلى الهداية والتوبة، فسأل راهبا عن ذلك، فأخبره أنه ليس له توبة، وأغلق أمامه أبواب الإيمان، والإنابة والاستقامة، وقنَّطه من رحمة ربه، ومن عفو العَفُوِّ، ومغفرة الغفور، فيأس من ذلك وقتله، فأكمل به المائة، وزاده بكلامه شرا على الشر الذي كان عنده، فأقدم على قتله لذلك..

ولكن لما كانت فطرة الإيمان صادقة فيه، بحث وفحص حتى دُلَّ على عالم، فذهب إليه يستفتيه ويسترشده، هل له توبة؟، فكان جواب العالم غير جواب العابد، حيث رغَّبه في الإيمان، وحثه على التوبة، وفتح له الأفق واسعا إلى رحمة أرحم الراحمين، فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوءٍ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فنأى بصدره نحو القرية الصالحة، وجاءته ملائكة الموت تقبض روحه، فاختصموا فيه، فقالت ملائكة العذاب، إنه قتل مائة نفس، ولم يفعل خيرا قط، وقالت ملائكة الرحمة، بل جاء تائبا إلى ربه، فأتاهم الملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم حكمًا، فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أرادَ

فقبضتـه ملائكة الرحمة، وفي رواية: «فأوحى الله إلى هـذه أن تقربي، وأوحى الله إلى هذه أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجدا إلى هذه أقرب بشبر فـغفر له» فقبـضت روحه ملائكة الرحمـة وكان من أهل الجنة، وهاك نـص الحـديث: عن أبي سـعيـد سـعد بن مـالك بن سنان الخدري ﷺ أن نبيَّ الله ﷺ قال: كان فيمن كـان قبلكم رجل قتلَ تسعة وتسعين نفسًـا فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فـأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فـهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فـدلَّ على رجلٍ عالمٍ فقال: إنه قـتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقـال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكـذا فإن بها أنـاسًا يعبـدون الله تعالى فاعـبد الله معـهم ولا ترجع إلى أرضك فـإنهـا أرض سـوء فـانطلق حـتى إذا نصف الطـريق أتاه الموت فاختـصمت فيه مـلائكة الرحمة وملائكة الـعذاب فقالت ملائكـة الرحمة: جاء تائبًـا مقبلا بقلبـه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العـذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فـأتاهم ملك في صورة آدميّ فجعلوه بينهم - أي حكمًـا - فقال: قيسوا ما بينَ الأرضين فإلى أَيتهمـا كانَ أدنى فهوَ له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضتهُ ملائكةُ الرحمةِ» متفق عليه[1].

وفي رواية في الصحـيح: «فكان إلى القرية الصالحـة بشبرٍ فـجعلَ من أهلها» وفي رواية في الصحيح «فأوحى اللهُ تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقرَّبي وقال: قـيسوا ما بينهمـا، فوجدُوه إلى هذه أقربَ بشبرٍ فـغفرَ له». وفي رواية: «فنأى بصدرهِ نحوها».

---

(١) رواه الإمام الـبخاري (كـتاب أحـاديث الأنبيـاء)، ورواه الإمام مـسلم، وفي كنز العمال (كتاب التوبة) ج٤ ص٢٠٢ ح رقم ١٠١٥٧.

قلت: وهذا المعنى وهو تغيير البيئة والصحبة للعصاة والمذنبين، رجاء توبتهم وهدايتهم الذي هو روح عمل أهل الدعوة، هو الذي ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري في شرح هذا الحديث ج٦ ص٥٩٧:

قال الإمام ابن حجر: وفي الحديث مشروعية التوبة من جميع الكبائر حتى من قتل الأنفس، ويحمل على أن الله تعالى إذا قبل توبة القاتل تكفل برضا خصمه. وفيه إن المفتي قد يجيب بالخطأ، وغفل من زعم أنه إنما قتل الأخير على سبيل التأول لكونه أفتاه بغير علم لأن السياق يقتضي أنه كان غير عالم بالحكم حتى استمر يستفتي وأن الذي أفتاه استبعد أن تصح توبته بعد قتله لمن ذكر أنه قتله بغير حق، وأنه إنما قتله بناء على العمل بفتواه لأن ذلك اقتضى عنده أن لا نجاة له فيئس من الرحمة، ثم تداركه الله فندم على ما صنع فرجع يسأل. وفيه إشارة إلى قلة فطنة الراهب، لأنه كان من حقه التحرز ممن اجترأ على القتل حتى صار له عادة بأن لا يواجهه بخلاف مراده وأن يستعمل معه المعاريض مداراة عن نفسه، هذا لو كان الحكم عنده صريحًا في عدم قبول توبة القاتل فضلا عن أن الحكم لم يكن عنده إلا مظنونًا. وفيه أن الملائكة الموكلين ببني آدم يختلف اجتهادهم في حقهم بالنسبة إلى من يكتبونه مطيعًا أو عاصيًا. وأنهم يختصمون في ذلك حتى يقضي الله بينهم، **وفيه فضل التحول من الأرض التي يصيب الإنسان فيها المعصية لما يغلب بحكم العادة على مثل ذلك إما لتذكره لأفعاله الصادرة قبل ذلك والفتنة بها وإما لوجود من كان يعينه على ذلك ويحضه عليه، ولهذا قال له الأخير: ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، ففيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية والتحول منها كلها والاشتغال بغيرها،**

وفيه فضل العالم على العابد لأن الذي أفتاه أولا بأن لا توبة له غلبت عليه العبادة فاستعظم وقوع ما وقع من ذلك القاتل من استجرائه على قتل هذا العدد الكثير، وأما الثاني فغلب عليه العلم فأفتاه بالصواب ودله على طريق النجاة، قال عياض: وفيه أن التوبة تنفع من القتل كما تنفع من سائر الذنوب، وهو وإن كان شرعًا لمن قبلنا وفي الاحتجاج به خلاف لكن ليس هذا من موضع الخلاف لأن موضع الخلاف إذا لم يرد في شرعنا تقريره وموافقته، أما إذا ورد فهو شرع لنا بلا خلاف، ومن الوارد في ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾[1] وحديث عبادة بن الصامت ففيه بعد قوله ولا تقتلوا النفس وغير ذلك من المنهيات «**فمن أصاب من ذلك شيئًا فأمره إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه**»[2] **متفق عليه**. **قلت**: ويؤخذ ذلك أيضا من جهة تخفيف الآصار عن هذه الأمة بالنسبة إلى من قبلهم من الأمم، فإذا شرع لهم قبول توبة القاتل فمشروعيتها لنا بطريق الأولى»انتهى كلام الحافظ ابن حجر.

قلت: فانظر إلى قول الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى «وفيه فضل التحول من الأرض التي يصيب الإنسان فيها المعصية لما يغلب بحكم العادة على مثل ذلك إما لذكره لأفعاله الصادرة قبل ذلك والفتنة بها وإما لوجود من كان يعينه على ذلك ويحضه عليه، ولهذا قال له الأخير: ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، ففيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية والتحول منها كلها والاشتغال بغيرها»انتهى.

---

(١) سورة النساء آية: ١١٦.

(٢) رواه الشيخان الإمام البخاري ومسلم.

وهـذا نفسـه مـا يقـوم به أهـل الـدعـوة مع العـصـاة والمذنبـين، حـيث يفـارقون بهم بعيدا عن الأحـوال التي اعتادوها في زمن الغفلة أو المعصـية، والانتـقال بهم مع أعـمال الإيمان، ورفقـة الإيمان، ومنهج الإيمان، فتـتغيـر نفوسهم، وتضيء أرواحـهم، ويلمع فيـهم جوهرهم، ومثل هـذا ما أكده الشـارع في عقـوبة الزاني غيـر المحصن، حـيث إنه يجلد مـائة ويغرب لمدة عام، حـتى يبتـعد عن الأماكـن والأحوال التي عـصى الله تعالى من خـلالها، ويـعود وقـد تاب الله عز وجل عليـه من ذلك، بعد تغير نفسه وانحباسها عن مكان معصيتها.

الولاء المذموم

مع الكفار مُقَيَّدٌ باعتقاد مُعتَقَدِهم، والرِّضا بأفعالهم

نص أئمة الإسلام ﷺ على أن الولاء المذموم للمؤمن مع الكافر مقيد باعتقاد معتقد الكافرين والرضى بأفعالهم، أما لو كان اعتقاد الإسلام هو الراسخ في القلب، يقينا ثابتا، وكراهة أفعال الكفار وعدم الرضى بها هو حال هذا القلب، فالإيمان حينئذ ثابت لمن تيقن فؤاده بعقيدة الإسلام، وكره قلبه أفعال الكفار، وكان الحامل على اتصاله بهم، حرصه على هدايتهم وإسلامهم، وشفقته عليهم ونصحهم، كما هو حال الدعاة، مع المعرضين الشاردين.

قال العلامة القرطبي في تفسيره ج٤ ص٢٢٥١: «قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾[1].

(يدل بهذا على أن من اتخذ كافرا وليا فليس بمؤمن إذا اعتقد اعتقاده ورضى أفعاله) انتهى كلام الإمام القرطبي.

فقد نص هذا الإمام الجليل على القيد المحكم للولاء المذموم مع الكفار، وهو اعتقاد معتقد الكافرين الذي هو منافي لاعتقاد المسلمين، والرضى بأفعالهم التي تتصادم مع شرع الإسلام..

وفي هذا القيد من الفقه والفهم ما يتسع لكثير من المعاملات التي تكون بابا لوصول الهداية إلى الكفار، مع عدم اندراجها تحت الولاء المذموم، لكون صاحبها لا يرضى بأفعال الكافرين، ويكفر بمعتقدهم..

وقال العلامة ابن كثير في تفسيره ج١ ص٥٦٦ في قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[2] يعني أن المنافقين من هذه الصفة فإنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين بمعنى أنهم معهم في الحقيقة يوالونهم ويسرون

---

(١) المائدة آية: ٨١.

(٢) النساء آية: ١٣٨.

إليـهم بالمودة ويقـولون لهم إذا خلوا بهـم إنما نحن مـعكم إنما نحن مستـهزئون أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقـة قال الله تعالى منكرا عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين: **﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾**[1] ثم أخبر الله تعـالى بأن العزة كلها له وحده لا شريـك له ولمن جعلها له كمـا قال الله تعـالى في الآية الآخرى **﴿من كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾**[2] وقال تعالى: **﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾**[3] والمقصود من هذا التهييج على طلب العزة من جناب الله والإقبـال على عبوديتـه والانتظام في جملة عبـادة المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد»انتهى كلام ابن كثير.

قلت: فانظر إلى قول العـلامة الإمام ابن كثير رحـمه الله تعالى **«ثم وصـفهم بأنهم يتـخذون الكافـرين أوليـاء من دون المؤمنين بمعنى أنهم معهم في الحقيقة يوالونهم ويسرون إليهم بالمودة ويقولون لهم إذا خلوا بهم إنما نحن معكم إنما نـحن مستهـزئون أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة»** وكيف أشار رضي الله عنه على القـيد في الولاء المذموم باعتقـاد معتقدهم والرضـا بأفعالهم، وأن ذلك كان كائنًا فـيهم، فهم معـهم على الحقيـقة يوالونهم ويسـرون إليهم بالمودة والرضـا عليهم، ويقولون لهم سرا إنما نحن معكم..

أي معتـقدنا في الباطن مـعتقدكم وهو الكفـر بالإسلام، وإن كنا نُظهر خلاف هذا، وندعي الموافقة للمؤمنين..

ونحن راضون بكل أفعالكم، لذلك قـال الله تعالى منكرا عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين الولاء المذموم الكامل الشامل لاعتقاد معتـقدهم والرضا بأفعالهم فـقال تعالى: **﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ﴾** ثم

---

(١) سورة النساء آية: ١٣٩.
(٢) سورة فاطر آية: ١٠.
(٣) سورة المنافقون آية: ٨.

أخبر سبحانه وتعالى أنّ العلو والتمكين والنصرة والعزة كلها له وحده لا شريك له ولمن قـدَّرها له ووهبه إياها قـال تعالى: **﴿من كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾**.

وقال **العـلامة القـاسمي ج٤ ص٨٢٤** في تفسير الآية: **﴿لا يَتَّخِذ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾**: (فـحـصل من هذا أن المـوالي للكافـر والفاسق عـاص، ولكن أين تبلغ معصيـته؟ **يحتـاج إلى تفصـيل: إن كـانت الموالاة بمعنى المودة، وهي أن يوده لمعـصيـته كـان ذلك كالرضـا بالمعصـية وإن كانت الموالاة كـفرا. كفر. وإن كـانت فسقـا، فسق. وإن كانت لا توجب كفرا ولا فسقا، لم يكفر ولم يفسق)انتهى.**

قلت: وقد بين الإمام النيسابوري هذه الآية موضحًا أحكام الموالاة وقيودها فـقال رحمه الله: (وكون المؤمن مـواليا للكافر يحـتمل ثلاثة أوجه: **أحدها: أن يكون راضيا بكفـره، والرضا بالكفر كفر. فيـستحيل أن يصـدر عن المؤمن**، فـلا يدخل تحت الآية لقـوله: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وثانيها: المعاشرة الجميلة** في الدنيا بحسب الظاهر، **وذلك غير ممنوع** منه. **والثـالث: كـالمتـوسط بين القـسمين، وهو الركـون إليـهم، والمعونة والمظاهرة لقرابة أو صداقة قبل الإسلام** أو غير ذلك ولهذا قال مقاتل: نزلت في حاطب بن أبي بلتعـة وغيره، وكانوا يظهرون المودة لكفار مكة **مع اعـتقـاد أن دينهم باطل، فـهذا لا يوجب الكفـر، إلا أنه منهي عنه** حذرا من أن يجرَّه إلى استحسان طريقته **والرضا بدينه، حتى يخصـه بالموالاة دون المؤمنين** فلا جرم هـدد فقال: **﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ﴾** أي من ولايتـه أو من دينه **﴿فِي شَيْءٍ﴾** يقع عليه اسم الولاية)انتهى.

أقول: أما مع المسلمين، فالولاء المذموم مقيد بالرضا بأفعال المخالفين لأوامر الدين، قال النبي ﷺ: «إنه يستعمل عليكم أُمراء فتعرفون وتنكرون فمن كرهَ فقد برئَ ومن أنكر فقد سلم ولكن مِن رضي وتابع» قالوا: يا رسول الله، ألا نقاتلهم؟ قال: «لا ما أقاموا فيكم الصلاة» رواه مسلم.

قال الإمام النووي في رياض الصالحين معناه: «من كره بقلبه ولم يستطع إنكارًا بيدٍ ولا لسانٍ فقدْ برئَ منَ الإثم وأدّى وظيفتهُ ومن أنكر بحسب طاقته فقد سلم من هذه المعصية ومن رضي بفعلهم وتابعهم فهو العاصي»انتهى.

وقال رضي الله عنه في شرح صحيح مسلم ج١٢ ص٢٤٣: «وقوله صلى الله عليه وسلم (ولكن من رضي وتابع) معناه: ولكن الإثم والعقوبة على من رضي وتابع وفيه دليل على أن من عجز عن إزالة المنكر لا يأثم بمجرد السكوت بل إنما يأثم بالرضا به أو بأن لا يكرهه بقلبه أو المتابعة عليه»انتهى.

قلت: فبرأ النبي ﷺ من كره المنكر بشروطه وقيوده، وأضاف السلامة إلى من أنكر المنكر ولو لم يغيره، وأخبر ﷺ أن الخوف والإثم على من رضى بالمنكر وفعله، وتابع المفسدين في منكرات الدين، وكذلك منهج النبوة والدعوة، في معاملة غير الطائعين، بالحرص والشفقة والنصح لهم، مع كراهية ما يفعلون..

فيكرهون الفعل لا الفاعل، والمعصية لا العاصي، والكفر لا الكافر، وهذا الذي نص عليه العلامة الجصاص ج٢ ص٤٦ أن الولاء المذموم مقيد بالرضا بأفعال المجرمين فقال رحمه الله تعالى: وقد نسب الله تعالى قتل الأنبياء المتقدمين إلى من كان في عصر النبي ﷺ من اليهود الذين كانوا متوالين لأسلافهم القاتلين لأنبيائهم، بقوله:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾[1]، وبقوله ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2]، فأضاف القتل إليهم وإن لم يباشروه ولم يقتلوه **إذ كانوا راضين بأفعال القاتلين**، فكذلك ألحق الله تعالى من لم ينه عن السوء من أصحاب السبت بفاعليه، إذ كانوا به **راضين** ولهم عليه متوالين. فإذا كان مُنْكِرًا للمنكر بقلبه ولا يستطيع تغييره على غيره فهو غير داخل في وعيد فاعليه بل هو ممن قال الله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[3].

قلت: فانظر إلى قوله رحمه الله تعالى: (فأضاف القتل إليهم وإن لم يباشروه ولم يقتلوه إذ كانوا راضين بأفعال القاتلين) كيف أكد رحمه الله تعالى فيه على القيد في الولاء المذموم وهو الرضا بأفعال المخالفين العاصين، حيث أضاف الله تعالى القتل إلى غير القاتلين وإن لم يباشروه ولم يقتلوه **لمجرد رضاهم بقتل القاتلين، وفعل المجرمين..**

كما أشرك الله تعالى في العقوبة الذين لم ينكروا المنكر من أصحاب السبت بالذين اعتدوا فيه، لرضاهم به، وتواليهم عليه فأصابهم على ذلك العذاب البئيس، وأنجى الله تعالى الذين ينهون عن السوء فقط.

وقال العلامة القرطبي في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾[4] «أي عقرها الأشقى وأضيف إلى الكل لأنهم رضوا بفعله»انتهى.

قلت: فنص رضي الله تعالى عنه على القيد في **الولاء المذموم وهو الرضى بأفعال الأشقياء المجرمين..**

---

(1) سورة آل عمران آية: ١٨٣.
(2) سورة البقرة آية: ٩١.
(3) سورة المائدة آية: ١٠٥.
(4) سورة الشمس آية: ١٤.

وأكد ذلك العلامة القرطبي أيضا في المفهم شرح صحيح مسلم ج٤ ص٦٤ قال: (قوله: «ومن أنكر فقد سلم» أي: بقلبه، بدليل تقييده بذلك في الرواية الأخرى. أي: اعتقد الإنكار بقلبه، وجزم عليه بحيث لو تمكن من إظهار الإنكار لأنكره. ومن كان كذلك فقد سلم من مؤاخذة الله تعالى على الإقرار على المنكر. وهذه المرتبة هي رتبة من لم يقدر على تغيير المنكر لا باللسان، ولا باليد، وهي التي قال فيها ﷺ: «وذلك أضعف الإيمان» وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل و(قوله: «ولكن من رضى وتابع») أي: من رضى المنكر وتابع عليه هو المُؤَاخَذُ، والمعاقب عليه، وإن لم يفعله) انتهى.

قلت: وهذا القيد في الولاء المذموم وهو الرضا بأفعال العاصين، هو الذي نص عليه الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود فيما رواه ابن أبي شيبة وأبو نعيم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «إذا رأيت المنكر فلم تستطع له تغييرا فحسبك أن يعلم أنك تكره بقلبك»[1].

وأورد الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ج٧ ص٢٩٣ (باب فيمن كره الفتن ومن رضي بها).

عن الحسين يعني ابن علي ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ قال: «من شهد أمراً فكرهه كان كمن غائب عنه ومن غاب عن أمر فرضي به كان كمن شهده»[2].

---

(١) كنز العمال ج٢ ص١٤٠.

(٢) مجمع الزوائد (باب فيمن كره الفتن ومن رضي بها) ج٧ ص٢٩٣، قال الحافظ الهيثمي رواه أبو يعلى وفيه عمر بن شبيب وثقه ابن معين في رواية وضعفه الجمهور وكذلك يوسف بن ميمون الصباغ وثقه ابن حبان وغيره وضعفه الجمهور ومنصور ابن أبي مزاحم ثقة.

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو نعيم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**إن الرجل يشهد المعصية يُعمل بها فيكرهها فيكون كمن غاب عنها، ويغيب عنها فيرضاها فيكون كمن شهدها**» وعند أبي نعيم وابن النجار عنه قال: **ستكون أمور فمن رضيها ممن غاب كان كمن شهدها ومن كرهها ممن شهدها فهو كمن غاب عنها**[1].

فانظر إلى قوله رضي الله عنه «إن الرجل يشهد المعصية يعمل بها فيكرهها فيكون كمن غاب عنها»، كيف قرر فيه أن كراهة المعصية، تخرج الإنسان من الوقوع في حد الولاء المذموم، وأن الرضا بها يوقع في هذا الحد، حتى أن من رضى بالمعصية وهو غائب عنها يكون كمن شهدها..

فمن عرف المعروف وأحبه ورضي به فهو مع صاحب هذا المعروف من الصالحين، ومن لم يعرف المعروف ولم يحبه فهو من أهل الشك..

ومن عرف المنكر وكرهه فهو بريء من هذا المنكر، ومن لم يعرف المنكر ولم ينكره أو يكرهه فهو من أهل الريب..

وكذلك أخرج أبو نعيم في الحلية ج١ ص١٣٥ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «يذهب الصالحون أسلاخا ويبقى أهل الريب من لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا»[2].

وهذا هو القلب المنكوس المنقلب رأسا على عقب، والمتقلب في الولاء والبراء المذموم، حيث يدفعه عدم معرفته بالمعروف إلى الزهد فيه، كذلك جهله بالمنكر إلى موالاة فاعليه، وهذا الوصف هو نص

---

(١) كنز العمال ج٢ ص١٤٠.

(٢) مجمع الزوائد ج٧ ص٢٨٣ وقال الحافظ الهيثمي رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ وهو ما أخرجه مسدد والبيهقي وصححه عن علي قال: «الجهاد ثلاثة: جهاد بيد، وجهاد بلسان وجهاد بقلب، فأول ما يغلب عليه من الجهاد جهاد اليد ثم جهاد اللسان ثم جهاد القلب، فإذا كان القلب لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا نكس وجعل أعلاه أسفله».

قلت: وقد ظن البعض أن الأمر في مجمله يدور فقط على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كيفما قُدّر وعلى أي وجه كان، ولم يدر أن النجاة في معرفة المعروف أولا، ثم الرضا به، ثم فعله، ثم الأمر به، وفق شروطه وأركانه وحدوده..

أورد الحافظ الهيثمي رحمه الله في مجمع الزوائد ج٧ ص٢٨٣ (باب قهر السفيه الحليم) عن عبدالله بن عمر ﷺ أنه حدث عن النبي ﷺ قال: ضاف ضيف رجلاً من بني إسرائيل وفي داره كلبة مجح[١] فقالت الكلبة: والله لا أنبح ضيف أهلي فعوى جراؤها في بطنها. قال: ما هذا؟ قال: أوحي إلى رجل منهم هذا مثل أمة تكون من بعدكم يقهر سفهاؤها حلماءها»[٢].

قلت: وهذا هو الحادث من بعض المتحمسين، الذين يتقدمون في مسائل الشرع على أئمة الدين، فنرى حديثي الأسنان، يعلنون العصيان، على أصول شرعنا، وثوابت ملتنا، وهدي أئمتنا، وسكت الفقهاء الحلماء، وعلت الحدثاء الغوغاء، وصدق ما أخبر النبي ﷺ فينا، بقهر هؤلاء الحدثاء للفقهاء الحلماء منا..

---

(١) المجح: الحامل المقرب التي دنا ميلادها.

(٢) رواه أحمد والطبراني والبزار.

كذلك المنكر الشأن فيه يدور على معرفته، ثم بغضه وكراهيته، ثم الانتهاء عنه، ثم الأمر باجتنابه والنهي عنه، أيضا وفق حدوده وشروطه وأركانه وقيوده، فمن لم يعرف المعروف وينكر المنكر فقد هلك..

وهو ما أخرجه الطبراني عن طارق بن شهاب قال: جاء عتريس ابن عرقوب الشيباني **إلى عبدالله** ﷺ **فقال: «هلك من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر، فقال: بل هلك من لم يعرف المعروف وينكر المنكر»**[1].

قلت: فإذا عرف القلب المعروف وكان من أهله في الدنيا، وتعاون مع الساعين لنشره على البر والتقوى، وهجر وكره ونهى عن الإثم والعدوان، فإن الله تعالى يمن عليه بأن يجعله من أهل هذا المعروف في الآخرة..

قال الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد (باب في أهل المعروف وأهل المنكر) عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل المعروف في الدنيا، أهل المعروف في الآخرة وأهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة»[2].

---

(١) مجمع الزوائد (باب الإنكار بالقلب) وقال الحافظ الهيثمي ج٧ ص٢٧٨: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٢) مجمع الزوائد (باب في أهل المعروف وأهل المنكر) ج٧ ص٢٦٦ وقال الحافظ الهيثمي: رواه الطبراني في الصغير ورجاله وثقوا وفي بعضهم كلام لا يضر.

البراءة في منهج الأنبياء

بعد إقامة الحُجَّة الرِّسالية

التي يُكفَّر تاركُها وبعد دعوتهم

الدعوة التامة الكاملة

فإن قيل فإن الله تعالى قد أمرنا بأن نتأس بالخليل عليه الصلاة والتسليم والذين معه في البراءة من قومهم، وذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[1].

فالجواب على ذلك نقول: إن حالنا خلاف حال الخليل إبراهيم عليه السلام، ومن ثم فالحكم معنا بخلاف الحكم معه، وبالإجابة على ما يأتي يُعرف الفرق بيننا وبين الخليل إبراهيم عليه السلام..

والسؤال هو متى تبرأ الخليل إبراهيم عليه الصلاة والتسليم والذين معه من أقوامهم؟ ومن ثم كفروا بهم، وبدا بينهم العداوة والبغضاء أبدا..

بعد إقامة الحجة الرسالية التي يكفر تاركها؟ أم قبل إقامة هذه الحجة؟

بعد دعوة قومه، أم قبل دعوتهم؟، وبعد حرصه التام على أئمة الكفر منهم، ونصحه لهم ومنهم أباه صانع الأصنام، أم قبل ذلك؟، وبعد دفاعه عن الشذاذ المجرمين منهم، لرفع العذاب عنهم، حتى أُمر بالإعراض عن هذا، أم قبل ذلك؟

نقول: إن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والتسليم إنما تبرأ هو والذين آمنوا معه من أقوامهم، بعد إقامة الحجة الرسالية التي يكفر تاركها عليهم، وهذا ما أخبر به المولى تبارك وتعالى في كتابه، حكاية عن إبراهيم عليه السلام، أنه قد منّ عليه بالهداية والأمن، وآتاه الحجة التي أقامها على قومه، تفضلا منه سبحانه وتعالى عليه، ورفعا لدرجته لديه، لأنه سلّم قلبه للرحمن، ولسانه للبرهان، وبدنه للنيران، وولده للقربان، وماله للضيفان..

---

(١) سورة الممتحنة آية: ٤.

فاحتج الله عز وجل على مشركي العرب بأحواله عليه السلام، لكونه مُقدما محبوبًا عند جميع الطوائف، فهو سبحانه الحكيم العليم يُقدِّر ما يشاء، ويقضي ما يريد، فقال عز وجل حاكيا عن إبراهيم عليه السلام، وهو يقيم الحجة على قومه: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1].

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية ج٢ ص١٥٢:

(يقول تعالى مخبرًا عن خليله إبراهيم حين جادله قومه فيما ذهب إليه من التوحيد وناظروه بشبه من القول أنه قال ﴿أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ أي تجادلونني في أمر الله وأنه لا إله إلا هو وقد بصرني وهداني إلى الحق وأنا على بينة منه فكيف ألتفت إلى أقوالكم الفاسدة وشبهكم الباطلة وقوله ﴿وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي ومن الدليل على بطلان قولكم فيما ذهبتم إليه أن هذه الآلهة التي تعبدونها لا تؤثر شيئا وأنا لا أخافها ولا أباليها فإن كان لها كيد فكيدوني بها ولا تنظرون بل عاجلوني بذلك. وقوله تعالى ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناء منقطع أي لا يضر ولا ينفع إلا الله عز وجل ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي أحاط علمه بجميع الأشياء فلا يخفى

---

(١) سورة الأنعام آية: ٧٨: ٨٣.

عليه خافية ﴿أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي فيما بينته لكم أفلا تعتبرون أن هذه الآلهة باطلة فتنزجروا عن عبادتها وهذه الحجة نظير ما احتج بها نبي الله هود عليه السلام على قومه عاد فيما قص عنهم في كتابه حيث يقول: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾[1] الآية، وقوله: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ أي كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله: ﴿وَلا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ قال ابن عباس وغير واحد من السلف أي حجة وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ وقوله: ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي فأي الطائفتين أصوب: الذي عبد من بيده الضر والنفع أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة لا شريك له قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي هؤلاء الذي أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له ولم يشركوا به شيئا هم الآمنون يوم القيامة المهتدون في الدنيا والآخرة﴾انتهى كلام الإمام ابن كثير.

وقال الإمام القرطبي في تفسيره ج٤ ص٢٤٦٥ في بيان مناظرة الخليل عليه السلام لقومه وإقامته الحجة الكاملة عليهم: قوله تعالى: ﴿وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ أي لأنه لا ينفع ولا يضر - وكانوا خوفوه بكثرة آلهتهم - إلا أن يُحييه ويقدّره فيخاف ضرره حينئذ؛ وهو معنى قوله: ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي أن يشاء أن يلحقني شيء من المكروه

---

(١) سورة هود آية ٥٢: ٥٦.

بذنب عملتُه فتتمّ مشيئته. وهذا استثناء ليس من الأول. والهاء في «به» يجوز أن تكون لله عز وجل، ويجوز أن تكون للمعبود. وقال: ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي﴾ يعني أن الله تعالى لا يشاء أن أخافهم. ثم قال: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي وسع علمه كل شيء. وقد تقدم)انتهى.

وقال الإمام القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُم﴾ ففي «كيف» معنى الإنكار؛ أنكر عليهم تخويفهم إيّاه بالأصنام وهم لا يخافون الله عز وجل؛ أي كيف أخاف مواتا وأنتم لا تخافون الله القادر على كل شيء. ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ أي حجة؛ وقد تقدم. ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ﴾ أي من عذاب الله: الموحِّد أم المشرك؛ فقال الله قاضيًا بينهم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي بشرك؛ قاله أبو بكر الصدّيق وعليّ وسلمان وحذيفة، رضي الله عنهم. وقال ابن عباس: هو من قول إبراهيم؛ كما يسأل العالِمُ ويجيب نفسه. وقيل: هو من قول إبراهيم؛ أي أجابوا بما هو حجة عليهم؛ قاله ابن جريج. وفي الصحيح عن ابن مسعود لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾. ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي في الدنيا.

وقال الإمام القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ﴾ إشارة إلى جميع احتجاجاته حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة. وقال مجاهد: هي قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾. وقيل: حجته عليهم أنهم لما قالوا له: أما تخاف أن تَخْبِلك آلهتُنا لسبِّك إياها؛ قال لهم: أفلا تخافون أنتم منها إذ سوّيتم بين الصغير والكبير في العبادة والتعظيم؛ فيغضب الكبير فيخْبِلكم. ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ أي بالعلم والفهم والإمامة والملك»انتهى كلام الإمام القرطبي.

فإذا كان الخليل إبراهيم عليه السلام قد أقام الحجة الرسالية التي آتاه الله إيّاها على قومه، كما قرر ذلك القرآن وبيّنه أئمة الإسلام، فهل الآخرون الذين يريدون أن يتأسوا به في البراءة من قومه، أقاموا على أقوامهم هذه الحجة؟

وإذ لم يقيموها أمامهم، فكيف يحكمون عليهم بالكفر!، ومن ثم يتبرأون منهم!..

وأمر تكفير المسلمين عملا بظواهر النصوص، أمر في غاية الخطورة، لأننا لو حملنا كل النصوص على ظاهرها، لتعذر ضبط القواعد، وقد قالوا لو كان تسعة وتسعون دليلاً على كفر شخص، ودليل واحد على إسلامه، ينبغي للمفتي أن يعمل بذلك الدليل الواحد، لأن خطأه في خلاصه خير من خطئه في حده وقصاصه..

قال العلامة القاضي عياض في (الشفا بمعرفة حقوق المصطفى) ج ٢ ص٢٦٤ نقلا عن المحققين: (استباحة دماء المصلين الموحدين خطر والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم واحد وقد قال ﷺ فإذا قالوها يعني: الشهادة عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله فالعصمة مقطوع بها مع الشهادة ولا ترتفع ويستباح خلافها إلا بقاطعٍ ولا قاطع من شرع ولا قياس عليه وألفاظ الأحاديث الواردة في الباب معرضة للتأويل فما جاء منها في التصريح بكفر القدرية وقوله لا سهم لهم في الإسلام وتسميتُه الرافضة بالشرك وإطلاق اللعنة عليهم وكذلك في الخوارج وغيرهم من أهل الأهواء فقد يحتج بها من يقول بالتكفير وقد يجيب الآخر بأنه قد ورد مثل هذه الألفاظ في الحديث في غير الكفرة على طريق التغليظ وكفر دون كفرٍ وإشراك دون إشراكٍ وقد ورد مثله في الرياء وعقوق الوالدين والزوجٍ والزور وغير معصيةٍ وإذا كان محتملاً للأمرين فلا يقطع على أحدهما إلا بدليل قاطعٍ)انتهى كلام القاضي.

قلت: فانظر إلى ما أورده العلامة الإمام القاضي عياض رحمه الله إجابة على من ذهب إلى إطلاق القول بالكفر على أهل الأهواء تبعا لظاهر بعض الأحاديث فيهم، وهو قوله: «**قد ورد مثل هذه الألفاظ في الحديث في غير الكفرة على طريق التغليظ وكفر دون كفر وإشراك دون إشراك وقد ورد مثله في الرياء وعقوق الوالدين والزوج والزور وغير معصية وإذا كان محتملاً للأمرين فلا يقطع على أحدهما إلا بدليل قاطع**»انتهى.

فأشار رحمه الله تعالى إلى ما ذهب إليه العلماء، من أن ظواهر الأحاديث التي تُطلق الكفر، **قد تحمل على خلاف ظاهرها لمصلحة دفع التعارض، وقد يقصد بها غير الكفرة، وقد يقصد بها المستحل، أو يراد بها التغليظ، أو كفر دون كفر، أو إشراك دون إشراك..**

وأمثلة ذلك الأحاديث التي وردت في صحيح البخاري تحت ترجمة حافلة وهي **باب (كفران العشير، وكفر دون كفر).**

وقد أورد الإمام البخاري في الباب حديث ابن عباس ﭭ قال: قال النبي ﷺ: «أُريتُ النار، فإذا أكثرُ أهلهَا النساءُ يكْفُرنَ. قيل: أيكفُرن بالله؟ قال: يكفُرنَ العَشيرَ، ويكفُرنَ الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهُنَّ الدَّهر ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيتُ منك خيراً قطُّ».

قال الحافظ ابن حجر في الفتح ج١ ص١٠٤: قوله (باب كفران العشير، وكفر دون كفر) قال القاضي أبو بكر بن العربي في شرحه: مراد المصنف أن يبين أن الطاعات كما تسمى إيمانًا كذلك المعاصي تسمى كفراً، لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج من الملة. قال: وخص كفران العشير من بين أنواع الذنوب لدقيقة بديعة وهي قوله صلى الله عليه وسلم: «**لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**» فقرَن حق الزوج على الزوجة بحق الله،

فإذا كفرت المرأة حق زوجها ـ وقد بلغ من حقه عليها هذه الغاية ـ كان ذلك دليلا على تهاونها بحق الله، فلذلك يطلق عليها الكفر لكنه **كفر لا يخرج عن الملة**. ويؤخذ من كلامه مناسبة هذه الترجمة لأمور الإيمان من جهة كون الكفر ضد الإيمان. وأما قول المصنف: «وكفر دون كفر» فأشار إلى أثر رواه أحمد في كتاب الإيمان من طريق عطاء ابن أبي رباح وغيره»انتهى كلام الحافظ ابن حجر.

كذلك الترجمة القيمة التي أوردها **الإمام البخاري (باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يُكَفَّرُ صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، لقول النبي** ﷺ: **«إنك امْرُؤٌ فيك جاهلية» وقول الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.**

ثم ذكر في الحديث من طريق شعبة عن واصل الأحدب عن المعرور **قال: لقيت أبا ذر بالرَّبَذَة وعليه حُلَّةٌ وعلى غلامه حُلَّة، فسألتُه عن ذلك فقال: إنِّي ساببتُ رجلاً فعيرته بأُمِّه، فقال لي النبيُّ ﷺ «يا أبَا ذرٍّ، أعيَّرْتَهُ بأُمِّه؟ إنَّكَ امْرُؤٌ فيكَ جَاهليَّة. إخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمْ تَحْتَ أيديكُمْ. فَمَنْ كان أخُوهُ تحت يده فَلْيُطعمهُ ممَّا يأكُلُ، وَلْيُلبسهُ ممَّا يلبسُ، ولا تُكلفوهم ما يغلبُهُم، فإن كَلَّفْتُمُوهُم فَأعينوهُم».**

وقال الإمام البخاري في الترجمة التي تليها باب (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) فسمّاهُمْ المؤمنين

ثم ذكر رحمه الله حديث الحسن عن الأحنف بن قيس قال: **ذهبتُ لأنصُرَ هذَا الرَّجُل. فلقيَني أبُو بكرةَ. فقال: أينَ تُريدُ؟ قلتُ أنصُرُ هذَا الرَّجلَ. قال: ارجع، فَإنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقولُ «إذَا التقى المُسلمان بسيفيهمَا فالقَاتلُ والمَقتُولُ في النَّار. فقلتُ: يا رسول الله: هذَا القاتِلُ، فَمَا بَالُ المقتُولِ؟ قال: إنَّهُ كان حَريصًا على قتلِ صاحبِه».**

قال الحافظ ابن حجر في التعليق على الترجمتين ج١ ص١٠٦: **وقوله (إلا بالشرك)** أي إن كل معصية تؤخذ من ترك واجب أو فعل محرم فهي من أخلاق الجاهلية، والشرك أكبر المعاصي ولهذا استثناه. ومحصل الترجمة أنه **لما قدم أن المعاصي يطلق عليها «الكفر» مجازًا على إرادة كفر النعمة لا كفر الجحد أراد أن يبين أنه كفر لا يخرج عن الملة خلافًا للخوارج الذين يكفرون بالذنوب، ونص القرآن يرد عليهم وهو قوله تعالى: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾** فصير ما دون الشرك تحت إمكان المغفرة، والمراد بالشرك في هذه الآية الكفر، لأن من جحد نبوة محمد ﷺ مثلا كان كافرًا ولو لم يجعل مع الله إلهًا آخر، والمغفرة منتفية عنه بلا خلاف. وقد يرد الشرك ويراد به أخص من الكفر كما في قوله تعالى: **﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين﴾ قال ابن بطال: غرض البخاري الرد على من يكفر بالذنوب كالخوارج، ويقول إن من مات على ذلك يخلد في النار، والآية ترد عليهم لأن المراد بقوله: ﴿ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ من مات على كل ذنب سوى الشرك، وقال الكرماني:** في استدلاله بقول أبي ذر «عيرته بأمه» نظر لأن التعيير ليس كبيرة، وهم لا يكفرون بالصغائر. **قلت:** استدلاله عليهم من الآية ظاهر، ولذلك اقتصر عليه ابن بطال، وأما قصة أبي ذر فإنما ذكرت ليستدل بها **على أن من بقيت فيه خصلة من خصال الجاهلية سوى الشرك لا يخرج عن الإيمان بها، سواء كانت من الصغائر أم الكبائر، وهو واضح.** واستدل المؤلف أيضًا على أن المؤمن إذا ارتكب معصية لا يكفر بأن الله تعالى أبقى عليه اسم المؤمن فقال: **﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ ثم قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.** واستدل أيضًا بقوله صلى الله عليه وسلم: **«إذا التقى المسلمان بسيفيهما» فسماهما مسلمين مع**

التوعد بالنار، والمراد هنا إذا كانت المقاتلة بغير تأويل سائغ. واستدل أيضًا بقوله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر «فيك جاهلية» أي خصلة جاهلية، مع أن منزلة أبي ذر من الإيمان في الذروة العالية، وإنما وبخه بذلك ـ على عظيم منزلته عنده ـ تحذيرًا له عن معاودة مثل ذلك، لأنه وإن كان معذورًا بوجه من وجوه العذر، لكن وقوع ذلك من مثله يستعظم أكثر ممن هو دونه، وقد وضح بهذا وجه دخول الحديثين تحت الترجمة)انتهى.

وقال الإمام البخاري في الترجمة التي تليها: (باب ظلم دون ظلم) ثم ذكر الحديث عن عبدالله قال لمَّا نزلت: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ قال أصحابُ رسول الله ﷺ: أيُّنا لم يظلم؟ فأنزلَ الله: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾.

قال الحافظ ابن حجر ج١ ص١٠٩: قوله (باب ظلم دون ظلم)دون يحتمل أن تكون بمعنى غير، أي أنواع الظلم متغايرة. أو بمعنى الأدنى، أي بعضها أخف من بعض، وهو أظهر في مقصود المصنف»انتهى.

وقال الإمام ابن حجر رحمه الله تعالى ص١١١: (وفي المتن من الفوائد: الحمل على العموم حتى يرد دليل الخصوص، وأن النكرة في سياق النفي تعم، وأن الخاص يقضي على العام والمبين عن المجمل، وأن اللفظ يحمل على خلاف ظاهره لمصلحة دفع التعارض، وأن درجات الظلم تتفاوت كما ترجم له، وأن المعاصي لا تسمى شركًا، وأن من لم يشرك بالله شيئًا فله الأمن وهو مهتد. فإن قيل: فالعاصي قد يعذب فما هو الأمن والاهتداء الذي حصل له؟ فالجواب أنه آمن من التخليد في النار، مهتد إلى طريق الجنة. والله أعلم)انتهى كلام الحافظ.

قلت: وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرح صحيح مسلم ج٢ ص٥٥ (باب بيان معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) قيل في معناه سبعة أقوال: أحدها أن ذلك كفر في حق المستحل بغير حق. والثاني المراد كفر النعمة وحق الإسلام. والثالث أنه يقرب من الكفر ويؤدي إليه. والرابع: أنه فعل كفعل الكفار. والخامس المراد حقيقة الكفر ومعناه لا تكفروا بل دوموا مسلمين. والسادس حكاه الخطابي وغيره أن المراد بالكفار المتكفرون بالسلاح يقال تكفر الرجل بسلاحه إذا لبسه قال الأزهري في كتابه تهذيب اللغة يقال للابس السلاح كافر. والسابع قاله الخطابي معناه لا يكفر بعضكم بعضًا فتستحلوا قتال بعضكم بعضًا وأظهر الأقوال الرابع وهو اختيار القاضي عياض رحمه الله)انتهى.

قلت: فقد تقرر من النصوص السابقة وشروحها عن أئمة الإسلام، أن اللفظ المُطلق بالكفر أو الظلم أو الشرك، قد يطلق ويراد به كفر دون كفر، أو ظلم دون ظلم، أو إشراك دون إشراك، وأن ألفاظ النصوص التي ظاهرها الكفر، قد تحمل على خلاف ظاهرها، لمصلحة دفع التعارض، وذلك لعصمة دماء المسلمين بيقين، لتلفظهم بالشهادة، فلا يرتفع هذا اليقين إلا بيقين مثله، ولا يقين مع ورود الاحتمالات والتأويلات في هذه النصوص وغيرها، فعلى هذا لا تكون الحجة تامة كاملة..

وهذا ما ذكره القاضي عياض في الشفا عن المحققين بقولهم (استباحة دماء المصلين الموحدين خطر والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم واحد وقد قال ﷺ فإذا قالوها - يعني الشهادة - عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله فالعصمة مقطوع بها مع الشهادة ولا ترتفع ويستباح خلافها إلا بقاطع ولا قاطع من شرع ولا قياس عليه وألفاظ الأحاديث الواردة في الباب معرضة للتأويل)انتهى.

قلت: فإقامة الحجة على أي أحد بالكفر، لا يقدم عليها، إلا بالأمر الواضح البين، وما يرجع إلى التأويلات والاحتمالات لابد من التدقيق التام فيه، **لأن القاعدة أنه من أطلق لفظًا لا يعرف معناه لم يُؤاخذ بمقتضاه..**

قال العلامة محمد أمين الشهير بابن عابدين في مجموعة رسائل ابن عابدين (الرسالة الخامسة عشرة) ج١ ص٣٢٠: (وفي التتار خانية لا يكفر بالمحتمل لأن الكفر نهاية في العقوبة، فيستدعي نهاية في الجناية ومع الاحتمال لا نهاية كذا في البحر.ثم قال صاحب البحر والذي تحرر أنه لا يفتى بكفر مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن أو كان في كفره اختلاف ولو رواية ضعيفة فعلى هذا فأكثر ألفاظ التكفير المذكورة لا يفتى بالتكفير بها ولقد ألزمت نفسي أن لا أفتى بشيء منها»انتهى.

قلت: فلا حجة بالكفر إلا بيقين أو قاطع، وما تطرق إليه الاحتمال فلا يصلح للاستدلال، على خروج المسلم من الإيمان ودخوله في الكفر، والذي نص عليه أئمتنا رحمهم الله تبارك وتعالى أن من تكلم بمحتمل للكفر لا يحكم عليه به حتى يُستفسر..

لأن الحكم بالكفر هو الغاية في العقوبة، لما يتبعه من استباحة الدماء والأموال، فلابد فيه من الغاية في الجناية، التي يُقطع بها، ويستبين أمرها، بيقين لاشك فيه، ووضوح لا لبس معه..

أما مع الاحتمالات فلا غاية في الجناية، ولا نهاية في الجريمة، حيث يقبل الفعل أو القول الأمرين معا، إما الصواب أو الخطأ، فلا يُرجح واحد منهما على الآخر إلا بقاطع، ولا قاطع يغلب بيقين..

فيعود الاختيار إلى ما ذكره صاحب البحر رحمه الله تعالى بقوله «والذي تحرر أنه لا يفتى بكفر مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن أو كان في كفره اختلاف ولو رواية ضعيفة فعلى هذا فأكثر ألفاظ التكفير المذكورة لا يفتى بالتكفير بها ولقد ألزمت نفسي أن لا أفتي بشيء منها»انتهى.

قلت: ولعدم التكفير بالمحتمل أمثلة نذكر بعضها، مما أورده العلامة ابن حجر الهيتمي في (الإعلام بقواطع الإسلام)قال رحمه الله تعالى ص٤٤: «ومنها لو قال لا أخاف القيامة كفر كذا أقراه **(أي الإمام الرافعي والإمام النووي) ومحله إن قصد الاستهزاء أما إذا أطلق أو لمح سعة عفو الله تعالى ورحمته وقوة رجائه فلا يكفر»انتهى.**

وقال رحمه الله تعالى ص٤٤: (ومنها: قالا عنهم واختلفوا فيما لو وضع متاعه في موضع، وقال: سلمته إلى الله تعالى، فقال له آخر: **سلمته إلى من لا يتبع السارق إذا سرق.**

ولم يرجحا (أي الإمام الرافعي والإمام النووي) والذي يظهر إنه إن قال ذلك على جهة نسبة العجز إليه سبحانه وتعالى كفر. وإن أراد سعة حلمه تعالى على السارق أو أطلق لم يكفر، ثم رأيت الأذرعي قال: الظاهر أنه لا يكفر عند الإطلاق، وقوله لا يتبع السارق أي لستره إياه ونحو ذلك نعم إن ظهرت منه قرينة استخفاف فالكفر ظاهر)انتهى.

وقال رحمه الله تعالى في ص٤٥: (ولو قيل له يا يهودي يا مجوسي فقال لبيك كفر» زاد النووي عفا الله عنه قلت (أي الإمام النووي): **في هذا نظر إذا لم ينو شيئا انتهى.**

والنظر واضح، فالوجه أنه إن نوى إجابته أو أطلق لم يكفر، وإن قال ذلك على جهة الرضا بما نسبه إليه كفر، ثم رأيت الأذرعي قال:

والظاهر أنه لا يكفر إذا لم ينو غير إجابة الداعي ولا يريد الداعي بذلك حقيقة الكلام، بل هو كلام يصدر من العامي على سبيل السب والشتم للمدعو ويريد المدعو إجابة دعائه بلبيك طلبا لمرضاته)انتهى كلام الإمام ابن حجر الهيتمي.

قلت: إذن فالمحتملات لا يقدم على التكفير بها من يشح على دينه، كيف وقد حظر أئمة الدين كل ورع من الخوض في هذا الباب، والمبادرة إلى إسقاط العصمة عن المسلمين، وهذه بعض نصوصهم في ذلك..

قال العلامة ابن عابدين في مجموعة الرسائل ج١ ص٣٢٠: (قال في جامع الفصولين روي الطحاوي عن أصحابنا لا يخرج الرجل عن الإيمان إلا جحود ما أدخله فيه ثم ما تيقن أنه ردة يحكم بها فيه وما يشك أنها ردة لا يحكم بها إذ الإسلام الثابت لا يزول بشك مع أن الإسلام يعلو وينبغي للعالم إذا رفع إليه هذا ألا يبادر بتكفير أهل الإسلام مع أنه يقضي بصحة إسلام المكره)انتهى.

وفي الفتاوى الصغرى (الكفر شيء عظيم فلا أجعل المؤمن كافرا متى وجدت رواية أنه لا يكفر) انتهى.

وفي الخلاصة وغيرها (إذا كان في المسألة وجوه توجب التكفير ووجه واحد يمنع التكفير **فعلى المفتي أن يميل إلى الوجه الذي يمنع التكفير تحسينا للظن بالمسلم زاد في البزازية إلا إذا صرح بإرادة موجب الكفر)انتهى.**

وقال الإمام الشوكاني في السيل الجرار ج٤ ص٥٤٩:

﴿اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بِخُروجه من دين الإسلام، ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يُؤمن بالله واليوم الآخر أن يُقدم عليه **إلا بِبُرهان أوْضح من شمس النهار**، فإنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المرويَّة من طريق جماعة من الصحابة: **«أن من قال لأخيه:**

يا كافر فقد باءَ بها أحدهما»، هكذا في الصحيح[1] وفي لفظ آخر في الصحيحين وغيرهما: «من دعا رجُلاً بالكفـر، أو قال: عدوُّ الله وليس كذلك إلاَّ حارَ عليه»[2] أي رجع، وفي لفظ في الصحيح: «فَقَدْ كَفَرَ أحدُهُما»، ففي هذهِ الأحـاديث وما ورد موردها أعظم زاجر، وأكـبر واعظ عن التسرع في التكفير، وقد قال الله عز وجل: ﴿ولكن من شرح بالكفر صدراً﴾[3] فلابد من شـرح الصدر بالكفر، وطمـأنينة القلب به، وسكون النفس إليه، فـلا اعتبار بما يقع من طرق عـقائد الشر، لاسـيما مع الجهل بمخالفتها لطريقة الإسـلام، ولا اعتبار بصدور فعل كفري لم يرِدْ به فاعله الخروج عن الإسلام إلى ملة الكفـر، ولا اعتبار بلفظ تلفظ بهِ المسلم يدل على الكفر وهو لا يَعتقد معناه)انتهى.

قلت: فهـذه نصوص أئمة الدين، في الإحجـام عن الإقدام على الحكم بالكفـر على المسلـمين، أو العمـل على إقـامة الحـجـة بذلك عليهم، بل إن أمكن حمل أقوالهم، أو أفعالهم، على محامل حسنة، تعين المصيـر إليها، تغليـبا لحسن الظن بأهل الإسلام، واحـترازا من الوقوع في مغبة ما حذر منه النبي ﷺ، من التنابز بالكفر والشرك، واستباحة الدمـاء والأمـوال، المعصـومة بيـقين من المسـلمين، عنـد كل شبـهة، أو عارض من العوارض..

أورد الحافظ ابن عسـاكر بسنده عن نافع: «أن رجلاً قـال لابن عمر إن لي جاراً يشهد علي بالشرك. فقال: قل لا إله إلا الله تكذبه».

وأورد الحافظ ابن عسـاكر أيضًا بسنده عن خداش بن عـياش قال: «كنت في حلقـة بالكـوفـة إذا رجـل يحـدث قـال: كنا جـلوسًـا مـع

---

(١) من حـديث ابن عـمـر رضي الله عنهما عند مسـلم ولفظه: «إذا كـفر الـرجل أخاه فـقـد باء أحدهما» ولفظ البخـاري: «أيما رجل قال لأخيه: يا كافر» إلخ. صـحيح مسلم بشرح الإمام النووي ١/ ٢٤٨ والصحيح بشرح الفتح ١٠/ ٥١٤.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ١٠/ ٤٦٤ صحيح مسلم بشرح الإمام النووي ١/ ٢٤٨.

(٣) سورة النحل الآية: ١٠٦.

أبي هريرة فمر فتى فقال رجل من الحلقة: هذا كافر من أهل النار. فقام أبو هريرة حتى أتى الفتى فقال: من أنت قال: أنا فلان بن فلان قال رحم الله أباك قال: فجعل الفتى يلتفت فقال: إلام تلتفت قال لم أصل قال وتصلي فقال: سبحان الله فقال وتقول سبحان الله قال: لا إله إلا الله قال: وتقول لا إله إلا الله فقال: ما أريد إني تركت الصلاة وإن لي ما على وجه الأرض قال رحمك الله رحمك الله ثم جاء حتى أخذ مجلسه فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شهد على مسلم بشهادة ليس لها بأهل فليتبوأ مقعده من النار».

وها هو الإمام الشوكاني في السيل الجرار ج٤ ص٥٥٥ يُعلن أسفه ناعيا، على الذين خالفوا أئمة الدين، في وجوب صيانة حقوق المسلمين، فسلكوا خلاف هذا السبيل، وتنكبوا عن هذه الجادة، فقال رحمه الله: (ها هنا تُسكب العبرات، ويُنَاح على الإسلام وأهله بما جناه التَّعصّب في الدين على غالب المسلمين من الترامي بالكفر لا لسنَّة، ولا لقُرآن، ولا لبيان من الله، ولا لبرهان، بل لَمَّا غَلَتْ مَرَاجل العَصبية في الدين، وتمكَّن الشيطان الرجيم من تَفْريق كلمة المسلمين لَقَّنهم إلزامات بعضهم لبعض بما هو شبيه الهباء في الهواء، والسراب البقيعة، فيالله وللمسلمين من هذه الفاقرة التي هي من أعظم فواقر الدين والرزية التي ما رُزئ بمثلها سبيل المؤمنين، وأنت إن بقى فيك نصيب من عقل، وبقية من مراقبة الله عز وجل، وحصّة من الغيرة الإسلامية قد علمت وعلم كل من له علم بهذا الدين أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما سُئل عن الإسلام قال في بيان حقيقته، وإيضاح مفهومه: «إنه إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان، وشهادة أن لا إله إلا الله»[1]، والأحاديث بهذا المعنى متواترة، فمن جاء بهذه الأركان

---

(١) يرجع في ذلك إلى كتاب الإيمان من فتح الباري شرح صحيح البخاري ج١، وإلى شرح صحيح مسلم للإمام النووي ج١ .

الخمسة، وقام بها حق القيام فهو المسلم على رغم أنف من أَبَى ذلك كائنا من كان، فمن جاءك بما يُخالف هذا من ساقط القول، وزائف العلم، بل الجهل، فاضرب به في وجهه، وقل له: قد تقدم هذيانك هذا برهان محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليه.

دعوا كُلَّ قَوْلٍ عند قَوْلِ مُحمد فَمَا آمنٌ في دينه كَمُخَاطِرِ

وكما أنه قد تقَدم الحكَم من رَسول الله صَلَى اللهَ عليه وآله وَسَلم لمن قام بهذه الأركان الخمسة بالإسلام فقد حكم لمن[١] «آمن بالله وملائكته وكُتبه ورُسله والقدر خيره وشَره» بالإيمان، وهذا منقول عنه نقلا متواترا، فمن كان هكذا فهو المؤمن حقًا، وقد قدّمنا قريبًا ما ورد من الأدلة المشتملة على الترهيب العظيم من تكفير المسلمين، والأدلة الدالة على وجوب صيانة عِرْض المسلم واحترامه يَدُل بفحوى الخطاب على تجنُّب القَدْح في دينه بأي قادح، فكيف إخراجه عن الملة الإسلامية إلى الملة الكفرية، فإن هذه جناية لا تَعْدلها جناية، وجُرْأة لا تُماثلها جراة، وأين هذا المجترئُ على تكفير أخيه من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «والَّذي نفسي بيده لا يُؤْمنُ أحدُكُم حتَّى يُحب لأخيه ما يُحب لنفسه»[٢] وهو ثابت في الصحيح، ومن قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الثابت عنه في الصحيح أيضًا: «المُسْلمُ أخُو المسلم لا يَظلمُهُ ولا يُسلمُهُ»[٣]، ومن قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الثابت عنه في الصحيح أيضًا: «سبَابُ المسلم فُسُوقٌ، وقتالُهُ كُفْرٌ»[٤]،

(١) صحيح مسلم ج١ من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه واللفظ لمسلم من حديث أنس.

(٣) أخرجه البخاري من حديث ابن عمر وتمامه «ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة».

(٤) أخرجه الإمام البخاري والإمام مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة من حديث =

ومن قـول رسـول الله صلى الله عليـه وآله وسـلم: «إنَّ دمـاءكُم، وأموالكم، وأعـراضكُم عليكُم حَرام»، وهو أيضًا في الصـحيح، وكم يعد العاد من الأحـاديث الصـحيحة والآيات القرآنيـة، والهداية بيد الله عز وجل: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[1].انتهى كلام العلامة الشوكاني.

قلت: وها هو الإمام الغـزالي يقرر خطأ الذين ذهبوا إلى تكفـير عوام المسلمين، لعـدم معرفـتهم أصـول العقائد والتـوحيد بأدلتـها، فـيـمتـحنون البـسطاء على هـذه الأدلة، وتلك المصطلحـات، وهذه الرسوم، التي اصطلح عـليها النُظّار والمتكلمـون، فمن أجابهم فـهو المؤمن، ومن عـجـز عن الإجـابة، شككوه في إيمانـه، وطعنوه في إسلامه، ولم يتـبين هؤلاء أن النبي ﷺ قد أجرى أحكام المسلمين، على من تلفـظ بالشـهادة، وأن الإيمان فـي قلوب الكثـيـر من بسطاء المسلمين وعوامهم، قد يكون على الغـاية القصوى، والدرجة العُليا، التي قد لا يبلغ يقينها ورسـوخها، بعض هؤلاء المتكلمين!.. وإن لم يتمكنوا من التـعبير عنه، بـاصطلاحات أهل الكلام أو النظار، وهذا معلوم مشاهد، بين واضح..

وإليك ما أورده في ذلك، العـلامة ابن حجر الهيـتمي في (الإعلام بقـواطع الإسلام) ص٤٩ قـال: وقد قـال الغزالي في كـتابه التـفرقـة: (ذهبت طائفة إلى تكفيـر عوام المسلمين لعدم معرفتـهم أُصول العقائد بأدلتهـا، وهو بعيد نقـلاً وعقلاً وليس الإيمان عـبارة عمـا اصطلح عليه النظار، بل نور يقذفه الله تعـالى في القلب لا يمكن التعبير عنه كـما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾[2].

= ابن مسعود والإمام الطبراني في الكبير وأخرجه الدارقطني في الأفراد عن جابر.

(١) القصص آية: ٥٦.

(٢) سورة الأنعام آية: ١٢٥.

وقد حكم النبي ﷺ بأنه من تكلم بلفظ التوحيد أجرى عليه أحكام المسلمين، فثبت أن مأخذ التكفير من الشرع لا من العقل لأن الحكم بإباحة الدم والخلود في النار شرعي لا عقلي خلافًا لما ظنه بعض الناس)انتهى.

قلت: فأفضل الطرق لمعرفة التوحيد للعامة من المسلمين، هي طريقة القرآن العظيم، ففيه أكمل الفوائد في ذلك، ولو أن المتكلمين باصطلاحات النظّار، انتهجوا طريقة القرآن في عرض التوحيد الآن، لنفع الله بهم العامة، بدلاً من الولوج بهم، على أدلة صعبة المدرك، عسيرة الفهم، لأجل مشقتها عفا الله عنها في حق العامة . .

أما القرآن العظيم فيقرر مباحث التوحيد أفضل تقرير، مما يكون في متناول أيدي الكافة، لأنه يسعى لإضافة العظمة والجلال والتقديس بالكلية لله تعالى، وتوحيده توحيد الألوهية، أي توحيد الله عز وجل بأفعال خلقه وعباده، وأفراده تعالى بالعبودية وحده، والبراءة من كل ما عُبد من دونه، إيمانًا وتعظيمًا واستعانة واستعاذة ودعاءا وطلبا منه وحده دون سواه، تصديقا لقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[2] هذا التوحيد الذي أُرسلت عليه الرسل، وأُنزلت به الكتب﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾الأنبياء أية : ٢٥ .

فطريقة القرآن تغرس في القلوب الاعتقادات الجازمة بالتوحيد وتمنع من التعنت في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية قاصرة قليلة الإدراك، تتناهى وتضمحل، في تلك المضايق الغريبة والمباحث الخفية.

---

(١) سورة البقرة آية: ٢٥٦. (٢) سورة الأنعام آية: ١٦٢، ١٦٣.

وهذا تأكيد الإمام الغزالي لهذا الأمر، لمن سأله عن حكم العامي، الذي يسأل عن الأدلة الكلامية الجدلية، على طريقة النُظّار، لتقرير المباحث في أبواب العقيدة فقال - رحمه الله تعالى - في **(إلجام العوام عن علم الكلام) ص٣٢**: (فإن قلت العامي إذا لم تسكن نفسه إلى الاعتقادات الدينية إلا بدليل فهل يجوز أن يذكر له الدليل فإن جوّزت ذلك فقد رخَّصت له في التفكر والنظر وأي فرق بينه وبين غيره.

(الجواب) أني أجوِّز له أن يسمع الدليل على معرفة الخالق ووحدانيته وعلى صدق الرسول وعلى اليوم الآخر ولكن بشرطين:

(أحدهما): أن لا يزاد معه على الأدلة التي في القرآن.

و(الآخر) أن لا يماري فيه إلا مراء ظاهرا ولا يتفكر فيه إلا تفكرا سهلا جليا ولا يمعن في التفكير ولا يوغل غاية الإيغال في البحث وأدلة هذه الأمور الأربعة ما ذكر في القرآن **أما الدليل على معرفة الخالق فمثل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾[1] وقوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ**

(١) سورة يونس آية: ٣١.

بَاسقَات لَّهَا طَلْعٌ نَّضيد﴾[1] وكقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ إِلَىٰ طَعَامه (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾[2].

وقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ إلى قوله: ﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾[3] وأمثال ذلك وهي قريب من خمسائة آية جمعناها في كتاب «جواهر القرآن» بها ينبغي أن يعرف الخلق جلال الله الخالق وعظمته لا بقول المتكلمين أن الأعراض حادثة وأن الجواهر لا تخلو عن الأعراض الحادثة فهي حادثة ثم الحادث يفتقر إلى محدث فإن تلك التقسيمات والمقدمات وإثباتها بأدلتها الرسمية يشوش قلوب العوام والدلالات الظاهرة القريبة من الأفهام على ما في القرآن تنفعهم وتسكن نفوسهم وتغرس في قلوبهم الاعتقادات الجازمة.

وأما الدليل على الوحدانية فيقنع فيه بما في القرآن من قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[4] فإن اجتماع المدبرين سبب إفساد التدبير (وبمثل) قوله: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾[5] وقوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[6].

(وأما صدق الرسول): فيستدل عليه بقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ

---

(١) سورة ق آية: (٦: ١٠).

(٢) سورة عبس آية: (٢٤: ٣١).

(٣) سورة النبأ آية: (٦: ١٦).

(٤) سورة الأنبياء آية: (٢٢).

(٥) سورة الإسراء آية: (٤٢).

(٦) سورة المؤمنون آية: (٩١).

كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[1] وبقوله: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾[2] وقوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[3] وأمثاله.

(وأما اليـوم الآخر): فيستدل عليه بقوله: ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ﴾[4] وبقـوله: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى﴾ إلى قـوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[5] وبقوله :﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾[6] وقوله: ﴿فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾[7] وأمثال ذلك كـثيـر في القرآن فـلا ينبـغي أن يزد عليه فـإن قـيل فهـذه الأدلة التي اعتمـدها المتكلمون وقرروا وجه دلالتـها فما بالهم يمتنعـون عن تقرير هذه الأدلة ولا يمنعـون عنها وكل ذلك مـدرك بنظر العقل وتأملـه فإن فتح للعامي باب النظر فـليفتح مطلقا أو ليسـد عليه طريق النظر رأسًا وليكلف التقليد من غير دليل.

(والجواب) أن الأدلة تنقسم إلى ما يحتـاج فيه إلى تفكر وتدقيق خارج عن طاقة العامي وقدرته، وإلـى ما هو جلي سابق إلى الأفهام ببادئ الـرأى من أول النظر مما يدركه كـافة الناس بسـهولة، فـهذا لا خطر فيه ومـا يفتقر إلى التدقيق فليس علـى حد وسعه، **فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويسـتضـر به الأكـثرون، بـل أدلة القرآن كـالماء الذي ينتـفع به**

---

(١) سورة الإسراء آية: (٨٨).

(٢) سورة البقرة آية: (٢٣).

(٣) سورة هود آية: (١٣).

(٤) سورة يس آية: (٧٨: ٧٩).

(٥) سورة القيامة آية: (٣٦: ٤٠).

(٦) سورة الحج آية: (٥).

(٧) سورة فصلت آية: (٣٩).

الصبي الرضيع والرجل القوى، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً ولهذا **قلنا أدلة القرآن أيضًا ينبغي أن يصغى إليها إصغاءه إلى كلام جلى، ولا يماري فيه إلا مراء ظاهرا، ولا يكلف نفسه تدقيق الفكر وتحقيق النظر** فمن الجلى أن من قدر على الابتداء فهو على الإعادة أقدر كما قال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[1].

وأن التدبير لا ينتظم في دار واحدة بمدبرين فكيف ينتظم في كل العالم.

وأن من خَلَقَ عَلِم كما قال تعالى: ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾[2] فهذه الأدلة تجري **للعوام مجرى الماء جعل الله منه كل شيء حي** وما أخذته المتكلمون وراء ذلك من تنقير وسؤال وتوجيه أشكال ثم اشتغال بحله فهو بدعة وضرره في حق أكثر الخلق ظاهر فهو الذي ينبغي أن يتوقى والدليل على تضرر الخلق به المشاهدة والعيان والتجربة.

وما ثار من الشر منذ نبغ المتكلمون وفشت صناعة الكلام مع سلامة العصر الأول من الصحابة عن مثل ذلك ويدل عليه أيضًا أن رسول الله ﷺ والصحابة بأجمعهم ما سلكوا في المحاجة مسلك المتكلمين في تقسيماتهم وتدقيقاتهم لا لعجز منهم عن ذلك فلو علموا أن ذلك نافع لأطنبوا فيه ولخاضوا في تحرير الأدلة خوضا يزيد على خوضهم في مسائل الفرائض)انتهى كلام الإمام الغزالي.

وقال سلطان العلماء العز بن عبدالسلام في قواعد الأحكام ج١ ص٢٠٢ (ولا عبرة بقول من أوجب النظر عند البلوغ على جميع المكلفين فإن معظم الناس مهملون لذلك غير واقفين عليه ولا مهتدين

---

(١) سورة الروم آية: ٢٧.

(٢) سورة الملك آية: (١٤).

إليـه، ومع ذلك لـم يفسـقـهم أحد من السلف الـصالحين كـالصحـابة والتـابـعين، والأصح أن النظـر لا يجب على المكلفين إلا أن يـكونوا شاكين فـيمـا يجب اعتـقاده فـيلزمهم البـحث عنه والنظر فـيه إلى أن يعتقدوه أو يعرفوه)انتهى.

أقول: وبعد أن استعرضنا النصوص السابقة عن أئمة الإسلام، في أنه ينبغي للمفتي أن يحتـاط في التكفير ما أمكنه لعظيم خطره، وبليغ ضرره، قولاً أو فعلاً، لغلبة عدم قصده أو إرادته لا سيما من العوام، نستأنف الكلام فيما بدأناه، من أصول أهل السنة، أنه قبل الحكم على المعينين، لابد من إقامـة الحجة الرسالية التي من خالفـها يكون كافراً تارة أو عاصيا أخرى أو فاسقا، والتي بدون إقـامتها لا نستطيع إضافة هذه الأوصاف إليهم، ومن ثم نتبرأ منهم..

قال الإمـام ابن تيمـية في مجـموع الفـتاوى ج٢٣ ص٣٤٥: «إن القول قد يكون كُـفرا، فيطلق القول بتكفـير صاحبـه ويقال: من قال كذا فهو كافر. **لكن الشخـص المعين الذي قاله لا يحكم بكفـره، حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها**».

وهذا كمـا في **نصوص الوعـيد. فإن الله تعـالى يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾**[1].

---

(١) سورة النساء آية: ١٠.

«فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق، لكن الشخص المعين لا يشهد عليه بالوعيد، فلا يشهد على معين من أهل القبلة بالنار، لجواز ألا يلحقه الوعيد، لفوات شرط أو ثبوت مانع. فقد لا يكون التحريم بلغه، وقد يتوب من فعل المُحرَّم.. وقد تكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبة ذلك المحرم.. وقد يبتلي بمصائب تكفر عنه، وقد يشفع فيه شفيع مطاع».

وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله بها، فمن كان من المؤمنين مجتهدًا في طلب الحق وأخطأ فإن الله يغفر له خطأه كائنا ما كان، سواء كان في المسائل النظرية، أو العملية. **هذا الذي عليه أصحاب النبي ﷺ. وجماهير أئمة الإسلام. وما قسموا المسائل إلى مسائل أصول يكفر بإنكارها، ومسائل فروع لا يكفر بإنكارها)** انتهى.

قلت: فانظر إلى ما قرره رحمه الله تعالى من أن نصوص الوعيد حق ولكن لا يشهد على معين بلحوق مقتضاها، إلا بعد ثبوت الشروط وانتفاء الموانع، فقد لا يكون التحريم بلغه، أو بلغه مشوشا من طريق غير صحيح، وقد يتوب من فعل المحرم، مثل الحديث الذي في الصحيح عن الرجل الذي قتل تسعا وتسعين نفسًا وأكمل بالراهب الذي حال بينه وبين التوبة المائة، وعندما سأل العالم أرشده إلى أنه لا شيء يحول بينه وبين التوبة، فأقبل تائبًا إلى ربه نحو القرية الصالحة، فمات في الطريق، فتاب الله عليه وأدخله الجنة، وهذا لعظيم قدر التوبة. .

وقد تكون له حسنات عظيمة تمحو عقوبة هذا المحرم، وقد يبتلى الشخص بمصائب تكفر عنه، وقد يشفع فيه شفيع مطاع، وفي كل ذلك لا يشهد على الشخص المعين بلحوق الوعيد. .

وانظر كيف قرر - رحمه الله تعالى - أن الأقوال التي يكفر قائلها، إذا كان الرجل لم تبلغه النصوص، الموجبة لمعرفة الحق، أو بلغته ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، أو عرضت له شبهة يعذره الله بها، وأخطأ بعد ذلك فإن الله يغفر له خطأه كائنا ما كان، سواء كان في المسائل النظرية، أو العملية، وأن الشخص المعين الذي قاله لا يحكم بكفره، حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها..

فمع وجود هذه العوارض من عدم بلوغ النصوص، أو عدم ثبوتها، أو عدم التمكن من فهمها، أو وجود شبهات تحول بينه وبين معرفة الحق فيها، في كل هذه الأحوال لا تكون الحجة قد قامت عليه، بحيث يكفر إذا تركها..

وانظر كيف قرر رحمه الله في النص السابق أن عدم فهم النصوص، مانع من قيام الحجة، ومسوغ للمغفرة عند وجود الخطأ كائنا ما كان، طالما كان القصد من المؤمن المجتهد في ذلك ابتغاء الحق وطلبه، وهذا هو ما عليه أصحاب النبي ﷺ وجماهير أئمة الإسلام..

وقد وضّح الإمام ابن تيمية الكلام السابق في ج٢٣ ص٣٤٨:

حيث قال: «ومع هذا فالذين كانوا من ولاة الأمور يقولون بقول الجهمية: أن القرآن مخلوق، وأن الله لا يرى في الآخرة، وغير ذلك. ويدعون الناس إلى ذلك، ويمتحنونهم، ويعاقبونهم، إذا لم يجيبوهم، ويكفرون من لم يجبهم. حتى أنهم كانوا إذا أمسكوا الأسير لم يطلقوه حتى يقر بقول الجهمية: أن القرآن مخلوق، وغير ذلك. ولا يولون متوليًا ولا يعطون رزقًا من بيت المال إلا لمن يقول ذلك، ومع **هذا فالإمام أحمد - رحمه الله تعالى - ترحم عليهم، واستغفر لهم، لعلمه بأنهم لم يبين لهم أنهم مكذبون للرسول، ولا جاحدون لما جاء به، ولكن تأولوا فأخطأوا، وقلدوا من قال لهم ذلك.**

وكذلك الشافعي لما قال لحفص الفرد حين قال: القرآن مخلوق: كفرت بالله العظيم. بين له أن هذا القول كفر، ولم يحكم بردة حفص

بمجرد ذلك؛ لأنه لم يتبين له الحجة التي يكفر بها، ولو اعتقد أنه مرتد لسعى في قتله، وقد صرح في كتبه بقبول شهادة أهل الأهواء، والصلاة خلفهم.

وكذلك قال مالك ـ رحمه الله ـ والشافعي، وأحمد، في القدري: إن جحد علم الله كفر، ولفظ بعضهم ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه كفروا»انتهى.

وقال رحمه الله تعالى في مجموع الفتاوى ج٣ ص٢٣١

(والتكفير هو من الوعيد، فإنه وإن كان القولُ تكذيبًا لما قاله الرسول ﷺ ، لكن قد يكون الرجلُ حديثَ عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة، **ومثل هذا لا يُكفَّر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة،** وقد يكون الرجلُ لم يسمع تلك النصوص، أو سمعها ولم تثبت عنده، أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها وإن كان مخطئًا.

وكنت دائمًا أذكر الحديث الذي في الصحيحين في الرجل الذي قال: «إذا أنا مت فأحرقوني، ثم اسحقوني. ثم ذروني في اليم، فوالله لإن قدر الله علي ليعذبني عذابًا ما عذبه أحدًا من العالمين. ففعلوا به ذلك، فقال الله له: ما حملك على ما فعلت. قال خشيتك: فغفر له»[1].

فهذا رجل شك في قدرة الله، وفي إعادته إذا ذُرِيَ؛ بل اعتقد أنه لايعاد **وهذا كفرٌ باتفاق المسلمين؛** لكن كان **جاهلا لا يعلم ذلك، وكان مؤمنًا يخاف الله أن يعاقبه، فغفر له بذلك.**

والمتأول من أهل الاجتهاد **الحريص على متابعة الرسول** ﷺ **أولى بالمغفرة من مثل هذا)انتهى.**

وقال الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى ج٣ ص٢٢٩:

«هذا مع أني دائمًا ومن جالسني يعلم ذلك مني: **إني من أعظم**

---

(١) رواه الإمام البخاري (كتاب أحاديث الأنبياء) ج٤ ص٢١٥، ورواه الإمام أحمد في المسند بسند صحيح عن أبي هريرة وفي كنز العمال «في أحكام التوبة» ج٤ ح ١٠٣٧٦، وفي مجمع الزوائد (باب فيمن خاف من ذنوبه) ج١٠ ص١٩٧.

الناس نهيًا عن أنْ يُنسب معين إلى تكفير، وتفسيق، ومعصية؛ إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة، وفاسقًا أخرى، وعاصيًا أخرى، وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها: وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل **ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية**»انتهى.

قلت: فانظر كيف قرر - رحمة الله تعالى - في هذه النصوص السابقة، هذا الأصل الأصيل لأهل السنة والجماعة، بألا ينسب مُعين إلى تكفير، إلا إذا قامت عليه الحجة الرسالية، التي يكفر تاركها.

وفي هذا أبلغ الرد على المستدلين من المتأخرين ببعض آيات القرآن العظيم، فيطبقون أحكامها غلوا في المسلمين، من أمثال قوله تعالى: **﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾** فيسارعون إلى البراءة وإعلان الكفر بمجتمعاتهم وأقوامهم، تأسيا بالخليل إبراهيم عليه السلام بزعمهم، دون تطبيق الشرط السابق الذي نص عليه الإمام ابن تيمية وغيره من أئمة المسلمين، وهو إقامة الحجة الرسالية على هذه المجتمعات وتلك الأقوام، والتي بدون إقامتها - والذي هو الحادث - **لا يجوز أن تنسب هذه المجتمعات إلى كفر أو فسق أو معصية!!**

فالتأسي بالخليل إبراهيم عليه السلام يجب أن يكون **كاملاً**، لا في وجه دون وجه، حيث إنه عليه السلام قبل إعلان البراءة من قومه **أقام عليهم الحجة الرسالية**، بخلاف المتأخرين الذين أعلنوا البراءة من أقوامهم، والكفر بهم، دون إقامتها، مما يجعل تأسيهم به منقوصا، وليس على بابه..

أقول: وهذا المعين الذي يقرر الإمام ابن تيمية أنه لا يحكم بكفره أو فسقه أو معصيته، حتى تقوم عليه الحجة قد يكون جماعة، وقد يكون أفرادا، فلا يجوز الحكم على قوم معينين، بالكفر أو الفسق إلا بعد إقامة الحجة عليهم، التي من خالفها كان كافرا تارة وفاسقا أخرى، وإذا لم نستطع إضافة الكفر إليهم، فمن ثم لا يمكننا البراءة منهم مع عدم إقامتها..

وقد أورد **الإمام البخاري - رحمه الله تعالى -** ترجمة حافلة في الصحيح تبين هذا في كتاب **(استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم) باب (قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم) وقول الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضل قومًا بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾** وكان ابن عمر يراهم شرار خلق الله، **وقال: إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين.**

قال الإمام القسطلاني في إرشاد الساري ج١٠ ص٨٤: (باب قتل (الملحدين) بضم الميم وسكون اللام بعدها حاء فدال مهملتان العادلين عن الحق المائلين إلى الباطل **(بعد إقامة الحجة عليهم)** بإظهار بطلان دلائلهم **(وقول الله تعالى)** بجر قول عطفا على المجرور السابق وبالرفع على الاستئناف: **﴿وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ أي ما أمر الله باتقائه واجتنابه مما نهى عنه وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ولا يخذلهم إلا إذا قدموا عليه بعد بيان حظره وعلمهم بأنه واجب الاجتناب وأما قبل العلم والبيان فلا)**انتهى كلام العلامة القسطلاني.

أقول: والخليل إبراهيم عليه السلام إنما تبرأ من قومه بعد أن بلغهم الرسالة، ودعاهم الدعوة التامة الكاملة، فهل دعا الآخرون أقوامهم قبل أن يتبرءوا منهم؟

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرح صحيح مسلم ج١ ص١٥٠: (**واعلم أن مذهب أهل الحق أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب ولا يكفر أهل الأهواء والبدع** وأن من جحد ما يعلم من دين الإسلام ضرورة حكم بردته وكفره إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام أو نشأ ببادية بعيدة ونحوه ممن يخفي عليه فيعرف ذلك فإن استمر حكم بكفره وكذا حكم من استحل الزنا أو الخمر أو القتل أو غير ذلك من المحرمات التي يعلم تحريمها ضرورة)انتهى كلام الإمام النووي.

وقال الإمام ابن تيمية رحمه الله في مجموع الفتاوى ج٢٨ ص٥٠٠

«ولهذا لا يكفر العلماء من استحل شيئًا من المحرمات لقرب عهده بالإسلام أو لنشأته ببادية بعيدة: فإن حكم الكفر لا يكون إلا بعد بلوغ الرسالة وكثير من هؤلاء قد لا يكون قد بلغته النصوص المخالفة لما يراه ولا يعلم أن الرسول بعث بذلك **فيطلق أن هذا القول كفر. يكفر من قامت عليه الحجة التي يكفر تاركها: دون غيره والله أعلم؟»انتهى.**

أقول: فلابد **من بلوغ الرسالة والدعوة التامة الكاملة، قبل الحكم بالكفر أو غيره على معين**، سواء كان جماعة أو أفرادا، لأن حكم الكفر لا يكون إلا بعد بلوغ الرسالة، فكثير من الناس قد لا يكون قد بلغته النصوص المخالفة لما يراه من وجه صحيح، وبعضهم قد يكون لم يسمع بتلك النصوص، أو سمعها ولم تثبت عنده، أو عارضها عنده معارض آخر، أوجب تأويلها وإن كان مخطئا، وقد يكون بعضهم نشأ ببادية بعيدة عن العلم والعلماء، وقد يكون قريب عهد بالإسلام، وفي كل ما سبق لا تعتبر الدعوة تامة كاملة..

فمن ثم لا يجوز الحكم على المعين المخالف بكفر أو غيره، كما أنه لا يجوز البراءة منه من أجل ما صدر عنه من مخالفات، إلا بعد إقامة الحجة وبلوغ الرسالة، وبعد دعوته الدعوة التامة، وبذلك أرشد القرآن: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[1].

قال الإمام السيوطي: (أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما عن قتادة في قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ **قال: «إن الله ليس بمعذب أحدا حتى يسبق إليه من الله خبر أو تأتيه من الله بينة»انتهى.**

وقال في قوله تعالى: ﴿مَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[2]: أخرج عبد بن حميد. وابن المنذر. وابن أبي حاتم في تفاسيرهم عن قتادة في الآية **قال: «ما أهلك الله من قرية إلا من بعد الحجة والبينة والعذر حتى يرسل الرسل وينزل الكتب تذكرة لهم وموعظة وحجة لله، ذكرى وما كنا ظالمين، يقول: ما كنا لنعذبهم إلا من بعد البينة والحجة)»انتهى.**

والخليل عليه السلام قبل أن يتبرأ من قومه حرص ونصح لأئمة الكفر وصنّاع الأصنام على عهده ومنهم أبوه ومدحه الله بذلك قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلامٌ عَلَيْكَ﴾[3].

---

(١) سورة الإسراء آية: ١٥.

(٢) سورة الشعراء آية: ٢٠٨، ٢٠٩.

(٣) سورة مريم آية: (٤١: ٤٧).

وكذلك كان هدي كل الأنبياء صلوات الله وتسليماته عليهم مع أقوامهم، فها هو النبي الكريم نوح عليه السلام يقول لقومه: **﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾**(١)، حتى عندما كان ابنه على الكفر، ظل عليه السلام على الحرص عليه والشفقة نحوه **﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾**(٢) طلبًا لنجاته وحرصًا على حياته، **قال الإمام ابن كثير في تفسيره**: «وكان كافرًا دعاه أبوه عند ركوب السفينة أن يؤمن ويركب معهم ولا يغرق مثل ما يغرق الكافرون» **﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾**(٣) فلما هلك سأل نوح عليه السلام عنه ربه عز وجلَّ: **﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾**(٤).

قال الإمام ابن كثير: «هذا سؤال استعلام وكشف من نوح عليه السلام عن حال ولده الذي غرق: **﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾** أي وقد وعدتني بنجاة أهلي ووعدك الحق الذي لا يخلف فكيف غرق وأنت أحكم الحاكمين؟ **﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾** أي الذين وعدت إنجاءهم لأني إنما وعدتك بنجاة من آمن من أهلك، ولهذا قال: **﴿وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾**(٥) فكان هذا الولد ممن سبق عليه القول بالغرق لكفره ومخالفته أباه نبي الله نوح عليه السلام»انتهى.

---

(١) سورة الأعراف آية: ٦٢.

(٢) سورة هود آية: ٤٢.

(٣) سورة هود آية: ٤٣.

(٤) سورة هود آية: ٤٥.

(٥) سورة المؤمنون آية: ٢٧.

فلما علم نوح عليه السلام، أن السابقة في ابنه الموافاة على غير الإيمان، وأنه عمل غير صالح، استغفر للرحمن، في سؤاله ما ليس له به علم، أما قبل الوحي له بذلك، وطوال فترة حياة ابنه، فلم يكن من نوح عليه السلام إلا الحرص والشفقة عليه، ودعوته للإيمان، ولم يأمره الله تعالى أن يكف عن ذلك في هذه الفترة، وتلك المدة، بل كان الوحي من الله تعالى: ﴿**أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[1] فهل يوجد الآن وحي، يُخبر عن أحد من الناس، أنه هالك، وأنه عمل غير صالح حتى نتبرأ منه . . .

وهذا النبي هود عليه السلام يقول لقومه: ﴿**وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ**﴾[2]، **وهذا الكريم صالح عليه السلام** يقول لقومه حين ردوا دعوته، ورفضوا نصيحته: ﴿**وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لاَّ تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ**﴾[3].

فهل حرص المتأخرون على أقوامهم، مثل حرص الأنبياء عليهم السلام، ونصحوهم قبل أن يتبرءوا منهم؟؟

والخليل إبراهيم عليه الصلاة والتسليم أشفق وحرص على الشذاذ المجرمين، قوم لوط المعتدين، لرفع العذاب عنهم، حتى مُدح بذلك وأُمر بالإعراض عن هذا: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[4].

---

(١) سورة نوح اية: ١.

(٢) سورة الأعراف آية: ٦٨.

(٣) سورة الأعراف آية: ٧٩.

(٤) سورة هود آية: ٧٤: ٧٦.

فهل أشفق الآخرون على العصاة والمجرمين من عموم المسلمين؟

وإذا لم يفعلوا هذا، هل أُمروا من أحد، بالإعراض عن محاولة رفع العذاب عن الفاسقين، بالحرص على هدايتهم ودعوتهم إلى الإيمان؟؟

مع أن الحرص على المسلمين كان وصف سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

قال العلماء: من فضله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى أعطاه اسمين من أسمائه فقال بالمؤمنين رءوف رحيم..

وأيضا الخليل إبراهيم عليه الصلاة والتسليم تبرأ والذين آمنوا معه من قومه وكانوا كفارا يعبدون الأصنام، فكيف بالآخرين الذين يتبرون من أقوامهم المسلمين، أتباع النبي ﷺ الموحدين..

وكيف نطبق أحكام الكفار على أهل الإسلام: **﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[2].**

على أن المستدل بهذه الآية غفل عن الآيات التي تليها، ولو قرأها وتدبَّرها لكفانا وكفى المسلمين الاجتهاد المبتور، من دليل واحد مع طرح بقية الأدلة، كما يفعل ذلك الكثير من الناظرين في هذه المباحث، وهذه الآيات هي قوله تعالى: **﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3].**

---

(١) سورة التوبة آية: ١٢٨.

(٢) سورة ن آية: ٣٥، ٣٦.

(٣) سورة الممتحنة آية: ٦، ٧.

قال الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية: «ولما نزلت عادى المسلمون أقرباءهم من المشركين، فعلم الله شدة وجد المسلمين في ذلك فنزلت: ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾[1] وهذا بأن يُسلم الكافر، وقد أسلم قوم منهم بعد فتح مكة وخالطهم المسلمون، كأبي سفيان بن حرب والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام، وقيل المودة تزويج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، فلانت عند ذلك عريكة أبي سفيان، واسترخت شكيمته في العداوة. قال ابن عباس: كانت المودة بعد الفتح تزويج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان، وكانت تحت عبدالله بن جحش، وكانت هي وزوجها من مهاجرة الحبشة، فأما زوجها فتنصر وسألها أن تتابعه على دينه فأبت وصبرت على دينها، ومات زوجها على النصرانية. فبعث النبي ﷺ إلى النجاشي فخطبها، فقال النجاشي لأصحابه: من أولاكم بها؟ قالوا: خالد بن سعيد بن العاص. قال فزوجها من نبيكم. ففعل، وأمهرها النجاشي من عنده أربعمائة دينار. وقيل: خطبها النبي ﷺ إلى عثمان بن عفان، فلما زوجه إياها بعث إلى النجاشي فيها، فساق عنه المهر وبعث بها إليه. فقال أبو سفيان وهو مشرك لما بلغه تزويج النبي ﷺ ابنته: ذلك الفحل لا يُقْدع أنفه أي لا يضرب أنفه. وذلك إذا كان كريما.

قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[2]

قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾.

---

(١) سورة الممتحنة آية: ٧.

(٢) سورة الممتحنة آية: ٨.

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: هذه الآية رخصة من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم، قال ابن زيد: كان هذا في أول الإسلام عند الموادعة وترك الأمر بالقتال ثم نسخ، قال قتادة: نسختها **﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾**[1]. **وقيل: كان هذا الحكم لعلة وهو الصلح**، فلما زال الصلح بفتح مكة نسخ الحكم وبقي الرسم يُتْلَى. **وقيل: هي مخصوصة في حلفاء النبي ﷺ ومَنْ بينه وبينه عهد لم ينقضه**، قاله الحسن. الكلبي: هم خُزاعة وبنو الحارث بن عبد مناف وقاله أبو صالح، وقال: هم خزاعة. وقال مجاهد: هي مخصوصة في الذين آمنوا ولم يهاجروا. **وقيل: يعني به النساء والصبيان لأنهم ممن لا يقاتل! فأذن الله في برّهم.** حكاه بعض المفسرين.

وقال أكثر أهل التأويل: هي محكمة. واحتجُّوا بأن أسماء بنت أبي بكر سألت النبي ﷺ: هل تصلُ أمها حين قدمت عليها مشركة؟ قال: «نعم» خرجه البخاري ومسلم. وقيل: إن الآية فيها نزلت. روى عامر بن عبدالله بن الزبير عن أبيه أن أبا بكر الصديق طلق امرأته قتيلة في الجاهلية، وهي أم أسماء بنت أبي بكر، فقدمت عليهم في المدة التي كانت فيها المهادنة بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، فأهدت إلى أسماء بنت أبي بكر الصديق قُرطا وأشياء، فكرهت أن تقبل منها حتى أتت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فأنزل الله تعالى: **﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾** ذكر هذا الخبر الماوردى وغيره، وخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده.

الثانية: قوله تعالى: **﴿أن تبروهم﴾ ﴿أن﴾** في موضع خفض على البدل من «الذين» أي: لا ينهاكم الله عن أن تبروا الذين لم

---

(١) سورة التوبة آية: ٥.

يقاتلوكم. وهم خُزاعة، صالحوا النبي ﷺ على ألا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدا، فأمر ببرهم والوفاء لهم إلى أجلهم، حكاه الفراء ﴿وتقسطوا إليهم﴾ أي تعطوهم قسطا من أموالكم على وجه الصلة. **وليس يريد به من العدل، فإن العدل واجب فيمن قاتل وفيمن لم يقاتل، قاله ابن العربي.**

الثالثة: قال القاضي أبو بكر في كتاب الأحكام له: «استدل به بعض من تعقد عليه الخناصر على وجوب نفقة الابن المسلم على أبيه الكافر. وهذه وهلة عظيمة إذ الإذن في الشيء أو ترك النهي عنه لا يدل على وجوبه، وإنما يعطيك الإباحة خاصة. وقد بينا أن إسماعيل ابن سحاق القاضي دخل عليه ذميّ فأكرمه، فأخذ عليه الحاضرون في ذلك، فتلا هذه الآية عليهم) انتهى كلام الإمام القرطبي.

قلت: فإذ قد رأيت أن أكثر أهل التأويل والتفسير قالوا إنها محكمة، أي أنها لم تُنسخ، بل ثابت حكمها، وهي رخصة من الله تعالى في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم، فلا وجه للإنكار على من ذهب إلى العمل بهذا القول وعليه أكثر أهل التأويل، فحرص ونصح لغير المسلمين، ودعاهم إلى الهداية، وأن يكونوا من أهل السعادة، بمعرفة الإيمان والدخول في الإسلام..

بل لا وجه قوي للعمل فقط بالآية الأولى وهي قوله تعالى: **﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَه..﴾** مع ترك الآيات الآخرى المفسرة لها، والمبينة لإحكامها، وهي الآيات: **﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾**.

بل إن هناك فرق بين النهي عن مودة أعداء الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين الوارد في أول الآيات من سورة الممتحنة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي...﴾[1].

وبين الأمر الوارد بالبر والإحسان لهم في قوله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[2].

---

(١) سورة الممتحنة آية: ١.

(٢) سورة الممتحنة آية: ٨.

الفرق بين قاعدة
بِرِّ أهل الذمة وبين قاعدة التودُّدِ لهم

أوضح هذا الفرق الإمام القرافي رحمه الله تعالى حيث أورد قاعدتين عظيمتين في الولاء والبراء، وأوضح أحكامهما والفرق بينهما في الفروق ج٣ ص١٤ قال رحمه الله تعالى:

(الفرق التاسع عشر والمائة بين قاعدة «برّ أهل الذمة وبين قاعدة التودد لهم»). اعلم أن الله تعالى منع من التودّد لأهل الذمة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾[1] الآية فمنع الموالاة والتودد وقال في الآية الأخرى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾[2] الآية وقال في حق الفريق الآخر: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾[3] الآية وقال ﷺ: «استوصوا بأهل الذمة خيرا» وقال في حديث آخر: «استوصوا بالقبط خيراً» فلابد من الجمع بين هذه النصوص، وأن الإحسان لأهل الذمة مطلوب وأن التودد والموالاة منهي عنهما والبابان ملبسان فيحتاجان إلى الفرق وسر الفرق أن عقد الذمة يوجب حقوقًا علينا لهم لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا وذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ ودين الإسلام فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غيبة في عرض أحدهم أو نوع من أنواع الأذية أو أعان على ذلك فقد ضيع ذمه الله تعالى وذمة رسوله ﷺ وذمة دين الإسلام **وكذلك حكى ابن حزم في مراتب الإجماع له** أن من كان في الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح ونموت دون ذلك صونا لمن هو في ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة وحكى في ذلك إجماع الأمة

---

(١) سورة الممتحنة آية: ١.
(٢) سورة الممتحنة آية: ٨.
(٣) سورة الممتحنة آية: ٩.

فعقد يؤدي إلى إتلاف النفوس والأموال صونا لمقتضاه عن الضياع أنه لعظيم، وإذا كان عقد الذمة بهذه المثابة **تعين علينا أن نبرهم بكل أمر لا يكون ظاهره يدل على مودات القلوب ولا تعظيم شعائر الكفر فمتى أدى إلى أحد هذين امتنع وصار من قبل ما نهى عنه في الآية وغيرها** ويتضح ذلك بالمثل فإخلاء المجالس لهم عند قدومهم علينا والقيام لهم حينئذ ونداؤهم بالأسماء العظيمة الموجبة لرفع شأن المنادي بها هذا كله حرام وكذلك إذا تلاقينا معهم في الطريق وأخلينا لهم واسعها ورحبها والسهل منها وتركنا أنفسنا في خسيسها وحزنها وضيقها كما جرت العادة أن يفعل ذلك المرء مع الرئيس والولد مع الوالد والحقير مع الشريف فإن هذا ممنوع لما فيه من تعظيم شعائر الكفر وتحقير شعائر الله تعالى وشعائر دينه واحتقار أهله ومن ذلك تمكينهم من الولايات والتصرف في الأمور الموجبة لقهر من هي عليه أو ظهور العلو وسلطان المطالبة فذلك كله ممنوع وإن كان في غاية الرفق والأناة أيضًا لأن الرفق والأناة في هذا الباب نوع من الرئاسة والسيادة وعلو المنزلة في المكارم فهي درجة رفيعة أوصلناهم إليها وعظمناهم بسببها ورفعنا قدرهم بإيثارها وذلك كله منهي عنه وكذلك لا يكون المسلم عندهم خادمًا ولا أجيرا يؤمر عليه وينهي ولا يكون أحد منهم وكيلا في المحاكمات على المسلمين عند ولاة الأمور فإن ذلك أيضًا إثبات لسلطانهم على ذلك المسلم **وأما ما أمر به من برهم من غير مودة باطنية فالرفق بضعيفهم وسد خلة فقيرهم وإطعام جائعهم وإكساء عاريهم ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة واحتمال إذايتهم في الجوار مع القدرة على إزالته لطفا منا بهم لا خوفًا وتعظيما والدعاء لهم بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم**

ودنياهم وحفظ غيبتهم إذا تعرض أحد لأذيتهم وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم وإيصالهم لجميع حقوقهم وكل خير يحسن من الأعلى مع الأسفل أن يفعله ومن العدو أن يفعله مع عدوه فإن ذلك من مكارم الأخلاق فجميع ما نفعله معهم من ذلك ينبغي أن يكون من هذا القبيل لا على وجه العزة والجلالة منا ولا على وجه التعظيم لهم وتحقير أنفسنا بذلك الصنيع لهم وينبغي لنا أن نستحضر في قلوبنا ما جبلوا عليه من بغضنا وتكذيب نبينا ﷺ وأنهم لو قدروا علينا لاستأصلوا شأفتنا واستولوا على دمائنا وأموالنا وأنهم من أشد العصاة لربنا ومالكنا عز وجل ثم نعاملهم بعد ذلك بما تقدم ذكره امتثالاً لأمر ربنا عز وجل وأمر نبينا ﷺ لا محبة فيهم ولا تعظيمًا لهم ولا نظهر آثار تلك الأمور التي نستحضرها في قلوبنا من صفاتهم الذميمة لأن عقد العهد يمنعنا من ذلك فنستحضرها حتى يمنعنا من الود الباطن لهم المحرم علينا خاصة) انتهى كلام الإمام القرافي.

قلت: فانظر إلى ما أورده الإمام القرافي في الفرق بين قاعدتين عظيمتين في باب الولاء والبراء، قاعدة النهي عن التودّد والموالاة لأهل الذمة وغير المسلمين من الكفار الذين في جوارنا وخفارتنا، فيحرم على المسلم أن يكون في قلبه المودة الباطنية لمن كذّب الله تعالى وأعرض عن رسوله ﷺ، وأبغض الإسلام والمسلمين، وكان حاله أنه لو قدر على المسلمين لاستطال عليهم في الأموال والدماء، وبين **قاعدة بِرِّهم والإحسان إليهم، رجاء نفعهم وهدايتهم، ونصحا وحرصا عليهم، أن يكونوا من أهل السعادة في الدارين..**

ولمعرفة معاني البر كما وردت في الآية الكريمة، جاء في الموسوعة الفقهية الجزء ٨ ص٥٩ ما يأتي: تدور معاني لفظ البِرّ لغة: **ـ على الصدق والطاعة والصلة والإصلاح والاتساع في الإحسان إلى الناس يقال:** بَرّ يبر: إذا صلح، وبرّ في يمينه: إذا صدق، والبر الصادق، وأبر الله الحج وبره: أي قبله، والبر: ضد العقوق، والمبرة مثله وبررت والديّ أي وصلتهما ومن أسمائه سبحانه وتعالى: (البرّ) أي الصادق فيما وعد أولياءه[1].

(ولا يخرج استعمال الفقهاء لهذا اللفظ عن معناه اللغوي فهو عندهم: اسم جامع للخيرات كلها يراد به التخلق بالأخلاق الحسنة مع الناس بالإحسان إليهم وصلتهم والصدق معهم ومع الخالق بالتزام أمره واجتناب نهيه كما يطلق ويراد به العمل الدائم الخالص من المأثم ويقابله الفجور والإثم لأن الفجور خروج عن الدين، وميل إلى الفساد وانبعاث في المعاصي، وهو اسم جامع للشر) انتهى.

وفي شرح صحيح مسلم للإمام النووي ج١٦ ص١١١ في شرح حديث: **«البر حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»** قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: قال العلماء: **البر يكون بمعنى الصلة وبمعنى اللطف والمبره وحسن الصحبة والعشرة وبمعنى الطاعة وهذه الأمور هي مجامع حسن الخلق»**انتهى.

وفي معجم المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٤٠

بر: البَرُّ خلاف البحر وتصور منه التوسع فاشتق منه البرُّ: أي التوسع في فعل الخير وينسب ذلك إلى الله تعالى تارة نحو: **﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾**[2] وإلى العبد تارة فيقال: بر العبد ربه. أي توسع في

(١) لسان العرب مادة «برر» (وتهذيب الأسماء ٣/ ٢٣).

(٢) سورة الطور آية: ٢٨.

طاعته فمن الله تعالى الثواب ومن العبد الطاعة وذلك ضربان:

ضرب في الإعتقاد وضرب في الأعمال وقد اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾[1] الآية وعلى هذا ما روي أنه سئل عليه الصلاة والسلام عن البر فتلا هذه الآية. فإن الآية متضمنة للاعتقاد، الأعمال الفرائض والنوافل وبر الوالدين والتوسع في الإحسان إليهما وضده العقوق قال تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ ويستعمل البر في الصدق لكونه بعض الخير المتوسع فيه يقال: برَّ في قوله وبرَّ في يمينه وقول الشاعر: أكون مكان البرِّ منه

أما معنى البراء فقال العلامة الراغب الأصفهاني «في المفردات في غريب القرآن» ص٤٥:

برأ: أصلُ البُرْءِ والبَراءِ والتَّبَرِّيِّ التَّفَصِّي مِمَّا يُكْرَهُ مُجَاوَرَتُهُ. ولذلك قيلَ بَرَأْتُ مِنَ المَرَضِ وَبَرَأْتُ مِنْ فُلانٍ وتَبَرَّأْتُ وأَبْرَأْتُهُ مِنْ كذا وبَرَّأْتُهُ ورجلٌ بريءٌ وقومٌ بُرَآءُ وبَرِيئُونَ قال عزَّ وجلَّ: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[2].

وجاء في الموسوعة الفقهية في معنى البراءة ج٨ ص١٥١:

التعريف: ١ ـ البراءة في اللغة: الخروج من الشيء والمفارقة له، والأصل البَرْء بمعنى: القطع، فالبراءة قطع العلاقة، يقال: بَرِئْتَ من الشيء، وأبرأ براءة: إذا أزلته عن نفسك وقطعت أسبابه، وبرئت من الدين: انقطع عني، ولم يبق بيننا علقة[3].

---

(١) سورة البقرة آية: ١٧٧.

(٢) سورة التوبة آية: ١.

(٣) لسان العرب والصحاح مادة: «برأ» والكليات لأبي البقاء ١/ ٤٢٧، والفروق في اللغة ص١٣١، وتفسير القرطبي ٨/ ٦٣. وتفسير الفخر الرازي ١٦/ ٢١٧.

أما معنى الولاء فجاء في المفردات في غريب القرآن للعلامة الراغب الأصفهاني ص ٥٣٣ ما يأتي:

ولى: الوَلاءُ والتَّوالي أنْ يحْصُلَ شيْئَانِ فَصاعِدًا حُصُولاً ليس بَينهما ما ليسَ منهما، ويُسْتَعارُ ذلك للقُرْبِ من حيثُ المكانُ ومن حيثُ النِّسْبةُ ومن حيثُ الدِّينُ ومن حيثُ الصَّداقةُ والنُّصرة والاعتقادُ، والوِلايةُ النُّصرةُ، والوَلايةُ تولِّي الأمرِ، وقيلَ الوِلايةُ والوَلايةُ نحوُ الدِّلالة والدَّلالة، وحقيقتُهُ تَولِّي الأمْر.

أمَا معنى المَودة فجاء في غريب القرآن ص ٥١٦ ما يأتي:

ودد: الوُدُّ مَحَبَّةُ الشيء وتَمَنِّي كونه، ويُسْتَعْمَلُ في كُلٍّ واحد من المَعْنَيينِ على أن التَّمَنِّيَ يَتَضَمَّنُ معنَى الوُدِّ لأنَّ التَّمَنِّيَ هو تَشَهِّي حُصُولِ ما تَوَدُّه.

وجاء في لسان العرب لابن منظور ج٦ مادة «ودد»:

الوُدُّ: مَصْدرُ المَوَدَّة، ابنُ سيدَة: الوُدُّ الحُبُّ يكون في جميع مداخل الخير، عن أبي زيد. ووَدِدْتُ الشيء أوَدُّ، وهو من الأمنيَّة.

قلت: فإذا كنا قد أمرنا بالنسبة للذين لم يقاتلونا أو يخرجونا من ديارنا، أو يكونوا محاربين لنا، بالبر الذي هو اسم جامع للخيرات كلها، إظهارا لسمو هذه الشريعة، ورفعة نصوصها وتعاليمها..

حيث إن مكارم الأخلاق فيها لغير المسلمين، منصوص عليه في كتابها وقرآنها، والبر والإحسان والصلة وطلب نفعهم في الدارين، والحرص عليهم، هو مطلوب الشارع فيها، فما أبهى شرعنا، وما أرفع ديننا، وما أقدس ملتنا..

فيا أيتها الدنيا إلى قرآننا وسنة نبينا ﷺ أقبلي، وتعلمي من الإسلام أسمى المواثيق، وأكمل العهود لحقوق الإنسان، التي يسعى لها الساعون ظاهرا لا باطنا، ويطبقها البعض في حال دون حال، ووجه

دون وجه، بخلاف شريعة الإسلام التي جعلت الناس جميعا كأسنان المُشط، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، ولا لأبيض على أسود، ولا لغني على فقير، وكل هذه الأشياء للآخرين فروق في دنياهم، وحواجز في حياتهم..

وهذه نصوص ديننا لغير أهل ملتنا، للأجناس التي تحيا عندنا، ولا تدين بديننا، والتي فيها الأمر بكل الخير لهم وبالبر إليهم، والتي فسرها أئمتنا ومنهم الإمام القرافي رحمه الله تعالى في الفروق: بالرفق «**بضعيفهم وسد خلة فقيرهم وإطعام جائعهم وإكساء عاريهم**».

ويبقى العدل والإنصاف من حقنا، والبر والرحمة واللطف ومكارم الأخلاق أصل شريعتنا، وإن أخطأ في فهمها البعض!، وجهل نصوصها البعض!، والتاريخ خير متحدث عن صدق ما نقول، وفيه من القصص ما تحار فيه العقول، وهو خير شاهد أن هذا ما تحقق إلا في ظل وكنف شريعة المسلمين..

ويكفي من الأمثلة الكثيرة النصية عن الأئمة على ما نقول، هذا النص الذي أورده الإمام القرافي في أول القاعدة عن الإمام ابن حزم رحمه الله تعالى في مراتب الإجماع له..

كذلك هذا النص الذي أورده **الإمام القرطبي في تفسيره ج٦ ص٤١٥٠ عند قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام عندما قال لأبيه: ﴿سلام عليك﴾ قال الإمام القرطبي: (قوله تعالى: قال ﴿سلام عليك﴾** لم يعارضه إبراهيم عليه السلام بسوء الرد؛ لأنه لم يؤمر بقتاله على كفره، والجمهور على أن المراد بسلامة المسالمة التي هي المتاركة لا التحية؛ **قال الطبري:** معناه أمنة مني لك. وعلى هذا لا يبدأ الكافر بالسلام. **وقال النقاش:** حليم خاطب سفيها؛ كما قال: **﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾**. وقال بعضهم في معنى تسليمه: هو

تحية مفارق؛ وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها. **قيل لابن عيينة:** هل يجوز السلام على الكافر؟ **قال: نعم؛ قال الله تعالى: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾. وقال: ﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم﴾ الآية؛ وقال إبراهيم لأبيه: ﴿سلام عليك﴾.**

قلت «أي الإمام القرطبي»: (الأظهر) من الآية **ما قاله سفيان ابن عيينة؛** وفي الباب حديثان صحيحان: **روي أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه»** خرجه البخاري ومسلم. وفي الصحيحين **عن أسامة بن زيد أن النبي ﷺ ركب حمارا عليه إكاف تحته قطيفة فَدَكية، وأردف وراءه أسامة بن زيد؛ وهو يعود سعد بن عبادة في بني الحرث بن الخزرج، وذلك قبل وقعة بدر، حتى مر في مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفيهم عبدالله بن أبيّ بن سلول، وفي المجلس عبدالله بن رواحة، فلما غشيت المجلسَ عجاجةُ الدابة، خمر عبدالله بن أبيّ أنفه بردائه، ثم قال: لا تُغبِّروا علينا، فسلّم عليهم النبي ﷺ؛ الحديث.**

فالأول يفيد ترك السلام عليهم ابتداء، لأن ذلك إكرام، والكافر ليس أهله.

والحديث الثاني يُجوز ذلك.

قال الطبري: ولا يعارض ما رواه أسامة بحديث أبي هريرة، **فإنه ليس في أحدهما خلاف للآخر؛** وذلك أن حديث أبي هريرة **مخرجه العموم، وخبر أسامة يبين أن معناه الخصوص.**

وقال النخعي: «إذا كانت لك حاجة عند يهودي أو نصراني فابدأه بالسلام»؛ فبان بهذا أن حديث أبي هريرة «لاتبدءوهم بالسلام» إذا كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدءوهم بالسلام، من قضاء ذمام أو حاجة تعرض لكم قِبلهم، أو حق صحبة أو جوار أو سفر.

قال الطبري: وقد روي عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب. وفعله ابن مسعود بدهقان صحبه في طريقه؛ قال علقمة: فقلت له يا أبا عبدالرحمن أليس يكره أن يُبدءوا بالسلام؟! قال: نعم؛ ولكن حقّ الصحبة[1].

وكان أبو أمامة[2] إذا انصرف إلى بيته لا يمر بمسلم ولا نصراني ولا صغير ولا كبير إلا سلم عليه؛ فقيل له في ذلك فقال: أمرنا أن نفشي السلام.

وسئل الأوزاعي عن مسلم مر بكافر فسلم عليه، فقال: إن سلمت فقد سلم الصالحون قبلك، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك.

وروي عن الحسن البصري أنه قال: إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم.

قلت «أي الإمام القرطبي»: وقد احتج أهل المقالة الأولى بأن السلام الذي معناه التحية إنما خص به هذه الأمة؛ لحديث أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى أعطى أمتي ثلاثا لم تعط أحدا قبلهم السلام وهي تحية أهل الجنة» الحديث؛ ذكره الترمذي الحكيم؛ وقد مضى في الفاتحة بسنده)انتهى كلام الإمام القرطبي.

---

(١) أخرجه الطبري بسند صحيح عن علقمة قال: «كنت ردف لابن مسعود، فصحبنا دهقان، فلم انشعبت له الطريق أخذ فيها، فأتبعه عبدالله بصره فقال: السلام عليكم فقلت ألست تكره أن يبدؤا بالسلام؟ قال: نعم ولكن حق الصحبة».

(٢) في الأصل أبو أسامة وليس بصحيح، وقد أخرج أثر أبو أمامة الطبري بسند جيد.

وقال الإمام ابن القيم ﴿في زاد المعاد في هدي خير العباد) ج٢ ص٢٧: (فصل في هديه ﷺ في السلام على أهل الكتاب) صح أنه صلى الله عليه وسلم قال: «لا تبدؤهم بالسلام وإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم عنه إلى أضيق الطريق» لكن قد قيل إن هذا كان في قضية خاصة لما ساروا إلى بني قريظة قال لا تبدؤهم بالسلام فهل هذا حكم عام لأهل الذمة مطلقا أو يختص بمن كانت حاله مثل حال أولئك هذا موضع نظر ولكن قد روي مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام وإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيقه» والظاهر أن هذا حكم عام وقد اختلف السلف والخلف في ذلك فقال أكثرهم لا يبدؤن بالسلام وذهب آخرون إلى جواز ابتدائهم كما يرد عليهم روي ذلك عن ابن عباس وأبي أمامة وأبي محيريز وهو وجه في مذهب الشافعي رحمه الله لكن صاحب هذا الوجه قال يقال له السلام عليك فقط بدون ذكر الرحمة وبلفظ الإفراد، وقال طائفة يجوز الابتداء لمصلحة راجحة من حاجة تكون له إليه أو خوف من أذاه أو لقرابة بينهما أو لسبب يقتضي ذلك يروي ذلك عن إبراهيم النخعي وعلقمة وقال الأوزاعي: إن سلمت فقد سلم الصالحون وإن تركت فقد ترك الصالحون واختلفوا في وجوب الرد عليهم فالجمهور على وجوبه وهو الصواب وقالت طائفة لا يجب الرد عليهم كما لا يجب على أهل البدع وأولى والصواب الأول والفرق أنا مأمورون بهجر أهل البدع تعزيراً لهم وتحذيراً منهم بخلاف أهل الذمة.

(فصل وثبت عنه صلى الله عليه وسلم) أنه مر على مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين وعبدة الأوثان واليهود فسلم عليهم وصح عنه أنه كتب إلى هرقل وغيره بالسلام على من اتبع الهدى)انتهى كلام الإمام ابن القيم.

قلت: وتأسيسا على كلام الأئمة السابق، إن كانت هناك حاجة ماسة لنشر الإيمان، والدعوة إلى الإسلام، ألا يكون هذا مسوغا وسببا قويا، للدعاة حين يبدأون غير المسلمين بالسلام، رغبة في تأليفهم، وحرصا على فتح باب التوحيد والإسلام رحبا أمامهم، وألا يكون العمل على إخراج أمثال هؤلاء من الظلمات إلى النور من أقوى الضرورات، وأنفع الحاجات..

فمع هذا ما يقومون به هل يعاب عليهم!، إذا رفقوا بالعصاة من المسلمين وغير المسلمين، فسلموا عليهم، وألطفوا القول لهم، رغبة في هدايتهم وعودتهم وتوبتهم..

أيُلامون على هذا!، ويذمون بسبب ذلك!، ويُعارضون من أجل دعوتهم للدخول في الدين! والحرص على أن يكونوا من أهل الإيمان..

ويُطالبون من الآخرين بالهجر والبغض لهؤلاء العصاة، والقطيعة والعداوة معهم، **رغم العدد الهائل الذي يدين بغير دين الإسلام على وجه المعمورة!..**

وكيف السبيل لدعوة هؤلاء إذا كان الاتصال بأدنى صوره، وهو مجرد السلام بنية الدعوة والهداية مقطوع معهم، تطبيقا لاصطلاح الولاء والبراء على ما يزعمون بفهمهم..

مع كونهم قد خلّطوا أحكامه، وأسقطوا شروطه وأركانه، وفكّكوا قيوده وأطلقوا عنانه، فصار كجواد جامح يصدم كل ما يرى، ويُطيح بمن أمامه..

وها هو شيخ الإسلام **الحافظ ابن حجر** رحمه الله تعالى ينص في **الفتح ج١٠ ص٥١٣ (باب ما يجوز من الهجران لمن عصى)** على بُعد ما ذهبوا إليه، لكون الهجر والبغض والقطيعة لغير المسلمين، لا يؤدي إلى ارتداعهم عما هم فيه من الكفر، ومن ترك الإسلام، والبعد عن الإيمان..

كما نقـل الحافظ رحمه الله عن العلمـاء مشروعية مكالمـة العصاة والكفار بالدعاء إلى الطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن غير المشـروع معهم المكالمة بالموادة ونحوها من المحبة البـاطنية فقال رحمه الله:

(وقال الطبري: قـصة كعب بن مالك أصل في هجـران أهل المعاصي، وقـد استـشكل كون هجـران الفـاسق أو المبتـدع مشـروعًا ولا يشـرع هجران الكافـر وهو أشد جـرمًا منهمـا لكونهمـا من أهل التوحـيد في الجملة، وأجاب ابن بطال بأن لله أحكامًا فيها مصالح للعباد وهو أعلم بشأنها وعليهم التسليم لأمره فيها، فجنح إلى أنه تعبد لا يعقل معناه. **وأجاب غيره بـأن الهجران على مرتبتين: الهجـران بالقلب، والهجران باللسان. فـهجران الـكافر بالقلب وبترك التـودّد والتعـاون والتناصر، لاسيـما إذا كـان حربيًـا، وإنما لم يشرع هجـرانه بالكلام لعـدم ارتداعه بذلك عن كـفـره، بخـلاف العاصي المسـلم فإنه ينـزجر بذلك غـالبًـا، ويشتـرك كل من الكافـر والعاصي في مـشروعيـة مكالمته بالـدعاء إلى الطاعة، والأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما المـشروع ترك المكالمة بالموادة ونحوها)انتهى كلام الحافظ ابن حجر.**

فمـع ما سبـق أيُلام أهل الدعوة لكونهم يدعـون لغيـر المسلمين بالهداية، وأن يوفَّقوا لطريق السعادة..! وإذا جاز لنا أن نلومهم على هذا، فلنشرك أئـمة الإسلام مـعهم، الذين نصوا لهـم، على أن البر المأمور به في الآيات لغيـر المسلمين إن لم يكونوا محاربين، إنما يكون كما قال الإمام القرافي **«وأما مـا أمر به من بِرِّهم من غير مـودة باطنية فالرفق بضعـيفهم وسد خلة فقـيرهم وإطعام جائعهم وإكـساء عاريهم ولين القول لهم على سـبيل اللطف لهم والرحمة لاعلى سـبيل الخوف والذلة»انتهى.**

فها قد نص هذا الإمام الجليل لغير المسلمين على «**لين القول لهم على سبيل اللطف والرحمة لا على سبيل الخوف والذلة**».

وهو عين ما يفعله أهل الدعوة، رغبة في رحمة من أمامهم ونصحا وحرصا عليهم، لعلهم يهتدون، ويعرفون الحق ويتقون، فهل أخطئوا في ذلك؟؟، إن كانوا أخطئوا، فلنخطِّئ الإمام الذي نص على هذا لهم..!

وماذا لو عاد المعترض على نفسه بالخطأ، بدلا من أن يُخطِّئ الأئمة المجتهدين، ويرد نصوص القرآن العظيم، التي أمرته وكل مسلم بالبر والقسط إليهم، طالما كانوا غير محاربين..

حيث إنهم الآن أمة الدعوة، المبعوث لها النبي ﷺ بالرسالة، وأمته «أمة الإجابة» من بعده على نيته وقصده، وهي مبعوثة إلى قيام الساعة لكل الناس بالهداية والدلالة على الإيمان، كما أعلن ذلك وقرره الصحابي الجليل ربعي بن عامر رضي الله عنه عندما قال: «**إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام**».

فإما أن نُكذب هذا الصحابي الجليل، في أننا مبعوثون من قبل الله تعالى إلى كل الدنيا، حتى يُعبد وحده في الأرض، وحتى يخرج الناس من عبادة غير الله تعالى إلى عبادة الله وحده، وإما أن نقوم إلى هذه الوظيفة العظيمة، وتلك المهمة الجليلة، نبذل فيها كل الوسع والطاقة، ولن يتأتي هذا إلا بالتعاون على البر والتقوى، مع أهل التبليغ المجتهدين في ذلك، للأخذ بيد غير المسلمين، ليتعرفوا عن قرب على هذا الدين..

وإن وسعنا أن نرد كلام هذا الصحابي الجليل، وجاز لنا أن نُدير له الظهور، ونصم عنه الأذان، فكيف بحديث النبي ﷺ: «**إنما بعثتم ميسرين ولم تُبعثوا معسرين**» والبعثة لا تكون إلا للأنبياء، أو لمن كان على وظيفة وقصد الأنبياء، ففي الأحاديث المختارة من «**فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي**» **قال العلامة الإمام الشيخ عبدالله الشرقاوي رحمه الله**: (**أسند البعث إلى الصحابة** ﭭ **على طريق المجاز لأنه عليه الصلاة والسلام هو المبعوث حقيقة لكنهم لما كانوا في مقام التبليغ عنه في حضوره وغيبته أطلق عليهم ذلك**)انتهى.

وكيف ننظر إلى قوله تعالى: ﴿**وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**﴾، والنبي ﷺ ما غادر الجزيرة العربية، فكيف تُطبق هذه الآية؟، والجواب: تُطبق هذه الآية على أنها من الخطاب المتعدي الذي يشمل النبي ﷺ وأمته، فأمة النبي صلى الله عليه وسلم مبعوثة من بعده بالبلاغ عنه إلى الناس كافة، مبشرة من آمن بالجنان، ومنذرة من أعرض بالخسران..

فهل تطاوعنا أعيننا الآن، في غض الطرف عن هذه النصوص!، وإن طاوعتنا الأبصار في ذلك، فهلا تركنا من نظروا إليها بكل المسارعة والإذعان، وقاموا لتطبيقها على ما وسعهم الجهد في ذلك والإمكان..

فعظموا هذه المقاصد التي حثت عليها النصوص، وأحيوا هذه النيات التي هي روح البعثة والرسالة، وأتبعوا في ذلك سنن الصحابة ﭭ..

فلابد من قائم لله تعالى في الأرض بأعمال الهداية، وفي كل زمان كان ركب الأنبياء يردد كلام الإيمان، ويشع بنور الهداية للناس، حتى توقف الركب، وخُتمت الرسالات..

وبقى لأمة الإسلام بتكليف ربها وأمر نبيها ﷺ، وظيفة الأنبياء ومقاصد النبوات، على طول الزمان، وتحول الأجيال، كلما مضى جيل، انبعث وراءه جيل..

فالرسول ﷺ «رحمة للعالمين» وأمته مثله، وقد خاطبه ربه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**وأرسلناك للناس رسولا**﴾ وأمره عز وجل أن يخاطب الناس بقوله: ﴿**يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا**﴾ ووصفه سبحانه وتعالى فقال: ﴿**تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا**﴾ أي إلى كل الناس، وهذا من الخطاب المتعدي إلى أمته أيضا، أي أن أمته مبعوثة بالبلاغ عنه من بعده إلى كل الناس، مبشرة ومنذرة، مبشرة بالجنة وجلب النفع كل النفع لكل أحد بإدخاله إليها، ومنذرة بالنار ودفع الضرر كل الضرر عن كل أحد بإبعاده عنها، وقد قال ﷺ: «**وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**».

وهذا هو ملخص حياة النبوة، كما ورد في القرآن: ﴿**يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا**﴾، فقام الصحابة ومن بعدهم ﷺ بهذه الوظيفة على أكمل حال، حتى أضاءت الأرض بنور دعوتهم، واهتدى الناس بهديهم، وصار الأمر إلى أن وصل الآن إلينا، بعد أن جفت منابعه، ونضب معينه، وانطمست معالمه، وتراجعت الأمة لقرون عن مهمتها، وتركت وظيفتها، وغابت عنها نياتها ومقاصدها..

حتى إذا قام الآن من يجدد لهذه الأمة في الدعوة عهدها، ويعيد لها في الرسالة مجدها، قاموا إليه فبدّعوه!، فإذا مضى ليحيى على الطريق هديها، وسنة نبيها ﷺ، أوقفوه وردّوه!..

لأنه يطلب الهداية للعصاة والكافرين، وينصح ويشفق على الهالكين، ويتحسس على المعرضين الشاردين، في كل بقاع المعمورة..

وكان الأولى بهم تبديع الأئمة الأعلام الذين فهموا من نصوص القرآن هذا، فمن ثم أمروا الأمة به، وحثوها عليه، وهاك كلام الإمام القرافي رحمه الله تعالى في ندب وتأكيد ذلك حيث قال في الفروق ج٣ ص٢٠٨: «**والدعاء لهم بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة ونصيحتهم في جميع أمورهم في دينهم ودنياهم**».

قلت: فها هو الإمام القرافي ينص على الدعوة لغير المسلمين **«بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة»** فمال اللائمين على أهل الدعوة، يلوكون أعراضهم بألسنتهم، ويلمزون الخير فيهم، وما هم إلا على الصفات الإيمانية التي كانت للقرن الأول، وعلى هُدى الأخلاق والمكارم التي جعلت الصحابة ﷺ يُلخِّصون دعوتهم للناس بقولهم **«كونوا مثلنا»**..

والتي جعلت الناس يتسابقون إلى نور إيمانهم، عندما كانوا قرآنيين يُطبقون تعاليم القرآن، ويسيرون بها في الناس، فكانت صفاتهم وإيمانهم سبلا للهداية، ورأي غير المسلمين فيهم «بر» الإسلام، ورحمة رسوله العدنان ﷺ فانضووا تحت لوائه، وآمنوا بعدله وإحسانه..

فإذا اتسعت النيات اليوم للدعاة، وصاروا على هدي السلف الصالح من الصحابة والتابعين ﷺ أجمعين، فكانوا سبلا للإيمان، وآية للعرفان، وبذلوا «البر» كل البر لكل أحد، طمعا في إيمانه، وسعيا لإسلامه، فما أطيب هديهم، وأنقى دربهم..

حيث إن برهم مع المسلمين يزداد به المسلمون إيمانا مع إيمانهم، وأما غير المسلمين فيعرفون ببرهم الإسلام فيعتنقوه، ويلحظون فيه الإحسان فيلتزموه.

وإذ قد تبين من كلام الإمام القرافي السابق في معاملة غير المسلمين، أنه وفق هاتين القاعدتين المتقابلتين، إحداهما بالمنع والتحريم والنهي عن التودّد والميل القلبي الباطني إليهم، والأخرى بالإحسان والصلة والإصلاح والبر لهم، والضابط بينهما خفي دقيق يحتاج إلى تمحيص وتحقيق، ومما سبق تبين الفرق بينهما، وعُرف المراد منهما. .

ونكون بذلك قد أتممنا بهـذه النصوص نهاية ما قـصدناه، في بيان صـحـة أصـول أهل الدعـوة، في الفـصـول التي افـتـتـحناها بندب واستحباب الرفق والنصح للعصاة والمعرضين، تأليفا لقلوبهم، وسعيا لقربهم، وهدي الأنبياء صلوات الله وتسليـماته عليهم في السعي إلى منتديات ومجامع أقوامـهم والمكذبين منهم، حرصا على إيمانهم ورغبة في نجاتهم، ثم مـنهج النبوة والدعوة في اسـتدعـاء الإيمان لكل أحد بلغت مـا بلغت معـصيته، ومنهـجهم في البـراءة من الصفـة لا من الذات، ومن الفعل لا من الفاعل، ثم أوضحنا أقسام الهجر الشرعي ومـا يتـعلق بـه من أصـول، وغـضب النبي صلى اللـه عليـه وسلم والصحابة رضي الله عنهم على من سوى بين المعصية والعاصي، ومن خلط حكم الإجـرام بالمجرم، ثم بينا مـوضوع الدعـوة وأن أساسـها الحب الذي هو جلـب النفع ودفع الضـرر، ورحـمـة النبي ﷺ وحـرصه على أن يؤمن كل أحـد ويبلغـه رسالة ربه، ثم الفـرق بين الغضب لله تعالى وبين العجب والكبـر بالطاعة، ثم بـغض الفاسق والمبتـدع مع التـواضع لهما، وكيف الجمع بينهما على ما فـيهما من تناقض، وأن الكافـر ضربان: كافـر يعاقب لا مـحالة على التحقيق وكافر لا يعاقب، وبيان أن البراءة في منهج الأنبياء من العصاة نوعـا لا عينا، وحـرمة لعن العـصـاة المُعينين، واسـتحـباب الدعـاء للعصاة، وحـديث البخاري ومسلم في حِكمـة عمل أهل الدعوة في نقل العـصاة من أمـاكن معصـيتـهم، ثم أوضحنا الولاء المـذموم مع الكفار وأنه مقيـد باعتقاد معتقدهم والرضـا بأفعالهم، وأن البراءة في منهج الأنبياء من أقوامهم بعد إقامة الحجة الرسالية التي يكفر تاركها، وبعد دعوتهم الدعوة التامة الكاملة، ثم خاتمة ذلك بالفرق بين قاعدة بر أهل الذمة وبين قـاعدة النهي عن التودّد لهم، بالنظر إلى مـقاصد الشريعة وروح الرسالة، حتى لا تترك هذه الأصناف للهلكة والغواية، ولتستمر فـي أرجاء المعمورة أعمال الإيمان، امتثالا لأمـر ربنا سبحانه وتعالى وهدي نبينا ﷺ . .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا

على هدي الصالحين، ونيات المرسلين

لنكون رحمة للعالمين، وهدى للناس كافة،

مبشرين ومنذرين، وداعين إلى الله بإذنه

على صراطه المستقيم... آمين

إني سألتك بالله الذي خضعت له
السـمـوات وهو الواحـد البـاري

إذا تأملت فـاسـتـغـفـر لكاتبـه
لعل كــاتبــه يـنجـو مـن النار

أيمن أبو شادي

إلهي وهذا جهد المقل،

وبذل الضعيف، وسعي الحثيث،

وأنت المرجو المأمول، في كل ما نقول،

فخذ بأيدينا إليك، واهدِ قلوبنا نحوك،

ونور أبصارنا معك، وأخرج من أفواهنا

ما تخرجه من أفواه المصلحين، وما تُعلي به كلمتي

الحق والدين، واجعله خالصاً لوجهك الكريم

يا أرحم الراحمين،

واغفر لآبائنا وأمهاتنا وإخواننا وعلمائنا

ومشايخنا ومن له حق لازم علينا،

وللمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم

والأموات، إنك سبحانك قريب

مجيب الدعوات

وتوفنا على الإسلام ومحبة سنة النبي

المصطفى العدنان

صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم

وبذا خُتم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع بإذن الله تعالى

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ملحق لفتاوى ورسائل

كبار العلماء

في العالم الإسلامي

في أهل التبليغ والدعوة

﴿فضيلة الإمام شيخ الفقهاء محمد أبو زهرة﴾

فقد قام رحمه الله تعالى بزيارة مركز «رائيوند» بلاهور، ورأى بعينه إنجازات أهل الدعوة فسطرها في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» ص٨٥ فقال: «وإنه توجد جماعات في البلاد الإسلامية تخصص نفسها للدعوة الإسلامية وجدناها في لاهور سنة ١٩٥٨، وهذه الجماعات تخصص جزءا من أعمالها للدعوة إلى الإسلام، فيخصصون عُشر أوقاتهم وأموالهم، وجهودهم للدعوة إلى الإسلام.

ويخرج الواحد منهم مجاهداً في سبيل الدعوة، لا يحمل أي شيء يقوي إلا قوة نفسه، ورغبته في تبليغ رسالة النبي ﷺ، يذهبون إلى حيث يكون للدعوة مجيب، وقد أسلم على أيديهم أكثر من أسلم من زنوج أمريكا وجزر الهند الشرقية وغيرها كأطراف أندونسيا».

﴿انتهى كلام العلامة الإمام محمد أبو زهرة﴾

﴿ تأييد وإيضاح ﴾

﴿ بإملاء الفقير إلى ربه عبدالعزيز بن عبدالله بن باز ﴾

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد، فقط اطلعت على هذه الرسالة بما سماها له صاحبها فضيلة الشيخ يوسف بن عيسى الملاحي «إصلاح وإنصاف لا هدم ولا اعتساف». في بيان حال جماعة التبليغ وما لهم وما عليهم فألفيتها رسالة قيمة جديرة بما سماها به صاحبها وذلك أوضح فيها حال الجماعة ونفعهم الكبير في الدعوة إلى الله سبحانه وتوجيه الناس إلى الخير وبيِّن أنهم غير معصومين كغيرهم من الدعاة وأهاب بإخوانهم القائمين بالدعوة إلى الله سبحانه وغيرهم من أهل العلم أن ينصفوهم ويشكروهم على ما قاموا به من الخير وعلى صبرهم العظيم وتحملهم المشاق الكبير في سبيل الدعوة إلى الله سبحانه وأن يتعاونوا معهم في ذلك وينبهوهم على ما قد يقع من بعضهم من الأخطاء عملاً بقول الله سبحانه: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾.

وقوله عز وجل: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خُسْر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾.

وقوله سبحانه: ﴿ادْعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

وقول النبي ﷺ: «الدين نصيحة» قيل لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم». رواه مسلم.

وقوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا» وشبك بين أصابعه.

وقوله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد

الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» متفق على صحتهما.

وقوله ﷺ: «المؤمن مرآة أخيه المؤمن» رواه أبو داود بإسناد حسن.

فهذه الآيات الكريمات والأحاديث الصحيحة قد دلت على وجوب التعاون بين المؤمنين والتناصح وأن يكون كل واحد عونًا لأخيه في الخير ومرآة له يرشده إلى ما ينفعه وينهاه عما يضره.

وهؤلاء الجماعة قد عرفناهم من دهر طويل واجتمعنا بهم غير مرة في مكة والمدينة والرياض وسرَّنا ما سمعنا منهم من النصح لله ولعباده ودعوة الناس إلى الخير وإلى إيثار الآخرة وعدم الركون إلى الدنيا والاشتغال بها عما أوجب الله عليهم من الحق، وقد سبقنا إلى تزكيتهم والثناء عليهم سماحة شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية ورئيس القضاة في زمانه رحمه الله فيما كتب به إلى علماء الإحساء والمقاطعة الشرقية مع رئيس جماعة التبليغ بالمدينة الشيخ سعيد بن محمد وجماعته من المرافقين له أوصاهم فيها بهم خيراً وذكر أن مهمتهم العظة في المساجد والإرشاد والحث على العمل بالكتاب والسنة مع التحذير من البدع والخرافات من عبادة القبور ودعاء الأموات وغير ذلك من البدع والمنكرات، ثم قال رحمه الله: كتبت عنهم بذلك طلبًا لمساعدتهم من إخوانهم بالتمكين لهم من ذلك سائلاً الله أن يرزقهم حسن النية والتوفيق للنطق بالحق والسلامة من الزلل وأن ينفع بإرشادهم وبيانهم إنه على كل شيء قدير.

كما شهد عندي كثير من إخواننا الثقات الذين خالطوهم وسافروا معهم إلى بلدان كثيرة بالصبر والنشاط في الدعوة إلى الله وتأثر الناس بهم وكثرة من يهديه الله على أيديهم.

فالواجب على أهل العلم والإيمان والدعاة إلى الحق إنصافهم والتعاون معهم على الخير وتنبيههم وغيرهم من الدعاة على ما قد يقع الخطأ عملاً بالآيات والأحاديث السابقة.

والله المسئول أن يوفق الجميع لما يرضيه وأن يصلح أحوال المسلمين جميعًا وأن يوفق الدعاة إلى الله سبحانه أينما كانوا لمعرفة الحق واتباعه والتعاون في ذلك إنه جواد كريم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

الرئيس العام

لإدارة البحوث العلمية والإفتاء

والدعوة والإرشاد

١٤٠٧/٨/١٧هـ.

﴿مقتطفات من كلام العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي من كتابه الذي ألفه عن حياة الداعية الكبير الشيخ محمد إلياس[1] الكاندهلوي﴾

قال العلامة الندوي ص٢٩ :

﴿الشيء الحقيقي الذي جعل الشيخ محمد إلياس يعتلي المكان المرموق فيما يتعلق بالعمل الإسلامي، هو بعد الهمة، فلم تستقر طبيعته القلقة على مرحلة بدائية للإصلاح والدعوة، ولم يقر له قرار ما لم يبلغ به إلى المرحلة الأصلية التي كان يريدها ويسمو إليها.

وبدأ الشيخ محمد إلياس يدب إليه اليأس مما كان يتم من الإصلاح الجزئي والتعليم عن طريق الكتاتيب، وشعر بأن الجهل المطبق، والظلام المخيم على البلاد واللادينية السارية في المجتمع، كل ذلك يعمل عمله في تلك الكتاتيب أيضا،

---

(١) فضيلة العلامة الشيخ محمد إلياس مؤسس أول مراكز الدعوة والتبليغ بالهند، والده هو العالم الجليل الشيخ محمد إسماعيل، الذي ينتمي إلى أسرة كريمة عريقة في العلم والدين، ينتهي نسبها إلى سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، تعلم الشيخ محمد إلياس في الكُتّاب، وقرأ القرآن الكريم، كعادة الأطفال في أسرته، ثم حفظ القرآن في صباه، وكان تحفيظ القرآن عرفا متبعا في الأسرة، سمع الشيخ في بداية شبابه جامع الترمذي وصحيح البخاري، وبعد ذلك بأعوام أتم دراسة الحديث، وقرأ بقية الصحاح الستة على أخيه الشيخ محمد يحيى...
وكان من خيرة العلماء الأجلاء، كان يقوم بتدريس النحو والصرف والأدب والبلاغة والفقه والتفسير مع الصحاح الستة، وشرح معاني الآثار، ومستدرك الحاكم في فترة واحدة..
وقالوا عنه رحمه الله: إنه كان مستعدا للتدريس طوال الوقت بلا انقطاع، حيث كان يعلم كل يوم ثلاثا وثلاثين حصة من الدروس، بعضها قبل صلاة الفجر مثل حفظ القرآن، ومستدرك الحاكم، والباقي يستمر تدريسه بعد الصلاة طوال النهار...
وهو الذي أحيا الله به هذا الجهد المبارك في شبه القارة الهندية ثم في العالم أجمع»انتهى.

وإن الطلاب لا يتم إصلاحهم وتربيتهم الديـنية على ما ينبغي، ثم إن الجهل الذي يموج من حولهم كالبحر إلى مئات من الأميال، يجرفهم بحيث لا يعود لهم عين ولا أثر.

ولا يوجد عـند القوم الحرص عـلى الدين، حتى يبعثـوا أولادهم للتحصيل والتعليم مندفعين راغبين، ويدعوهم يجلسون في الكتاتيب، وبما أنهم لا يتمتعون بمعـرفـة مـا هو الدين، فـإنهم لا يُقـدّرون هؤلاء الطلاب الذين يتـخـرّجـون في الكتاتيب وينبثّون يحملون إليهم الهداية والدعـوة، ولا يستمعون إلى ما يقولون، ولا يخضعون لما يدعون، إذا فلا تؤثر تلك الكتاتيب تأثيرا ما في حياتهم.

ثم إن هذه الاهتـمامـات كلها مـصروفـة إلى هؤلاء الأطفال الذين لم يبلـغوا الحلم، ولم تكلفهم الشـريعة بشيء ما، أما الرجـال الذين هم موضع الخطاب في الشريعة والأحكام، والذين هم موضع سـخط الله من أجل الإهمال للدين والرغبة عن العمل، والتطبيق، فليس لهم نصيب في هذه التدابير كلها.

على أن هذه الكتـاتيب والمدارس مهمـا كانت كثـيرة، لا تغطي ضـرورة القوم المترامية الأطراف، ولا يمكن عن طريقهما تعليم جـميع القوم وتربيتهم الإسلامية،

= وقد خلفه في رئاسـة عمل الدعـوة ابنه العـلامة المحدث محـمد يوسـف الكـاندهلوي: قـرأ الصحاح الستة ومـستدرك الحاكم، وشرح معانـي الآثار للطحاوي على يد والده الشيخ محـمد إلياس، وقـد أمره والده وأستـاذه أن يقوم بتأليف شـرح لكتاب «شرح مـعاني الآثار» باللغة العـربية، فبـدأ تأليفـه وأسماه «أمـاني الأحبار» وأنجـزه في ثلاثة مجلدات كبـار، وقرأ مشكاة المصابيح على يد والده الشيخ وكان ذلك نواة لتأليف كتابه العظيم «حياة الصحابة» في ثلاثة مجلدات. انتهى.

ولا يمكن أن يكونوا جميعا طلابا في الكتاتيب، يلتحقون بها، ويدرسون فيها، منصرفين عن اشغال الحياة ووسائل كسب المعاش)انتهى.

وقال العلامة الندوي رحمه الله تعالى في الكتاب المذكور ص٣٤:

(واستمر العمل في ميوات على تحريض الناس للقيام بالرحلة ومغادرة الوطن، والجولات من أجل الدعوة إلى الدين وتعليمه وتعلمه، وكان ذلك هو هم الشيخ والأمر الوحيد الذي يشغل باله ليل نهار، وكان يعرض هذه الدعوة على الناس قائما وقاعدا، وواقفا وسائرا، ومسافرا ومقيما، وعقدت حفلات كثيرة في ميوات، وعرضت فيها الدعوة وحدها بأساليب كثيرة، وعناوين شتى، يؤكد الشيخ للناس أن ذلك هو ركيزة رقيهم في الدين والدنيا، حتى قل تنكرهم لهذا العمل وانبعثت البعثات والجماعات في أنحاء ميوات.

وكان التركيز على إنه لابد أن تعم الدعوة إلى ذلك في البلد كعموم التقاليد والأعراف وعقدت لذلك حفلات واجتماعات، وتكونت جماعات قامت بجولات في انحاء ميوات والولاية الشمالية تبرع الناس لذلك بأوقاتهم، وقد عرف الناس لأول مرة هذا النوع من التبرع، التبرع بالأوقات والأسابيع والشهور، فقد كانوا لا يعرفون إلا التبرع بالأموال والنقود.

وكان الشيخ يهدف إلى إثارة روح الإخلاص والإيثارفي العاملين للدعوة ومجال التبليغ وتعويدهم على الخسارة في التجارة والزراعة بجانب الدعوة إلى الله، وفي ميوات عرف الناس لأول مرة أن يرضوا بنقصان ما يتعلق بدنياهم من

أجل الدين، وإن كان الله تبارك وتعالىٰ لم يبتلهم بذلك، ولم يرزأهم في دنياهم حينما شغلوا بنشر دينه وتبليغ دعوته، وقد رأى العائدون من الرحلات والجولات الدعوية زيادة في كل ما كانوا يمارسونه من التجارة والزراعة والفلاحة، أو أي نوع من التعاطي في الحياة، وشاهدوا البركة بأم أعينهم.

تبشير شامل بالدين في ميوات :

وقد عم في مدة قليلة بفضل هؤلاء الدعاة المتطوعين الذين كانوا يتجولون من ناحية إلى ناحية ومن قرية إلى قرية، حاملين عروضهم وزادهم ومتاعهم على أكتافهم، الإقبال على الدين، وانبعثت روح الإخلاص والتقوى، والحرص على تعاليم الإسلام في هذه المنطقة الواسعة المترامية الأطراف التي ظلت مظلمة عبر قرون لم يشرق في ربوعها نور الإيمان واليقين، وقد حظيت بانقلاب عجيب في العقيدة وتقلب في القلب والعقلية والنفسية، لم يعرف له نظير في الماضي القريب والبعيد، ولو أن حكومة إسلامية بذلت كل ما لديها من وسائل وإمكانات ونصبت كثرة كاثرة من العلماء والمربين من أجل تقريب الدين إلى الناس، أو فتحت مئات وآلافا من الكتاتيب والمدارس من أجل تعليم الدين، لما استطاعت أن تكسب النجاح في نشر الدين في جزء من أجزائها في هذه السهولة، واللباقة والدقة والحكمة، حقا إن أحداث التحول في الحياة يفوق الوسائل المادية وتعجز عنه الإمكانات المادية مهما كثرت وعمت.

إن الطريق الصحيح الناجح لنشر الدين إنما هو الطريق الذي سلكه الرعيل الأول في فجر الإسلام حينما كان الجيش الإسلامي يحمل زاده ومتاعه وسلاحه على ظهره، ويعد كل ذلك بنفسه ومن عنده، وعلى حسابه، ويحدوه إلى ميدان المعركة وساحة الجهاد الحنين إلى الشهادة والفوز برضا الله تعالى، والرغبة في ثوابه وأجره، وعندما كان الدعاة إلى الله والمبلغون برسالته، يقومون بمسئوليتهم منطلقين من خشية الله، وصادرين عن حب الله ورسوله، الذي ملك عليهم قلوبهم وخالطت بشاشته نفوسهم، فيؤدون عملهم كفريضة شخصية، ومسئولية ذاتية، وفي أمانة ونزاهة وإخلاص وإيثار.. وكانت هذه الحركة الدينية في ميوات تواكبها مسّة من هذه الروح المباركة ونفحة من نفحاتها، ولو رأى أحد هؤلاء المبلغين يحملون مسوحهم، ويستأبطون أجزاء القرآن ويلفون الحمص أو أرغفة في ناحية من ردائهم، وألسنتهم رطبة بذكر الله، وعيونهم تنم عن السهر وإحياء الليالي في العبادة، وسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وتشف أيديهم وأرجلهم عن الكدّ والكدح، لتمثلت أمامه قصة أصحاب الوفاء من الصحابة الأبرار الذين بعثهم الرسول صلوات الله وسلامه لتعليم القرآن وتبليغ الإسلام)انتهى.

وقال رحمه الله تعالى في ص ٣٥

تقلّب الجو:

(وبدأ الجو الميواتي يتغير شيئا فشيئا، وبدت آثار هذا التغيير في مختلف مظاهر الحياة، ونواحي السلوك والعادات، وصلحت الأرض وأصبحت تبشر، بأنها تنمو وتترعرع وتخضر وتثمر فيها الدعوة الإسلامية وتعاليم الدين وأحكام الإسلام، ولم تعد هناك حاجة إلى الجهاد والكفاح من أجل كل ما يتعلق بالدين، نعم كانت هناك من بقايا الجاهلية ومُخلّفات التقاليد والأعراف، ما يدعو للعمل على الإصلاح، ولكن المناطق التي بذلت فيها المحاولات الإصلاحية لم تكن تحتاج إلى جهد كبير للقضاء على شيء لا يمت إلى الدين بصلة، بل كان يكفي أن يقال للناس إن ذاك ليس من الدين في شيء فينتهون عنه عن آخرهم.

وكان الشيخ محمد إلياس يرى أن ذلك هو الترتيب الصحيح فيما يتعلق بالقيام بنشر الدعوة وتبليغ الرسالة أن يكون العمل في الناس على إثارة الإيمان واليقين، وإيجاد الحرص على الدين، وتخريجهم على استعذاب خسارة ما إذا كانت تلحق بما يتعلق أولا هم من أجل عقباهم، وإذا تمت كل تلك المراحل فإنهم ـ بدورهم ـ يقبلون على جميع الدين ويحرصون على تطبيقه بجميع أجزائه في واقع حياتهم وسلوكهم.

وفعلا قد أتت الجهود الدينية ـ التي بذلت في ميوات على هذا الأسلوب والمنهج ـ، أُكُلها في مدة غير طويلة وبدأت مظاهر الصلاح والإقبال على الدين تتجلى في حياة الميواتيين بحيث لو أن أحداً عمل على تربية واحد منهم طوال خمسين سنة أو أكثر، على غير هذا الترتيب، لما نجح هذا النجاح الكبير في تخريجه على الدين، بل ربما كانت النتيجة معكوسة سلبية.

وعلى كل فقد حدث الإقبال الشامل على الدين، وبدت آثاره في السلوك، حتى أن المنطقة التي لم تعرف المسجد، غنيت بالمساجد في كل ناحية، وانبثّت شبكة الكتاتيب والمدارس، وكثر حفاظ القرآن الكريم، ووجد عدد وجيه للعلماء والخريجين في العلوم الإسلامية...

قال العلامة الندوي ص٣٥: ورسخ في القلوب تقدير الوضع الإسلامي، وحرص الناس على إعفاء اللحى، وانتهت التقاليد الجاهلية فيما يتعلق بالزواج، وقل الربا والتعاطي الربوي، وشذ من يحتسى الخمر، وقل النهب والغارة، وقطع الطرق وانخفضت إلى حد مدهش نسبة الجرائم الخلقية، والاضطرابات والصراعات والخصومات، وكذلك ذبلت البدع والخرافات والتقاليد غير الإسلامية، وعادات الفسق والفجور، لأن كل ذلك لم يجد الجو الملائم له ولا التربة الصالحة في حقه.

وقد تحدث عجوز ميواتي عن تلك الحقيقة في بلاغة وبكلمات عميقة ذات دلالات دقيقة لا مزيد عليها وذلك عندما سأله الشيخ المقريء داود: ماذا يجري الآن في منطقتك، قال الميواتي العجوز:

«لا أدري إلا شيئا واحدا: أن الأمور التي كانت تستنفد جهودا جبارة ولا يتحقق شيء منها، عادت الآن تتم دون محاولة، وأن الأمور التي من أجل القضاء عليها كان يبذل أقصى الجهود وتشعل الحروب، وتخاض المعارك، وتكون النتيجة صفرا، أصبحت الآن تغيب دون سعي».

﴿انتهى كلام العلامة الندوي[1]﴾

---

(١) سماحة الشيخ الندوي ينتهي نسبه ونسب إسرته إلى سيدنا الحسن بن علي بن أبي طالب ﵄، قرأ كتب الحديث الشريف في دار العلوم ندوة العلماء على شيخ الحديث العلامة حيدر حسن بن أحمد خان الطونكي رحمه الله، وقرأ التفسير على الشيخ أحمد علي المفسر المشهور، وقد بدأ تعلم العربية على الشيخ خليل بن محمد اليمني وأتم دراسته الأدبية على الدكتور تقي الدين المراكشي.

والعلامة الندوي يروي صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود والنسائي وابن ماجه بالأسانيد الموصولة إلى الحافظ ابن حجر العسقلاني، أما سنن الإمام الترمذي فيرويها بالأسانيد إلى شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وهو يمنح الإجازة بالأسانيد في هذه الكتب الستة، وقد قرأ العلامة الندوي أوائل الصحاح على الإمام الحافظ أبي العلى محمد عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري صاحب تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي وأجازه في الحديث الشريف.

وقد تقلد العلامة الندوي رئاسة المجمع الإسلامي العلمي في لكهنو ـ الهند ـ، ورئاسة مجلس الأمناء لرابطة الأدب الإسلامي العالمية، ورئاسة مجلس الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند، وعضوية المجمع الفقهي والمجلس الأعلى لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، وعضوية رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط، وعضوية مجامع اللغة العربية في كل من دمشق والقاهرة وعمّان، وعضوية المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وقد تم اختياره لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية سنة ١٩٨٠م لخدماته الجليلة للإسلام، كما كرمته لجنة جائزة «دبي» الدولية لمسابقة القرآن الكريم بجائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩هـ.

وللعلامة الندوي ما يزيد على مائتي مؤلف باللغة العربية ترجم بعضها إلى لغات أخرى، وغير ذلك كثير باللغات الأردية والهندية رحمه الله تعالى. انتهى.

﴿ العلامة الأستاذ وحيد الدين خان ﴾

قال رحمه الله تعالى:

«من الأمور الهامة التي تحير العقول هو أن زعامة هذه الحركة وقيادتها قد انتقلت إلى ثلاثة شخصيات وزادت مدة إنشائها عن ثلاثين عاما ورغم هذا التغير فقد امتدت رقعتها وازدادت أنشطتها يومًا بعد يوم، وهذه ميزة لم ينلها أي حزب أو جمعية دينية أو سياسية في الفترة الأخيرة.

ويدلنا معظم تاريخ الجماعات والأحزاب على أنها نالت إقبالا شديداً أو نجحت في كسب متبعيها من العامة والخاصة في بداية أمرها. ولكن بمرور الزمن قلّ نشاطها وإن كانت تلك الحركات والأحزاب قد نهضت في مرحلهَا الثانية بعد فقد زعيمها، ولكنها فقدت روح النشاط المطلوب بفقد قيادتها الأولى أو بمرور الزمن أو لأي أسباب أخرى، فلم تجد هناك فرصة لاكتساب أذهان جديدة تقوم بنفس المشاعر والمبادئ والأهداف بنفس الكم والكيف.

فجماعة التبليغ هي الجماعة الوحيدة التي يزداد عدد المشاركين فيها كل يوم كما إنها حتى اليوم تلقى أهمية ندائها واستجابة دعائها لدى الناس.

كما يزداد فيها كذلك عدد الطالبين المشتاقين للوصول إلى الهدف المنشود المضمون باذلين في سبيل ذلك كل غال ونفيس.

فالسبب الوحيد في تقبلها الشديد المستمر يرجع إلى أنها لم تؤسس لتغطية الاحتياجات الزمنية المحددة مثل معظم الأحزاب الأخرى، بل إنها تنطوي على برامج لإكمال الاحتياجات الفطرية الأبدية، والتي لم ولن تتقيد بالزمان والمكان بل وضعها الخالق من الأزل للأبد.

وهذه المقتضيات الفطرية هي موضوع هذه الحركة فلا علاقة لها إلا بالحقائق الدينية الأزلية الأبدية.

وبناء على ذلك لم ولن تؤثر عليها المؤثرات الزمنية الطارئة ولا العوامل الخارجية غير الثابتة في كيانها. فإن من مقتضيات تلك الحقائق هو استمرار تلك الحركة ما دامت الفطرة موجودة، والإنسان يتنفس على وجه الأرض حسب فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم، فلن تؤثر عليها المؤثرات الزمانية أو المكانية الطارئة ولا تغير مجراها خصومة الأعداء.

ويقول العلامة وحيد الدين خان في خاتمة كتابه. إنني أقترح على العالم الإسلامي أن يقرر هذا المنهج التربوي مع مناهج العلوم الحديثة على الطلاب المسلمين حتى لا يغتربوا عن الدين بل ينشأ جيل جديد يستفيد بجميع العلوم الحديثة إلى جانب الثقافة الإسلامية علماً وعملاً. وإن نجحنا في ذلك فلا يستبعد أن يكون كل طالب مُبلِّغًا للإسلام في جميع بلدان العالم كما كان كل تاجر مُبلِّغًا لدين الله في الصدر الأول من الإسلام.

وهذه الحركة (أي جماعة التبليغ) لم ولن تصدر التقارير عن أنشطتها واجتماعاتها وإنجازاتها وخدماتها على مستوى المحلي والعالمي، مع أنها تحمل أحداثا ووقائع ثابتة إن نشر بعضها فستفوق جميع مقاييس الجماعات والأحزاب في العالم عامة وفي شبه القارة خاصة.

وهذه الحركة لا تملك وسائل الإعلام ولا الجرائد ولا الصحف أو غيرها من منفذ الشهرة حتى أن الهاتف لم يوجد لديهم في المركز، بل وإنها تعتمد على القلوب المؤمنة المتحركة في دقاتها بذكر الله. وإنها لن تنشر تعاليمها أو منشوراتها السريَّة أو العلنية حتى وإن نشرت الإذاعة والتليفزيون أخبارها في البلاد، فسيرجونهم بعدم إذاعة ونشر الأخبار عن أعمالهم.

ومع كل هذا أو ذاك فنشاطها يزداد كل يوم. فما هو الباعث الأساسي في هذا الأمر غير العادي؟ وما هي الأسباب الرئيسية لهذه الاستجابة؟ وما هي العوامل التي تزيد أجيج وقودها كل حين؟

نعم إنها قوة الإيمان وقوة العقيدة التي تدفع صاحبها إلى القيام بإبلاغها للآخرين، وهو يُبَلِّغ إيمانه ومشاعره الصادقة إلى الآخرين لأن وجدانه يحثه على ذلك، فيشعر تجاهها بمسئوليته الذاتية الخاصة لأنه يقوم بعمله لا بعمل غيره، ولذا لم يدخر جهده بل يبذل كل ما في وسعه لنيل المنشود، فيضحي له بكل غال ونفيس».

﴿انتهى كلام العلامة وحيد الدين خان﴾

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٤
فصل يقولون: أهل الدعـوة ليس عندهم حقيقـة الولاء والبراء ولا يملكون أوثق عرى الإيمان وهو الحب في الله والبـغض في الله فـتـراهم يمـشـون إلـى أهل المعـاصي ولا يتـحرجون أن يـذهبوا إلى أوكـارهم كمـا أنهم يدعون للعـصاة والمشـركين بدلا من لعنتهم والدعاء عليهم فالولاء والبراء عندهم مفقود ليس له وجود...	٩
قول الكليم موسى عليه الصلاة والتسليم «يا رب احبس عني ألسنة الناس..».	٩
ما أوحاه الله تعالى إلى عزير «إن لم تطب نفسا أن تكون علكا في أفواه الماضغين..».	٩
الدعوة وظيفة الأنبياء، والداعي المحروم من الـرحمة لا يقبل الناس عليه، وقد قال الله عز وجل لخليله وحبيبه سيدنا مـحمد ﷺ : ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾.	١٠
وإذا تأكـد حدوث الإعـراض في وجـود صفـات الشدة والقـسـوة، فكيف لداع من الدعاه أن يتحلى بها!..	١٠
البشاشة مع الناس تكسر خطط الشيطان في صرفهم عن الإقبال على الإيمان.	١٠
البشاشة في وجه المدعو ليست دليلا على الرضا على ما هو فيه، ولكن حتى تكون سببا في تقريبهم، بدلا من إعراضهم وانفضاضهم.	١١
الداعي الشفوق مثل الكحل، الناس لا يجدون مكانا مناسبا له إلا أعينهم.	١١
الداعي إذا تحول وصار مثل الشوكة لابد من طرحه وأحب الناس إليه يتضرر منه.	١١
اللين والرفق أساس لكل داعي، والتيسير واليسر هما رضا الله تعالى لهذه الأمة.	١١
الله تعالى وعد بالإعانة والتأييد على الرفق وهو محبوب الله عز وجل في الأمور كلها.	١١
الداعي الرحيم لا يكف عن دعوته ولا يسأم من الرد والإعراض.	١٢
التبسم والتلطف مع المعرضين إن صاحبه نية إصلاحهم ونجاتهم فهو سبيل الأصفياء.	١٢
ما من نبي من الأنبياء عليهم السلام إلا دعا قومه في أنديتهم ومجامعهم.	١٢
الرافع للواء العداوة المطلقة والمقاطعة والبغض لغير الطائعين، لم يتبين له بعد المقصد من الرسالات، وغرض النبوات بل لازم حالة إبطال الرسالة، وعبث البعثة.	١٣

الموضوع	الصفحة
الله تعالى نادى نبيه موسى عليه السلام: ﴿أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون﴾، ولم يقل له «دع القوم الظالمين قوم فرعون ألا يتقون».	١٤
الله تعالى قال لكليمه موسى عليه السلام ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ ولم يقل له «اترك فرعون إنه طغى» مع كونه أعتى المجرمين في زمانه.	١٤
قول الإمام الشوكاني في السيل الجرار يجب التوقف في الإنكار على قدر الحاجة، وأن الانتقال إلى التخشين في القول مع تأثير التليين انتقال لم يأذن الله به، ولا اقتضته الضرورة.	١٥
من أولى بالإقبال عليه فرعون اللعين أم عصاة الموحدين؟	
لازم العمل باصطلاح المتأخرين انتفاء الحكمة عن الحكيم وأمر الرحمن جل جلاله لرسله عليهم السلام بما يضاد الإيمان وكماله وهذا كله باطل لا شك فيه.	١٦
الاصطلاح الحادث للولاء والبراء مصادم للدعوة في أصلها وموضوعها، بل لازم العمل به تجفيف الدعوة ومنابعها	١٦
منهج الأنبياء في الولاء أنهم يخافون على أقوامهم محبة لهدايتهم وجلب النفع لهم ودفع الضرر عنهم ويكرهون ما يفعلون.	١٦
ما من نبي من الانبياء عليهم السلام إلا قال لقومه هذه الآية ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾.	١٦
هذا النبي صالح عليه السلام أحب النصح لقومه وما أحبوا هم الناصحين..	١٦
هل الأنبياء عليهم السلام يخافون على أقوامهم وفيهم عبدة الأوثان والأصنام؟	١٧
هذا النبي نوح عليه السلام يقول لقومه وهم عبدة أصنام ﴿إني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾.	١٧
هل الأنبياء يخافون على أقوامهم وفيهم الذين يأتون الرجال شهوة من دون النساء؟،	١٧
هل يخافون على أقوامهم وفيه اللصوص السارقون المطففون للموازين؟.	١٧
هذا النبي شعيب عليه السلام يخاف على قومه عذاب الله المحيط بهم ويحذرهم معصيته وانتقامه منهم.	١٧
قول الخليل إبراهيم عليه الصلاة والتسليم لأبيه صانع الأصنام ﴿يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن﴾.	١٨

الموضوع	الصفحة
منهج الأنبياء هو استدعاء الإيمان لأي أحد بلغت ما بلغت معصيته وجريمته.	١٨
فصل منهج النبوة والدعوة في الولاء والبراء هو البراءة من الصفة لا من الذات ومن المعصية لا من العاصي.	١٩
هذا النبي نوح عليه السلام يقول لقومه عبدة الأصنام ﴿إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم﴾.	٢٠
النبي نوح عليه السلام قال ﴿يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾ فناداهم بقوله يا قومي بالانتساب لهم لا بالتبري منهم.	٢٠
النبي نوح عليه السلام ألف سنة إلا خمسين عاما، يحمل بين يديه آماله وأمانيه، في أن ينجيهم مما هم فيه، حتى كرهوا مقامه بينهم، وملوا تذكيره لهم.	٢٠
النبي نوح عليه السلام مكث ألف سنة إلا خمسين عاما على إرادة النصح لهم، وذبلت الأيام، وولت السنون وزهرة الدعوة والنبوة يعبق أريجها في حنايا الشاردين نصحا للمعرضين.	٢١
الله تعالى قال لنوح عليه السلام: ﴿قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون﴾ ولم يقل له «قل إن افتريته فعلي إجرامي وأنا بريء منكم» فأمره بالبراءة من الإجرام لا من المجرم، ومن الفعل لا من الذات.	٢٢
البراءة المطلقة من العاصين ذاتا وصفة أو ذاتا وأفعالا، والصادر من البعض ليس على بابه حيث إن الواجب عليهم هو استدعاء الإيمان لهم.	٢٣
قول أبو الدرداء ﷺ: «إنما أبغض عمله فإذا تركه فهو أخي».	٢٣
قول عبدالله بن مسعود ﷺ: «كنا لا نقول في أحد شيئا حتى نعلم علام يموت».	٢٤
قال الله عز وجل لنبيه ﷺ ﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾ ولم يقل له «فقل إني بريء منكم» فأمره ﷺ بالبراء من العمل لا من العامل.	٢٤
قول الإمام الشوكاني في الفاسق وليس الممنوع إلا أن يحبه لأجل فسقه ومعصيته.	٢٥
ما قرره الإمام الشوكاني أن هذه الموالاة هي واجبة من حيث كونه رجلاً من المسلمين، ومن حيث كونه أخًا للمؤمنين، كما يدل على هذا الحديث المتقدم.	٢٥

الموضوع	الصفحة
قول الإمام الشوكاني ولا يتحقق عدم جواز الموالاة إلا في موالاته لأجل ما هو عليه من الفسق والفجور.	٢٦
قول العلامة القاسمي إن كانت الموالاة بمعنى المودة، وهي أن يوده لمعصيته كان ذلك كالرضا بالمعصية.	٢٨
يا حسن قول من دعا إلى الله تعالى الفارين منه، والبعيدين عنه..	٢٨
يا بصيرة سبيل من بلغ عن النبي ﷺ مراده ورحمته وحرصه على أن يؤمن كل أحد ويسمعه رسالة ربه ..	
فصل: الدعوة أساسها الحب الذي هو جلب النفع ودفع الضرر.	٢٩
فرق بيننا الآن وبين النبي ﷺ، النبي ﷺ كان يكره الكفر والفسوق والعصيان، ونحن نكره الكافر والفاسق والعاصي.	٣٠
الأنبياء صلوات الله عليهم كانوا يكرهون فعل العصاة وصفاتهم ولا يكرهون ذواتهم وأشخاصهم.	٣٠
الله تعالى قال: ﴿وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان﴾ ولم يقل «وكره إليكم الكافر والفاسق والعاصي».	٣١
عواطف وهمم الأنبياء ومشاعرهم في الهداية والنصح والشفقة على الناس وطلب النفع لهم غير عواطف إقامة الحجة عليهم وإلزامهم التهمة، وبيان المخالفات منهم.	٣١
ترك الدعوة موضوعه البغض والهجر، والهجر الشرعي أنواع.	٣١
ترجمة الإمام البخاري باب ما يجوز من الهجران لمن عصى.	٣١
قصة كعب بن مالك رضي الله عنه هي أحد أقسام الهجر المشروع الذي يكون على سبيل الزجر والتعزير.	٣٢
وفي القصة القسم الثاني من الهجر وهو الهجر غير المشروع.	٣٣
كلام الإمام ابن عبدالبر في القسم الثالث من أقسام الهجر وهو ما كان على سبيل الوقاية.	٣٣
قول الإمام ابن تيمية الهجر الشرعي نوعان: أحدهما بمعنى الترك للمنكرات. والثاني بمعنى العقوبة عليها.	٣٤

الموضوع	الصفحة
ما يفعله أهل الدعوة من طرق أماكن المنكرات لتفقد أمة الإسلام فيها والعمل على نجاتهم منها وسماعهم كلام الإيمان وليظهروا الحق عندهم فهذا محمود من الله تعالى مرغب فيه من رسوله ﷺ.	٣٥
من تمكن من فعل ما أمر الله تعالى به، وتمكن من دعوة غيره إلى فعل ما أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ فهذا لا يطالب بالهجر والترك.	٣٦
قول النبي عيسى بن مريم عليه السلام لأصحابه: كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم نائما فكشفت الريح عنه ثوبه.	٣٦
قول العلامة ابن حجر ويستثنى من تحريم الهجر مسائل حاصلها أنه متى عاد إلى صلاح دين الهاجر والمهجور جاز وإلا فلا.	٣٧
أخوة الإسلام عقد ينزل منزلة القرابة، فإذا انعقدت الأخوة تأكدت أحكامها ووجب الوفاء بموجب عقدها..	٣٧
قول أبي الدرداء إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى.	٣٨
قول إبراهيم النخعي لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غدا.	٣٨
الهجرة من دار الكفر والفسوق مقيدة بحالة ما إذا لم يتمكن في هذه الدار، من فعل ما أمر الله تعالى به.	٣٨
فتوى العلامة ابن حجر الهيتمي في ذلك في الفتاوى الحديثية.	٣٩
هجر النبي ﷺ الثلاثة الذين خلفوا بوحي من الله تعالى وأمر من السماء وكان هنالك كثير غيرهم تخلفوا فلم يهجرهم ﷺ رغم أن المسوغ في الحالين واحد.	٤٠
في بعض الحالات يكون التأليف أولى من الهجر.	٤١
نصوص الأئمة أن المقصود بالهجر ضعف الشر وخفيته وإلا لم يكن مشروعا.	٤٢
قول الإمام ابن تيمية الهجرة الشرعية هي من الأعمال التي أمر الله بها ورسوله، فمن هجر لهوى نفسه أو هجر هجرا غير مأمور به، كان خارجا عن هذا.	٤٢
ما أكثر ما تفعل النفوس ما تهواه، ظانة أنها تفعله طاعة لله.	٤٢

الموضوع	الصفحة
إن زاد الشر والهاجر ضعيف بحيث يكون مفسدة ذلك راجحة على مصلحته لم يشرع الهجر.	٤٢
المقصود بالهجر هو زجر المهجور.	٤٢
ما أورده الحافظ ابن حجر في مشروعية مكالمة العصاة والكفار بدعوتهم إلى الطاعة وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.	٤٣
قول عمر بن الخطاب ﷺ الرجل الذي تتابع في شرب الخمر: «ادع الله لأخيكم أن يقبل بقلبه ويتوب الله عليه».	٤٤
قول الإمام ابن تيمية: إذا تعذر إقامة الواجبات من العلم والجهاد وغير ذلك..	٤٥
إن لم يمكن تحصيل مصلحة واجب الدعوة إلا بمن فيه يسير المخالفات التي مضرتها أقل بكثير من مضرة ترك واجب الدعوة كان تحصيل مصلحة واجب الدعوة مع وجود هذه المخالفة اليسيرة خيرا من العكس	٤٦
وهذا حاصل من كثير من المنتقدين على بسطاء أهل الدعوة لوجود بعض المخالفات اليسيرة منهم فيقدحون فيهم مع إغفالهم للمصالح الجليلة المتحققة معهم والكائنة فيهم.	٤٦
الفرق بين اصطلاح البراءة المطلقة من العاصين ذاتا وصفاتا وبين ولاء وبراء الأنبياء وأهل السنة والجماعة الذي مقتضاه البراءة من الفعل لا من الفاعل .	٤٨
هذا الخليل عليه الصلاة والتسليم يمدحه الله عز وجل على رقة قلبه، وشفقته وحرصه على خلق الله تعالى وهم الشذاذ المجرمون، قوم لوط العادون.	٤٩
ما أورده العلامة ابن كثير عن مجادلة الخليل عليه الصلاة والتسليم للملائكة في دفع العذاب عن قوم لوط المجرمين رجاء توبتهم وإيمانهم.	٥٠
بيان أئمة الأصول أن جدال الخليل عليه الصلاة والتسليم في شأن قوم لوط لم يكن على معنى مخالفة الأمر من الله تعالى في ذلك.	٥٠
مدح الله تعالى الخليل عليه السلام في حرصه على دفع العذاب عن المجرمين، ويقابله الذم الذي نال أهل الدعوة من المعاصرين، لَمَّا حرصوا على عصاة المسلمين أتباع النبي ﷺ الموحدين.	٥١

الموضوع	الصفحة
أصبح الخليل عليه السلام بميزان الولاء والبـراء بأيدي المتأخرين، مائلا عن أوثق عرى الإيمان وهو الحب في الله والبغض في الله.	٥١
عتاب الله عز وجل نبيه يونس عليه السلام لما سلك مع قومه خلاف هذا السبيل.	٥٣
قول الله عز وجل ليونس عليه السلام بعد بكائه عـلى الشجرة التي كانت تظله فيبست «أتبكي على شجرة يبست ولا تبكي على مائة ألف أو يزيدون أردت أن تهلكهم»	٥٤
فصل رحمة النبي ﷺ وشفقته على قومه وعلى أن يؤمن كل أحد ويبلغه رسالة ربه.	٥٥
الله تعالى قد لخص حياة النبي ﷺ في آية من القرآن العظيم.	٥٦
الله عز وجل عـاتب حبيـبه وخليله سيـدنا محمداً ﷺ على شـدة حرصه ونصـحه للكفار من قومه فهل تحوي قلوبنا مشاعر نبينا ﷺ وهل نقتل نفوسنا حرصًا ونصحًا للمتسلمين فضلاً عن الكافرين المعرضين.	٥٦
النبي ﷺ كان يحرص أن يؤمن جميع الناس ويبايعونه على الهدى.	٥٦
هل نسعـى كما كـانت لنا المشابهـة لظاهر السنة المشرفـة أن تكون لنا نفس النسـبة في نياتنا ومقصدنا.	٥٧
مـا للائمين على أهل الدعوة يغـمزونـهم بالسوء ويشـيعـون حولهم البـهتـان لأنهم يحرصون على الإيمان، ويحصلونه في الناس.	٥٧
هذه نفس النبي ﷺ الزكية المبـاركة تكاد تفوت حسرة وألمًا على كفـار زمانه حرصًا عليـهم ونصحًا لهـم ونحن تأبى نفوسنا أن تتـألم على أهل ملتنا أو تنصح لأصـحاب شريعتنا.	٥٨
هذه شفقة النبي ﷺ ورأفتـه ورحمته على أمته قرآنا يتلى، عبرة للمتـسمين وسبيلاً للمهتدين.	٥٨
بعض الآثار الواردة في شفـقة النبي ﷺ وحرصـه على إيمان الناس ووصولهم إلى الهداية.	٥٩
رحمة النبي ﷺ وحرصه على إيمان الحكم بن كيسان رضي الله عنه.	٥٩
ما أخرجه البـخاري عن ابن عباس في رحمـة النبي ﷺ على المشركين الذين قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا.	٦٠

الموضوع	الصفحة
رحمة النبي ﷺ على وحشي ؓ قاتل عمه حمزة ؓ وهو أحب الناس إليه.	٦١
منهج النبوة والدعوة ليس فيه مجال للثأرات الشخصية.	٦٢
تفضيل النبي ﷺ إسلام رجل واحد على قتل ألف كافر.	٦٢
النبي ﷺ قال لوحشي ؓ: «غيب وجهك عني لا أراك» فالنبي ﷺ لا يطيق رؤيته ومع ذلك هو على الحرص عليه والنصح له.	٦٣
لا مجال في الدعوة لتأثير وتدخل العواطف في إيصال الخير للآخرين، بل يداس على العواطف من أجل وصول هذا الخير، وهذا الذي حدث مع وحشي ؓ.	٦٣
رحمة النبي ﷺ مع الحبْر الذي أخافه عمر ؓ عندما أساء الطلب.	٦٤
رحمة النبي ﷺ بالكفار عند فتح مكة.	٦٦
وهذا عكرمة بن أبي جهل ؓ يضع وساما على صدر النبوة.	٦٨
لا يأس في منهج النبوة والدعوة أمام أي مؤثرات لوقف إشاعة الإيمان.	٧١
أهل الدعوة هم الذين أحيوا صفة التراحم في أمة النبي ﷺ، فقاموا يبذلون الجهد بالنفس والمال لرحمة هذه الأمة.	٧١
رأى النبي ﷺ في كل نفس تموت على غير الإسلام مسئولية عظيمة عليه أن يدعوها ويرحمها وقوله ﷺ متحسراً لرؤية جنازة يهودي «نفسٌ تفلتت مني إلى النار».	٧٢
هل تتحسر الأمة الآن على الذين يموتون كل يوم بغير أن يتحصلوا على الهداية	٧٢
فصل بعض الأمثلة على نصح الدعاة المؤمنين المذكورين في القرآن العظيم.	٧٣
دعوة ونصح مؤمن آل ياسين مع قومه وكيف نصح لهم وسعى إليهم.	٧٤
قول ابن عباس عن مؤمن آل ياسين نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يا قوم اتبعوا المرسلين﴾ وبعد مماته بقوله ﴿يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾.	٧٥
وهذا حرص مؤمن آل فرعون عندما استمع إلى الكليم موسى عليه الصلاة والتسليم.	٧٦
مؤمن آل فرعون خاف على قومه من الضلالة ودعاهم إلى الرشاد: ﴿ويا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد﴾.	٧٧
فصل «وهذا ما ورد تأكيده في الآثار أن البراءة في منهج النبوة والدعوة من الصفة لا من الذات».	٧٨

الموضوع	الصفحة
حديث البخاري في قصة شارب الخمر وغضب النبي ﷺ على من سوى بين كره الخمر لأنها رجس من عمل الشيطان وبين كره شاربها حتى دعا عليه بقوله «لعنه الله».	٧٩
قول العلامة الشوكاني «تبرأ النبي ﷺ من صنع خالد ولم يتبرأ منه» تعقيبًا على دعاء النبي ﷺ «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد».	٨٠
حديث العابد من بني إسرائيل الذي وطئ أحد المسرفين رأسه وهو ساجد فدعا عليه كراهة لفعله وكراهة لذاته فعاقبه الله تعالى.	٨١
قصة ماعز رضي الله عنه عندما أقر على نفسه بالزنا، وحديث الرجلين الذين تكلما فيه عندما رُجم، وكيف غضب عليهما النبي ﷺ عندما خلطا بين المعصية والعاصي، والزنى والزاني.	٨٢
قصة المرأة التي رجمها النبي ﷺ وغضبه على من عمم ذم الصفة ليشمل الذات.	٨٣
قصة عمر رضي الله عنه مع الجارية التي أصابت حدا فلم يسقط حقوقها ولم يجعل معصيتها سببا في بغضها.	٨٤
غضب عمر رضي الله عنه على من سوى بين بغض الخمر وبغض شاربها وتوعده وتهديده لأبي موسى رضي الله عنه في ذلك.	٨٥
بكاء عمر رضي الله عنه حرصا وشفقة على العاصي لما رأى من يخلط حكمه بحكم معصيته.	٨٥
فصل: منهج النبوة والدعوة لا يأس مع أحد من الناس أن يُبلّغ رسالة ربه وذلك لخفاء العاقبة والموافاة.	٨٦
كم من بعيد بغيض لكفره وعتوه وطغيانه، وهو في نفس اللحظة محبوب من الله تعالى للإيمان الموافي به.	٨٧
فصل الفرق بين الغضب لله تعالى وبين العجب والكبر بالطاعة.	٩٢
قد يجمع الطائع عصيانا على عصيان فيأنف أن يقبل الحق من غيره ممن هو بعيد عن الإيمان ويأنف أن يؤدي الحق إليه.	٩٣
الذي يريد الانقطاع عن عصاة المسلمين، إنما قطع فيهم رحم الإسلام، التي أمر الله تعالى أن توصل، وكثير من هؤلاء أنت لا تعلم العاقبة فيك وفيهم.	٩٤

الموضوع	الصفحة
الصحابة ﷺ منهم بايعوا على النصح لكل المسلمين، طائعين مؤمنين، أو عاصين معرضين، بل هؤلاء أولى وأحوج للنصح من غيرهم.	٩٤
قول الله عز وجل ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه﴾ وقول العلماء فيها أي لا يصونوا أنفسهم عما ارتضاه النبي ﷺ لنفسه.	٩٧
النبي ﷺ ارتضى لنفسه السير في الأسواق ودعوة الناس في المجامع والمنتديات	٩٧
كان من هدي النبي ﷺ أنه يجمع المسلمين في المسجد ليخبرهم بما يهمهم وليحثهم على الإيمان والتقوى.	٩٧
الحديث الذي رواه مسلم في استحباب جمع الناس من أجل أخبارهم بما يهمهم والحث على التزام الإيمان ودلالتهم على الخير قد يكون هو ما اختاره أهل التبليغ أساسًا لأصل ما يقومون به من الجولات على الناس وجمعهم في المساجد لإخبارهم بما يهمهم.	٩٩
فصل في بغض الفاسق والمبتدع مع التواضع لهما على ما فيهما من تناقض.	١٠١
مبحث عظيم للإمام الغزالي رحمه الله تعالى	١٠٢
الكبير من هو كبير عند الله في الآخرة وليس دوام الهيئة للإنسان، كما لم يكن ابتداؤها إليه.	١٠٢
الكمال في سعادة الآخرة والقرب من الله لا فيما يظهر في الدنيا مما لا بقاء له.	١٠٢
ثلاثة أمور مانعة من الكبر عند مشاهدة المبتدع أو الفاسق أو عند أمرهما بالمعروف ونهيهما عن المنكر.	١٠٤
مثال يبين أنه ليس من ضرورة الغضب لله أن تتكبر على المغضوب عليه وترى قدرك فوق قدره.	١٠٤
فصل ما ينبغي أن يتصف به الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.	١٠٦
كان أصحاب عبدالله بن مسعود يقولون مهلا رحمكم الله.	١٠٧
نقل مهنا ينبغي أن يأمر بالرفق والخضوع، قلت: كيف؟ قال: إن أسمعوه ما يكره لا يغضب فيريد أن ينتصر لنفسه.	١٠٧

الموضوع	الصفحة
ما أورده الإمام ابن مفلح في الآداب الشرعية عن الإمام أحمد: وسأله أبو طالب: إذا أمرته بمعروف فلم ينته؟	١٠٧
ما أورده الإمام ابن مفلح الحنبلي عن عمر بن عبدالعزيز أنه قال لابنه: يا بني إني إنما أروض الناس رياضة الصعب.	١٠٧
قال حماد بن سلمة إن صلة بن أشيم مرَّ عليه رجل قد أسبل إزاره فهم أصحابه أن يأخذوه بشدة فقال....	١٠٧
ما أورده الإمام ابن الجوزي في صفة الصفوة عن معروف الكرخي. .	١٠٨
قصة عبدالله بن محمد بن عائشة مع الغلام القرشي الذي كان سكرانا في الطريق وقد قبض على امرأة فاستغاثت..	١٠٨
قول محمد بن زكريا الغلابي: «إن الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويكون معروفهم منكرا فعليكم بالرفق في جميع أموركم تنالون به ما تطلبون».	١٠٨
فصل الكافر ضربان: كافر يعاقب لا محالة على التحقيق وكافر لا يعاقب.	١١٠
أصول أهل السنة والجماعة أن المؤمن ضربان: مؤمن الله يحبه ويواليه، ومؤمن لا يحبه الله ولا يواليه، بل يبغضه ويعاديه.	١١١
أصول أهل السنة والجماعة أنه لا يجوز أن يطلق القول بأن المؤمن يستحق الثواب، والكافر يستحق العقاب، بل يجب تقييده بالموافاة.	١١٣
ليس الإيمان ما يتزين به العبد قولا وفعلا، لكن الإيمان جرى السعادة في سوابق الأزل، وأما ظهوره على الهياكل فربما يكون عاريا، وربما يكون حقيقة.	١١٣
البراءة في منهج الأنبياء والدعوة من العصاة نَوْعا لا عَيْنا وحرمة لعن العصاة المعينين.	١١٥
غضب النبي ﷺ على من سوى بين المعصية وصاحبها، وبين النوع والمعين.	١١٦
لعن النبي ﷺ في الخمر أصنافًا، كل هذا يلعن النوع لا المعين، فلعن شارب الخمر نوعا، لكن فلان يشرب الخمر هل نلعنه؟، هذا الذي غضب منه النبي ﷺ وغضب على من فعله، وقال له: لا تلعنه.	١١٦
لو طبقنا أحكام النوع على المعينين فلن يسلم لنا مجتمع، بل لابد في ذلك من وجود الشروط وانتفاء الموانع.	١١٦

الموضوع	الصفحة
لعن الله تعالى في كتابه الظالمين نوعا لا عينا فقال الله تعالى ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾، فلعن الظالمين لا الظالم والفاسقين لا الفاسق.	١١٦
الأحاديث التي استدل بها الإمام النووي في باب جواز لعن أصحاب المعاصي غير المعينين.	١١٧
الترجمة التي أوردها الإمام النووي في رياض الصالحين في باب تحريم لعن إنسان بعينه أو دابته.	١١٧
فإلى هؤلاء الذين يؤججون الأوقات دعوة على غير الطائعين، ويحسبون أنها نصرة للدين، كيف بكم أمام هذا الذي رواه البخاري، من دعاء النبي ﷺ على الذين قتلوا القراء، ثم نهى الله تعالى له عن ذلك وإنزاله قرآنا في هذا، وهو قوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يعذبهم أو يتوب عليهم فإنهم ظالمون﴾.	١٢٠
قول الإمام القرطبي قوله عليه السلام: «كيف يفلح قوم شجوا رأس نبيهم» استبعاد لتوفيق من فعل ذلك به وقوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ تقريب لما استبعده واطماع في إسلامهم.	١٢١
ولما أطمع في ذلك قال ﷺ: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».	١٢١
قول النبي ﷺ إني لم أبعث لعانا ولكن بعثت داعيا ورحمة.	١٢١
كيف بمن يعتبر أن وظيفته في الدنيا هي عداوة غير المسلمين، ولو لم يكن منهم إيذاء، ولم يجر منهم اعتداء.	١٢٢
بدلا من التفكر لهم بالرحمة والهداية، يرى البعض أن رفع اليد بالدعاء لاستئصالهم، وتخليص المعمورة منهم لكفرهم، هو الأولى والأجدى.	١٢٢
أصبحت الآن الجفوة والعداوة بين أمة الدعوة وأمة الإجابة، وتعطلت أعمال الهداية وزادت في الأرض الغواية.	١٢٢
مبحث قيم للإمام الغزالي رحمه الله تعالى في تحريم لعن المعين والأحكام المتعلقة بذلك.	١٢٣
قول رسول الله ﷺ: «المؤمن ليس بلعان».	١٢٣
قول أبي الدرداء رضي الله عنه: «ما لعن أحد الأرض إلا قالت لعن الله أعصانا لله».	١٢٣

الموضوع	الصفحة
قول الإمام الغزالي الصفات المقتضية للعن ثلاث: الكفر والبدعة والفسق.	١٢٤
للعن في كل واحدة ثلاث مراتب: الأولى اللعن بالوصف الأعم والثانية اللعن بأوصاف أخص منه والثالثة: اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر لأن الأعيان تتقلب في الأحوال.	١٢٤
لعن الأشخاص فيه خطر فليجتنب ولا خطر في السكوت.	١٢٦
قول ابن عون: إنما هما كلمتان تخرجان عن صحيفتي يوم القيامة لا إله إلا الله ولعن الله فلانا، فلأن يخرج من صحيفتي لا إله إلا الله أحب إلي من أن يخرج منها لعن الله فلانا.	١٢٧
قول ابن عمر رضي الله عنهما: إن أبغض الناس إلى الله كل طعان لعان.	١٢٧
النبي نوح عليه السلام دعا على قومه حينما أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحامهم، وأعقم أرحام النساء وأصلاب الرجال قبل العذاب بسبعين عاما.	١٢٨
قول الإمام أبو بكر المالكي رحمه الله تعالى «فأما كافر معين لم تعلم خاتمته فلا يُدعى عليه لأن مآله عندنا مجهول وربما كان عند الله معلوم الخاتمة بالسعادة.	١٢٩
ما ترجم له الإمام البخاري رحمه الله تعالى باب(لعن السارق إذا لم يُسم) وقول الحافظ ابن حجر: أي ما لم يُعيّن.	١٣١
قول الإمام ابن بطال رحمه الله تعالى: لا ينبغي تعيين أهل المعاصي ومواجهتهم باللعن.	١٣١
ما قرره العلامة ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى في الفتاوى الحديثية حيث قال: وأما لعن شخص بعينه فإن كان حيا لم يجز مطلقا إلا إن علم أنه يموت على الكفر كإبليس.	١٣١
تحريم الإمام النووي للعن المعين في الترجمة التي أوردها في رياض الصالحين (باب تحريم لعن إنسان بعينه أو دابته).	١٣٢
تقييد العلامة ابن علان لجواز لعن إنسان بعينه بتيقن موته على الكفر.	١٣٢
إنما حرمت اللعنة لأنها طرد من رحمة الله ولا يعلم ذلك إلا بتوقيف، والحي الكافر إيمانه مرجو فيدخل في أهلها.	١٣٢

الموضوع	الصفحة
هذا هو الحامل لأهل الدعوة على الحرص على كل أحد، كافرا كان أو مؤمنا، والعمل على نجاته ودعوته والشفقة عليه، رجاء أن يكون من أهل الرحمة، فيكونون هم سببا في تحصيل ما قُدر له من الهداية والإيمان.	١٣٣
الأعمال حسنها وسيئها أمارات وليست موجبات.	١٣٣
مصير الأمور في العاقبة على ما سبق به القضاء وجرى به القدر في الابتداء على ما قاله العلامة الخطابي رحمه الله.	١٣٣
ما ترجم له الإمام البخاري في الصحيح باب (جف القلم على علم الله وقوله ﴿وأضله الله على علم﴾).	١٣٤
ما ترجم له ابن حبان لحديث الباب بقوله (ما يجب على المرء من التشمير في الطاعات وإن جرى قبلها ما يكره الله من المحظورات).	١٣٤
قول القاضي عياض: أورد عمران على أبي الأسود شبهة القدرية من تحكمهم على الله ودخولهم بآرائهم في حكمه، فلما أجابه بما دل على ثباته في الدين قواه بذكر الآية وهي حد لأهل السنة، والآية هي ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسئلون﴾.	١٣٥
قول أبي الأسود الدؤلي: كل شيء خلق الله وملك يده فلا يسأل عما يفعل.	١٣٥
فصل: «من عقوبة لاعن الناس في الدنيا سقوط عدالته واهتزاز منزلته».	١٣٥
ما أورده الإمام النووي أن اللعانين للناس في الدنيا ليست لهم منزلة عند الله تعالى في الآخرة، بل لا يكونون شفعاء ولا شهداء.	١٣٥
ما ذهب إليه الإمام المظهري من فسق من يلعن الناس وهو ما أورده العلامة ابن علان في دليل الفالحين.	١٣٦
ما ترجم له الإمام النووي في رياض الصالحين باب: (تحريم سب الأموات بغير حق ومصلحة شرعية).	١٣٨
فصل استحباب الدعاء للعصاة.	١٣٩
ما أورده الإمام الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾.	١٤٠
كان الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم هو آخر الحالين للنبي ﷺ وهو ما أورده الإمام البخاري في أربع تراجم من الصحيح وفي كتابين مختلفين.	١٤٢

الموضوع	الصفحة
ما ذهب إليه ابن بطال رحمه الله تعالى أن الدعاء للمشركين ناسخ للدعاء عليهم. ودليله قوله تعالى: ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾.	١٤٢
ما ذهب إليه الحافظ ابن حجر في الفتح من الجمع بين الترجمتين.	١٤٣
ما ثبت عن النبي ﷺ أنه دعا للكفار حتى مع شدة أذاهم.	١٤٣
ما أورده الإمام الطحاوي رحمه الله في مشكل الآثار باب: «بيان مشكل ما روي عن رسول الله ﷺ في الاستغفار للمشركين من نهي وإباحة».	١٤٤
قول الإمام الطحاوي رحمه الله أن الإستغفار لهم ما كان الإيمان مرجوا منهم ومحرم عليهم بعد أن يُوئس منهم وذلك لا يكون إلا بعد موتهم.	١٤٤
ما أورده الإمام الشوكاني عن ابن عباس قال: لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات فلما مات تبين له أنه عدو لله فتبرأ منه.	١٤٥
ما ترجم له الإمام البخاري في الصحيح: (باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملة) ونص الحافظ ابن حجر على ندب الدعاء للعصاة بالتوبة والمغفرة.	١٤٦
قول القاضي عياض رحمه الله تعالى: إن لعن النبي ﷺ لأهل المعاصي كان تحذيرا لهم عنها قبل وقوعها، فإذا فعلوها استغفر لهم ودعا لهم بالتوبة.	١٤٧
حديث الغلام الشاب الذي أتى النبي ﷺ ليأذن له في الزنا فدعا له بقوله «اللهم طهر قلبه واغفر ذنبه وحصن فرجه» فلم يكن شيء أبغض إليه منه يعني من الزنا.	١٤٨
قول الحافظ ابن حجر في حديث شارب الخمر: وفيه الرد على من زعم أن مرتكب الكبيرة كافر لثبوت النهي عن لعنه والأمر بالدعاء له.	١٤٩
قول الحافظ ابن حجر رحمه الله في شرح الحديث: لا تنافي بين ارتكاب النهي وثبوت محبة الله ورسوله في قلب المرتكب.	١٤٩
الداعي على العاصي قد حقق مقصود الشيطان في ذلك وهو خزيه، ونص الحافظ ابن حجر على أنه من السنة الأمر بالدعاء للعصاة والمذنبين.	١٥٠
دليل استحباب الدعاء للعاصين والمعرضين قول النبي ﷺ في رواية أبي داود: «ولكن قولوا اللهم اغفر له اللهم ارحمه».	١٥١

الموضوع	الصفحة
انتفاء الإيمان عن العاصي إنما هو حالة ارتكابه للمعصية وهو ما قرره شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر العسقلاني في الفتح.	١٥١
فصل حديث البخاري ومسلم في حكمة عمل أهل الدعوة في نقل العصاة من مكان معصيتهم.	١٥٢
«قد يعصي الإنسان وفي قلبه من محبة الله ورسوله ما الله به عليم».	١٥٣
أمر النبي ﷺ بالإنتقال من الأماكن التي تحصل فيها غفلة عن عبادة من العبادات، والتحول من هذه الأرض إلى بقاع أخرى، تقام فيها العبادة وتؤدى على أكمل ما يكون.	١٥٤
بين الإمام مسلم السبب في الأمر بالإرتحال من ذلك الموضع الذي ناموا فيه ولفظه «فإن هذا منزل حضرنا فيه الشيطان» ولأبي داود من حديث ابن مسعود «تحولوا عن مكانكم الذي أصابتكم فيه الغفلة».	١٥٤
من حصلت له غفلة في مكان عن عبادة استحب له التحول منه، ومنه أمر الناعس في سماع الخطبة يوم الجمعة بالتحول من مكانه إلى مكان آخر.	١٥٤
هذا المعنى في حديث قاتل التسعة والتسعين نفسا وهو تغيير البيئة والصحبة للعصاة والمذنبين رجاء توبتهم وهدايتهم الذي هو روح عمل أهل الدعوة، هو الذي ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري.	١٥٥
قول الإمام ابن حجر على هذا الحديث: «ففيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية والتحول منها كلها والاشتغال بغيرها».	١٥٧
وهذا نفسه ما يقوم به أهل الدعوة مع العصاة والمذنبين، فتتغير نفوسهم، وتضيء أرواحهم.	١٥٩
هذه الحكمة في تغيير البيئة شرعها النبي ﷺ في الزاني غير المحصن.	١٥٩
فصل الولاء المذموم للكفار مقيد باعتقاد معتقدهم والرضى بأفعالهم.	١٦٠
قول العلامة القرطبي في قوله تعالى: ﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء﴾.	١٦١

الموضوع	الصفحة
ما أورده العلامة ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما الذين يتخذون الكافرين أولياء﴾ وكيف أشار إلى القيد في الولاء المذموم.	١٦١
قول العلامة القاسمي: إن كانت الموالاة بمعنى المودة، وهي أن يودَّه لمعصيته، كان ذلك كالرضا بالمعصية.	١٦٣
قول الإمام النيسابوري: وكون المؤمن مواليا للكافر يحتمل ثلاثة أوجه.	١٦٣
قول النبي ﷺ: «فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضى وتابع».	١٦٤
فبرَّأ النبي ﷺ من كره المنكر بشروطه وقيوده، وأضاف السلامة على من أنكر المنكر ولو لم يغيره، وأخبر ﷺ أن الخوف والإثم على من رضى بالمنكر وفعله، وكذلك منهج النبوة والدعوة في معاملة غير الطائعين.	١٦٤
قول العلامة الجصاص في قوله تعالى: ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين﴾ فأضاف القتل إليهم وإن لم يباشروه ولم يقتلوه إذ كانوا راضين بأفعال القاتلين.	١٦٥
تأكيد العلامة الجصاص على القيد في الولاء المذموم وهو الرضا بأفعال المخالفين العاصين وذلك في قوله: فكذلك ألحق الله تعالى من لم ينه عن السوء من أصحاب السبت بفاعليه إذ كانوا به راضين ولهم عليه متوالين.	١٦٥
قول الإمام القرطبي في قوله تعالى: ﴿فكذبوه فعقروها﴾ أي عقرها الأشقى وأضيف إلى الكل لأنهم رضوا به.	١٦٥
شرح حديث: «فمن عرف فقد برئ ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع» من كتاب «المفهم» شرح صحيح مسلم للعلامة القرطبي.	١٦٦
وهذا القيد في الولاء المذموم وهو الرضا بأفعال العاصين، هو الذي نص عليه الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود فيما رواه ابن أبي شيبة ونعيم عنه.	١٦٦
قول سيدنا عبدالله بن مسعود ﷺ: إن الرجل يشهد المعصية يعمل بها فيكرهها فيكون كمن غاب عنها، ويغيب عنها فيرضاها فيكون كمن شهدها.	١٦٧
النجاة في معرفة المعروف أولا، ثم الرضى به، ثم فعله، ثم الأمر به وفق شروطه وأركانه وحدوده.	١٦٨
ما أورده الإمام الهيثمي في مجمع الزوائد باب: «قهر السفيه الحليم».	١٦٨

الموضوع	الصفحة
كذلك المنكر الشأن فيه يدور على معرفته، ثم بغضه وكراهيته، ثم الانتهاء عنه، ثم الأمر باجتنابه والنهي عنه أيضا وفق حدوده وشروطه وأركانه.	١٦٩
قول الصحابي عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: هلك من لم يعرف المعروف وينكر المنكر.	١٦٩
حديث النبي ﷺ: «أهل المعروف في الدنيا، أهل المعروف في الآخرة وأهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة».	١٦٩
فصل: «البراءة في منهج الأنبياء بعد إقامة الحجة الرسالية التي يكفر تاركها وبعد دعوتهم الدعوة التامة الكاملة».	١٧٠
فإن قيل إن الله تعالى قد أمرنا بالتأسي بالخليل إبراهيم عليه الصلاة والتسليم والذين معه في البراءة من قومهم.	١٧١
والجواب على ذلك نقول: إن حالنا خلاف حال الخليل إبراهيم عليه السلام والحكم معنا بخلاف الحكم معه.	١٧١
السؤال المتبادر الآن هو: متى تبرأ الخليل إبراهيم عليه الصلاة والتسليم والذين معه من أقوامهم؟	١٧١
ما أخبر به الله عز وجل في كتابه في قوله تعالى: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾.	١٧٢
ما أورده الإمام ابن كثير في ذلك.	١٧٢
ما أورده الإمام القرطبي في بيان مناظرة الخليل عليه السلام لقومه وإقامته الحجة عليهم.	١٧٣
الذين لم يقيموا الحجة على أقوامهم كيف يحكمون عليهم بالكفر ومن ثم يتبرأون منهم.	١٧٥
أمر تكفير المسلمين عملاً بظواهر النصوص، أمر في غاية الخطورة.	١٧٥
قول القاضي عياض: استباحة دماء المصلين الموحدين خطر والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم واحد.	١٧٥
ما أورده الإمام البخاري باب: «كفران العشير، وكفر دون كفر».	١٧٦
قول القاضي أبو بكر بن العربي مراد المصنف أن يبين أن الطاعات كما تسمى إيمانًا	١٧٦

الموضوع	الصفحة
كذلك المعاصي تسمى كفراً، لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج من الملة.	
الترجمة القيمة التي أوردها الإمام البخاري: «باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يُكَفَّرُ صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، لقول النبي ﷺ «إنك امْرُؤٌ فيك جاهلية» وقول الله تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾.	١٧٧
قول الحافظ ابن حجر أن الخاص يقضي على العام والمبين عن المجمل، وأن اللفظ يحمل على خلاف ظاهره لمصلحة دفع التعارض.	١٧٩
قول الإمام النووي في قوله ﷺ : «لا ترجعوا بعدي كفاراً» قيل فيه سبعة أقوال:	١٨٠
القاعدة أنه من أطلق لفظا لا يعرف معناه لا يؤاخذ بمقتضاه.	١٨١
قول العلامة ابن عابدين نقلاً عن التتارخانية لا يكفر بالمحتمل لأن الكفر نهاية في العقوبة، فيستدعي نهاية في الجناية مع الاحتمال لا نهاية.	١٨١
قول صاحب البحر والذي تحرر أنه لا يفتى بكفر مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن أو كان في كفره اختلاف ولو رواية ضعيفة.	١٨٢
ولعدم التكفير بالمحتمل أمثلة أوردها العلامة الإمام ابن حجر الهيتمي.	١٨٢
إذن فالمحتملات لا يقدم على التكفير بها من يشح على دينه.	١٨٣
ما أورده الإمام الطحاوي: إن الإسلام الثابت لا يزول بشك مع أن الإسلام يعلو وينبغي للعالم إذا رفع إليه هذا ألا يبادر بتكفير أهل الإسلام .	١٨٣
قول العلامة الشوكاني: اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخُروجه من دين الإسلام، ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يُؤمن بالله واليوم الآخر أن يُقدم عليه إلا ببُرهانٍ أوْضح من شمس النهار.	١٨٣
قول العلامة الشوكاني في قوله تعالى: ﴿ولكن من شرح بالكفر صدرا﴾.	١٨٤
ما أورده الإمام الشوكاني أنه من جاء بهذه الأركان الخمسة، وقام بها حق القيام فهو المسلم على رغم أنف من أَبى ذلك كائنا من كان.	١٨٦
قول الإمام الشوكاني والأدلة الدالة على وجوب صيانة عِرْض المسلم واحترامه يَدُل بفحوى الخطاب على تجنُّب القَدْح في دينه بأي قادح، فكيف إخراجه عن الملة الإسلامية إلى الملة الكفرية، فإن هذه جناية لا تَعْدِلها جناية، وجُرْأة لا تُماثلها جرأة.	١٨٦

الموضوع	الصفحة
قول الإمام الغزالي: ذهبت طائفة إلى تكفير عوام المسلمين لعدم معرفتهم أصول العقائد بأدلتها، وهو بعيد نقلاً وعقلاً وليس الإيمان عبارة عما اصطلح عليه النظار، بل نور يقذفه الله تعالى في القلب.	١٨٧
أفضل الطرق لمعرفة التوحيد للعامة من المسلمين، هي طريقة القرآن العظيم.	١٨٨
القرآن يسعى لإضافة العظمة والجلال والتقديس بالكلية لله تعالى، وتوحيده توحيد الألوهية، أي توحيد الله عز وجل بأفعال خلقه وعباده، وأفراده تعالى بالعبودية وحده.	١٨٨
هذا التوحيد هو الذي أُرسلت عليه الرسل، وأُنزلت به الكتب ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾.	١٨٨
طريقة القرآن تغرس في القلوب الاعتقادات الجازمة وتمنع من التعنت في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية قاصرة قليلة الإدراك.	١٨٨
وهذا تأكيد الإمام الغزالي لهذا الأمر، لمن سأله عن حكم العامي، الذي يسأل عن الأدلة الكلامية الجدلية، على طريقة النُظّار، لتقرير المباحث في أبواب العقيدة.	١٨٩
قول الإمام الغزالي أدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل إنسان وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويستضر به الأكثرون.	١٩١
قول الإمام الغزالي أدلة القرآن كالماء الذي ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوى، وسائر الأدلة كالأطعمة التي ينتفع بها الأقوياء مرة ويمرضون بها أخرى، ولا ينتفع بها الصبيان أصلاً.	١٩١
قول الإمام الغزالي ولهذا قلنا أدلة القرآن أيضًا ينبغي أن يصغى إليها إصغاءه إلى كلام جلى، ولا يماري فيه إلا مراء ظاهرا، ولا يكلف نفسه تدقيق الفكر وتحقيق النظر.	١٩٢
قول سلطان العلماء: لا عبرة بقول من أوجب النظر عند البلوغ على جميع المكلفين فإن معظم الناس مهملون لذلك غير واقفين عليه ولا مهتدين إليه، ومع ذلك لم يفسقهم أحد من السلف الصالحين كالصحابة والتابعين.	١٩٢
قول الإمام ابن تيمية: «إن القول قد يكون كفرا، فيطلق القول بتكفير صاحبه ويقال: من قال هذا فهو كافر. لكن الشخص المعين الذي قاله لا يحكم بكفره، حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها».	١٩٣
قول الإمام ابن تيمية: «فلا يشهد على معين من أهل القبلة بالنار، لجواز ألا يلحقه الوعيد، لفوات شرطه أو ثبوت مانع.	١٩٤

الموضوع	الصفحة
قول الإمام ابن تيمية في مجموع الفتاوى: «والتكفير هو من الوعيد، فإنه وإن كان القولُ تكذيبًا لما قاله الرسول ﷺ، لكن قد يكون الرجلُ حديثَ عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة.	١٩٦
الخليل إبراهيم عليه السلام إنما تبرأ من قومه بعد أن بلَّغهم الرسالة، ودعاهم الدعوة التامة الكاملة، فهل دعا الآخرون أقوامهم قبل أن يتبرءوا منهم؟	١٩٩
ما أورده الإمام السيوطي عن قتادة قال: «ما أهلك الله من قرية إلا من بعد الحجة والبينة والعذر حتى يرسل الرسل وينزل الكتب تذكرة لهم وموعظة وحجة لله.	٢٠٠
الخليل إبراهيم عليه الصلاة والتسليم قبل أن يتبرأ من قومه حرص ونصح لأئمة الكفر وصنَّاع الأصنام على عهده ومنهم أباه فهل حرص المتأخرون على أقوامهم ونصحوهم قبل البراءة منهم؟	٢٠٠
الخليل إبراهيم عليه السلام والذين معه تبرءوا من قومهم وكانوا كفارا عبَّاد أصنام فكيف بالمعاصرين الذين يتبرءون من أقوامهم المسلمين، أتباع النبي ﷺ الموحدين! .	٢٠٣
المستدل بآية البراءة قد غفل عن الآيات التي تليها ولو قرأها وتدبَّرها لكفانا وكفى المسلمين الاجتهاد المبتور من دليل واحد، مع طرح بقية الأدلة.	٢٠٣
قول الإمام القرطبي في تفسيره «ولما نزلت عادى المسلمون أقرباءهم من المشركين، علم الله شدة وجد المسلمين في ذلك فنزلت: ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾. وهذا بأن يسلم الكافر.	٢٠٤
الآية: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم﴾ فيها ثلاث مسائل.	٢٠٤
فإذ قد رأيت أن أكثر أهل التأويل والتفسير قالوا إنها محكمة وهي رخصة من الله في صلة الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم.	٢٠٦
هناك فرق بين النهي عن مودة أعداء الله تعالى ورسوله ﷺ والمؤمنين الوارد في أول الآيات من سورة الممتحنة وبين الأمر الوارد بالبر والإحسان إليهم.	٢٠٧
فصل ما أورده الإمام القرافي في الفروق في الفرق بين قاعدتين عظيمتين في الولاء والبراء، الفرق بين قاعدة بر أهل الذمة وقاعدة التودد لهم .	٢٠٨

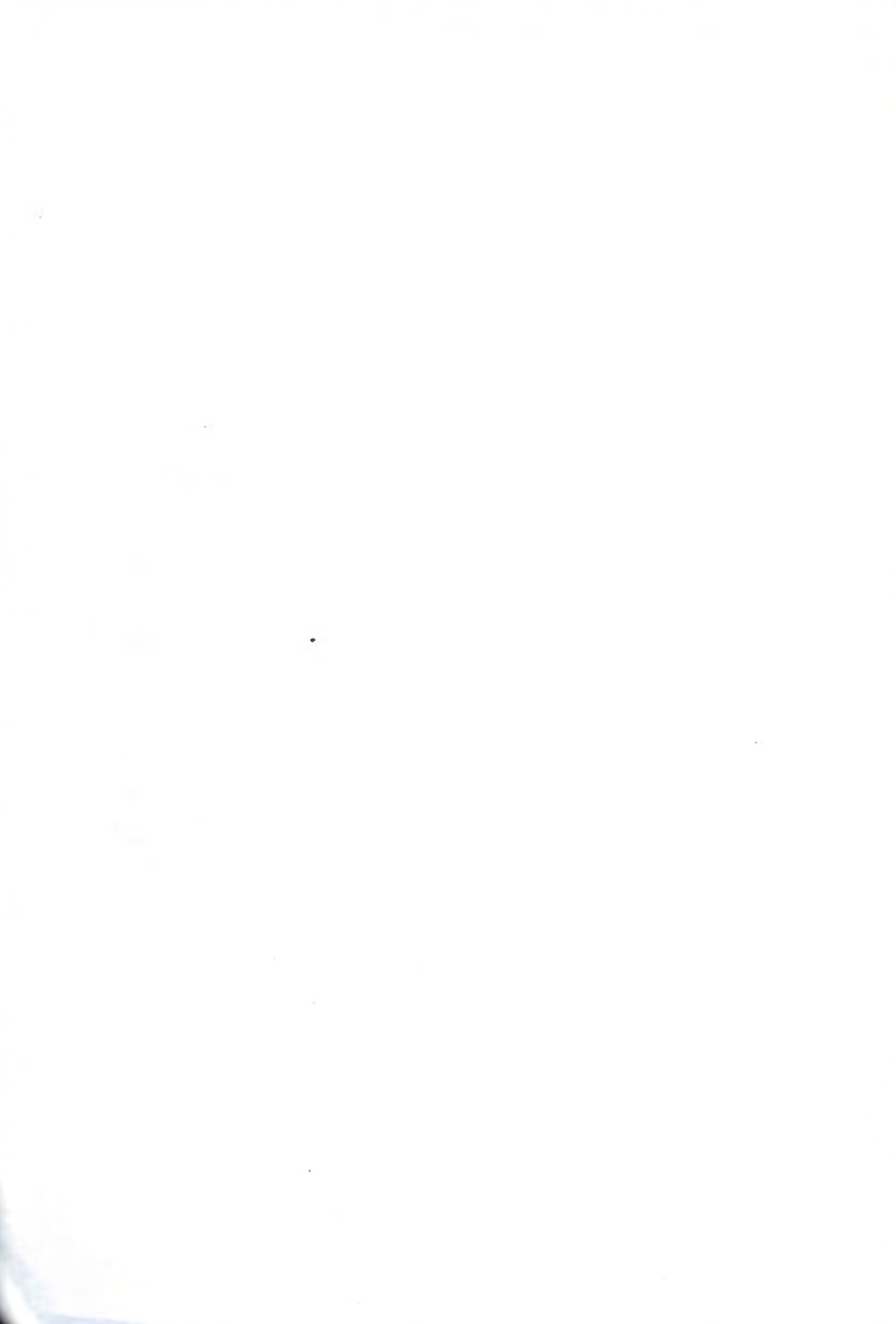
الموضوع	الصفحة
إذا كان عقد الذمة بهـذه المثابة تعين علينا أن نبرهم بكل أمر لا يكون ظاهره يدل على مودات القلوب ولا تعظيم شعائر الكفر.	٢١٠
بعض الأمثلة على ذلك.	٢١٠
وأما ما أمـر به من برهم من غير مودة بـاطنية فالرفق بضعـيفهم وسد خلة فـقيرهم... والدعاء لهم بالهداية وأن يُجعلوا من أهل السعادة.	٢١٠
معاني البر لغة وشرعا وقول الفقهاء: إنه اسم جامع للخيرات كلها.	٢١٢
معاني الولاء والبراء والمودة لغة.	٢١٤
إذا كنا قد أمـرنا بالنسبـة للذين لم يقاتلونا أو يخـرجونا من ديارنا بالبـر الذي هو اسم جامع للخيرات كلها، فما أبهى شرعنا، وما أرفع ديننا، وما أقدس ملتنا.	٢١٤
يا أيتهـا الدنيا إلى قرآننا وسنة نبـينا ﷺ أقبلي، وتعلمي من الإسـلام أسمى المواثيق وأكمل العهود لحقوق الإنسان التي يسعى لها الساعون.	٢١٤
يبـقى العدل والإنصـاف من حقنا، والـبر والرحـمة واللطف ومكارم الأخـلاق أصل شريعتنا، وإن أخطأ في فهمها البعض وجهل نصوصها البعض.	٢١٥
التاريخ خير متحدث عن صدق ما نقول، وفـيه من القصص ما تحار فيه العقول، وهو خير شاهد أن هذا ما تحقق إلا في ظل وكنف شريعة المسلمين.	٢١٥
مثال ما أورده الإمام القرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿سلام عليك﴾.	٢١٥
المثـال الثاني مـا أورده الإمام ابن القـيم في (زاد المعـاد في هدي خيـر العبـاد ﷺ):	٢١٨
فصل في: «هديه ﷺ في السلام على أهل الكتاب».	٢١٨
ما يقوم به الدعاة كـيف يُعاب عليهم، إذا رفقوا بالعصـاة من المسلمين وغير المسلمين وألطفوا القول لهم رغبة في هدايتهم وعودتهم وتوبتهم.	٢١٩
أيلامون لكونهم يدعون لغير المسلمين بالهداية، وأن يوفَّقوا لطريق السعادة؟! رغم العدد الهائل الذي يدين بغير دين الإسلام على وجه المعمورة!..	٢١٩
ها هو شيخ الإسلام ابن حجر ينص في الفتح على أن الهـجر والبغض والقطيعة لغير المسلمين، لا يؤدي إلى ارتداعهم عما هم فيه من الكفر.	٢١٩
ما أورده الحـافظ ابن حجر من مشـروعية مكالمة العـصاة والكفار بالدعـاء إلى الطاعة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن غير المشروع معهم المكالمة بالموادة ونحوها.	٢٢٠

الموضوع	الصفحة
إما أن نُكذب الصحابي الجليل في أننا مبعوثون من قبل الله تعالى إلى كل الدنيا حتى يُعبد تعالى وحده في الأرض، وإما أن نتعاون على البر والتقوى مع أهل الدعوة المجتهدين في ذلك، للأخذ بيد غير المسلمين، ليتعرفوا عن قرب على هذا الدين .	٢٢١
في كل زمان كان ركب الأنبياء يردد كلام الإيمان، ويشع بنور الهداية للناس، حتى توقف الركب وخُتمت الرسالات.	٢٢٢
بقي لأمة الإسلام بتكليف ربها وأمر نبيها ﷺ وظيفة الأنبياء ومقاصد النبوات.	٢٢٢
وصل الأمر الآن إلينا بعد أن جفت منابعه، ونضب معينه، وتراجعت الأمة لقرون عن مهمتها، وتركت وظيفتها، وغاب عنها نياتها ومقصدها.	٢٢٣
إذا قام الآن من يجدد للأمة في الدعوة عهدها ويعيد لها في الرسالة مجدها، قاموا إليه فبدعوه، وأوقفوه وردوه لأنه يطلب الهداية للمعرضين.	٢٢٣
الرسول ﷺ «رحمة للعالمين» وأمته مثله، وقد خاطبه ربه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾ وهذا من الخطاب المتعدي له ولأمته.	٢٢٣
ها هو الإمام القرافي ينص على الدعوة لغير المسلمين «بالهداية وأن يجعلوا من أهل السعادة».	٢٢٤
إذا اتسعت النيات اليوم للبعض، وصاروا على هدي السلف الصالح، فكانوا سبلا للإيمان، وآية للعرفان، فما أطيب هديهم، وأنقى دربهم.	٢٢٤
«البر» مع المسلمين يزداد به المسلمون إيمانا مع إيمانهم، وأما غير المسلمين فيعرفون ببرهم الإسلام فيعتنقوه، ويلحظون فيه الإحسان فيلتزموه.	٢٢٤
إذن فهما قاعدتان متقابلتان، إحداهما بالمنع والنهي عن التوّدد والميل القلبي الباطني إليهم، والأخرى بالإحسان والصلة والإصلاح والبر لهم والضابط بينهما خفي دقيق يحتاج إلى تمحيص وتحقيق وقد سبق بيانه.	٢٢٤
﴿الخاتمة﴾ . «ختم اللّه لنا بالحسنى».	٢٢٥
﴿فتاوى كبار العلماء في أهل التبليغ والدعوة﴾.	٢٢٩
﴿فضيلة الإمام شيخ الفقهاء محمد أبو زهرة ﴾:	٢٣٠
«وإنه توجد جماعات في البلاد الإسلامية تخصص نفسها للدعوة الإسلامية وجدناها في لاهور سنة ١٩٥٨، وهذه الجماعات تخصص جزءا من أعمالها للدعوة إلى الإسلام، فيخصصون عُشر أوقاتهم وأموالهم، وجهودهم للدعوة إلى الإسلام.	٢٣٠

الموضوع	الصفحة
ويخرج الواحد منهم مجاهداً في سبيل الدعوة، لا يحمل أي شيء يقوي إلا قوة نفسه، ورغبته في تبليغ رسالة النبي ﷺ، يذهبون إلى حيث يكون للدعوة مجيب، وقد أسلم على أيديهم أكثر من أسلم من زنوج أمريكا وجزر الهند الشرقية وغيرها كأطراف أندونسيا».	
تأييد وإيضاح بإملاء ﴿فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز﴾:	٢٣١
«أما بعد، فقط اطلعت على هذه الرسالة بما سماها له صاحبها فضيلة الشيخ يوسف ابن عيسى الملاحي «إصلاح وإنصاف لا هدم ولا اعتساف». في بيان حال جماعة التبليغ وما لهم وما عليهم فألفيتها رسالة قيمة جديرة بما سماها به صاحبها وذلك أوضح فيها حال الجماعة ونفعهم الكبير في الدعوة إلى الله سبحانه وتوجيه الناس إلى الخير.	٢٣١
قول فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله: وهؤلاء الجماعة قد عرفناهم من دهر طويل واجتمعنا بهم غير مرة في مكة والمدينة والرياض وسرَّنا ما سمعنا منهم من النصح لله ولعباده ودعوة الناس إلى الخير وإلى إيثار الآخرة وعدم الركون إلى الدنيا والاشتغال بها عما أوجب الله عليهم من الحق.	٢٣٢
وقد سبقنا إلى تزكيتهم والثناء عليهم سماحة شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ مفتي الديار السعودية ورئيس القضاة في زمانه رحمه الله فيما كتب به إلى علماء الإحساء والمقاطعة الشرقية مع رئيس جماعة التبليغ بالمدينة الشيخ سعيد بن أحمد وجماعته من المرافقين له أوصاهم فيها بهم خيراً وذكر أن مهمتهم العظة في المساجد والإرشاد والحث على العمل بالكتاب والسنة مع التحذير من البدع والخرافات من عبادة القبور ودعاء الأموات وغير ذلك من البدع والمنكرات.	٢٣٢
قول فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله: كما شهد عندي كثير من إخواننا الثقات الذين خالطوهم وسافروا معهم إلى بلدان كثيرة بالصبر والنشاط في الدعوة إلى الله وتأثر الناس بهم وكثرة من يهديه الله على أيديهم.	٢٣٢
قول فضيلة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله: فالواجب على أهل العلم والإيمان والدعاة إلى الحق إنصافهم والتعاون معهم على الخير وتنبيههم وغيرهم من الدعاة على ما قد يقع الخطأ عملاً بالآيات والأحاديث السابقة.	٢٣٣

الموضوع	الصفحة
مقتطفات من كلام «العلامة الشيخ أبي الحسن الندوي».	٢٣٤
قول العلامة الندوي رحمه الله: «الشيء الحقيقي الذي جعل الشيخ محمد إلياس يعتلي المكان المرموق فيما يتعلق بالعمل الإسلامي، هو بعد الهمة.	٢٣٤
قول العلامة الندوي رحمه الله: هذه المنطقة الواسعة المترامية الأطراف التي ظلت مظلمة عبر قرون لم يشرق في ربوعها نور الإيمان واليقين، وقد حظيت بانقلاب عجيب في العقيدة وتقلب في القلب والعقلية والنفسية، لم يعرف له نظير في الماضي القريب والبعيد، ولو أن حكومة إسلامية بذلت كل ما لديها من وسائل وإمكانات ونصبت كثرة كاثرة من العلماء والمربين من أجل تقريب الدين إلى الناس، أو فتحت مآت وآلافا من الكتاتيب والمدارس من أجل تعليم الدين، لما استطاعت أن تكسب النجاح في نشر الدين في جزء من أجزائها في هذه السهولة، واللباقة والدقة والحكمة، حقا إن أحداث التحول في الحياة يفوق الوسائل المادية وتعجز عنه الإمكانات المادية مهما كثرت وعمت».	٢٣٧
قول العلامة الندوي رحمه الله: «ولو رأى أحد هؤلاء المبلغين يحملون مسوحهم، ويستأبطون أجزاء القرآن ويلفون الحمص أو أرغفة في ناحية من ردائهم، وألسنتهم رطبة بذكر الله، وعيونهم تنم عن السهر وإحياء الليالي في العبادة، وسيماهم في وجوههم من أثر السجود، وتشف أيديهم وأرجلهم عن الكدّ والكدح، لتمثلت أمامه قصة أصحاب الوفاء من الصحابة الأبرار الذين بعثهم الرسول صلوات الله وسلامه لتعليم القرآن وتبليغ الإسلام».	٢٣٨
قول العلامة الندوي رحمه الله: «وعلى كل فقد حدث الإقبال الشامل على الدين، وبدت آثاره في السلوك، حتى إن المنطقة التي لم تعرف المسجد، غنيت بالمساجد في كل ناحية، وانبثّت شبكة الكتاتيب والمدارس، وكثر حفاظ القرآن الكريم، ووجد عدد وجيه للعلماء والخريجين في العلوم الإسلامية...	٢٤٠
قول العلامة الندوي: وانتهت التقاليد الجاهلية فيما يتعلق بالزواج، وقل الربا والتعاطي الربوي، وشذ من يحتسى الخمر، وقل النهب والغارة، وقطع الطرق وانخفضت إلى حد مدهش نسبة الجرائم الخلقية، والاضطرابات والصراعات والخصومات، وكذلك ذبلت البدع والخرافات والتقاليد غير الإسلامية، وعادات الفسق والفجور، لأن كل ذلك لم يجد الجو الملائم له ولا التربة الصالحة في حقه.	٢٤٠

الموضوع	الصفحة
قول عجوز ميواتي متحدثا عما يجري في منطقته: «لا أدري إلا شيئا واحدا: أن الأمور التي كانت تسنفد جهودا جبارة ولا يتحقق شيء منها، عادت الآن تتم دون محاولة، وأن الأمور التي من أجل القضاء عليها كان يبذل أقصى الجهود وتشعل الحروب، وتخاض المعارك، وتكون النتيجة صفرا، أصبحت الآن تغيب دون سعي».	٢٤١
مقتطفات من كلام ﴿العلامة وحيد الدين خان﴾:	٢٤٢
«فجماعة التبليغ هي الجماعة الوحيدة التي يزداد عدد المشاركين فيها كل يوم كما إنها حتى اليوم تلقى أهمية ندائها واستجابة دعائها لدى الناس.	٢٤٢
قول العلامة وحيد الدين خان: فالسبب الوحيد في تقبلها الشديد المستمر يرجع إلى أنها لم تؤسس لتغطية الاحتياجات الزمنية المحددة مثل معظم الأحزاب الأخرى، بل إنها تنطوي على برامج لإكمال الاحتياجات الفطرية الأبدية، والتي لم ولن تتقيد بالزمان والمكان بل وضعها الخالق من الأزل للأبد.	٢٤٢
وبناء على ذلك لم ولن تؤثر عليها المؤثرات الزمنية الطارئة ولا العوامل الخارجية الغير ثابتة في كيانها. فإن من مقتضيات تلك الحقائق هو استمرار تلك الحركة ما دامت الفطرة موجودة.	٢٤٣
والإنسان يتنفس على وجه الأرض حسب فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم، فلن تؤثر عليها المؤثرات الزمانية أو المكانية الطارئة ولا تغير مجراها خصومة الأعداء.	٢٤٣
قول العلامة وحيد الدين خان: «إنني أقترح على العالم الإسلامي أن يقرر هذا المنهج التربوي مع مناهج العلوم الحديثة على الطلاب المسلمين حتى لا يغتربوا عن الدين بل ينشأ جيل جديد يستفيد بجميع العلوم الحديثة إلى جانب الثقافة الإسلامية علمًا وعملاً. وإن نجحنا في ذلك فلا يستبعد أن يكون كل طالب مُبلِّغًا للإسلام في جميع بلدان العالم كما كان كل تاجر مُبلِّغًا لدين الله في الصدر الأول من الإسلام».	٢٤٣
فهارس الموضوعات........	



عنوان المراسلة : ١٣ ش بركات

طومان باي – الزيتون – القاهرة

يُطلب من المكتبات بجوار مركز الدعوة بالجيزة

ت : ٠١٠٦٥٣٣٢٧٦٨

﴿ من هم أهل الدعوة ﴾

كلمات مضيئة

﴿ فضيلة الإمام شيخ الفقهاء محمد أبو زهرة ﴾

«وإنه توجد جماعات في البلاد الإسلامية تخصص نفسها للدعوة الإسلامية وجدناها في لاهور سنة ١٩٥٨، وهذه الجماعات تخصص جزءاً من أعمالها للدعوة إلى الإسلام، فيخصصون عُشر أوقاتهم وأموالهم، وجهودهم للدعوة إلى الإسلام.

ويخرج الواحد منهم مجاهداً في سبيل الدعوة، لا يحمل أي شيء يقوي إلا قوة نفسه، ورغبته في تبليغ رسالة النبي ﷺ، يذهبون إلى حيث يكون للدعوة مجيب، وقد أسلم على أيديهم أكثر من أسلم من زنوج أمريكا وجزر الهند الشرقية وغيرها كأطراف أندونسيا»...

انظر ملحق الفتاوى بآخر الكتاب.